شخصيات وكتب

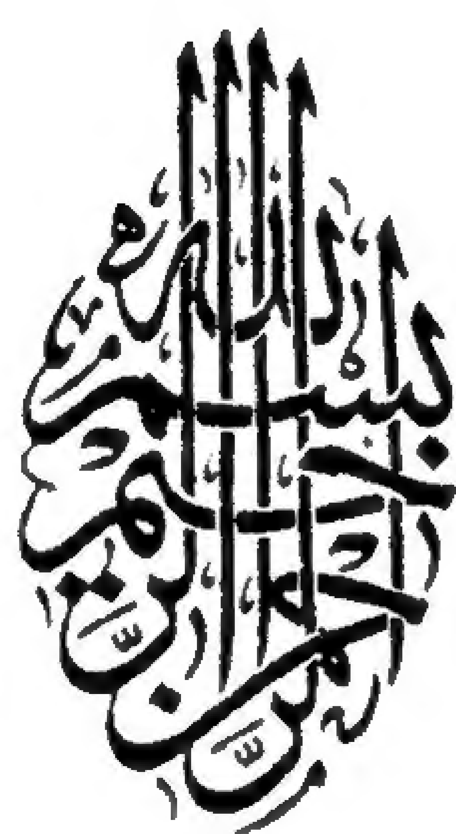
تأليف

أبو الحسن علي الحسني النّدْويّ



دار القلم
الدّار الشّاميّة

شخصيات وكتب



شخصيات وكتب

انطباعات عن شخصيات معاصرة كبيرة راحلة
وعن كتب أثيرة مؤثِّرة أسهمت في تكوين شخصية المؤلف
وذوقه الديني والعلمي والأدبي، وتقديمات لكتب قيّمة

تأليف

أبو الحسن علي الحسني النّدْويّ

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

طَبْعَةُ دَارِ القَلَمِ الأُولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

كلمة عن أدب التراجم

وحديث عن الكتب الأثيرة المؤثرة

الحمدُ لله وحده، والصلاةُ والسلامُ علىٰ مَنْ لا نبيَّ بعده.

وبعد: فإنَّ كثيراً من الكُتَّاب والأدباء، فضلاً عن الشادين في اللغات والمتطفلين على الآداب، يعتبرون موضوع التعريف برجل من ذوي الشأن والخطر وترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية، والمواد الكتابية، فيكيلون لمن يترجمون له أو يعرفون به ألقاباً ونعوتاً بسخاء، ويكون أكثرها كلمات مدح وإطراء مشتركة، يمكن أن تقال عن كل عالم وأديب أو عظيم وجليل، أو صالح وتقي، أو حاكم حكومة، أو قائد جيش، لا تفيد تحديدَ الشخصية وتعيينها، ولا تصويرَ القسَمَات والمخايل، ولا التجاعيد التي يمتاز بها وجه عن وجه، وجسم عن جسم، واللغة العربية من أغنى اللغات في كلمات الوصف والمدح، والحلية والزينة، ويكفي الكاتب أن يعتمد في ذلك على كتاب «الألفاظ الكتابية» لعبد الرحمن بن عيسى الهَمَداني (المتوفى سنة ٣٢٠هـ ــ ٩٣٣م)، فيأخذ منه ما يشاء من كلمات الوصف والمدح فيجود بها على صاحبه، أو يرجع إلى كتب التراجم والسير ــ والمكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فيها ــ فيختار منها جملاً وكلمات ويصف بها المترجَم له أو الممدوح ومن يكتب عنه، فيتشابه الرجال ويتماثلون ولا يخرج منها القارىء بمعرفة شخصية دقيقة معينة، ولا يشعر بالحيوية والحرارة، ولا بالرقة

والنعومة، ولا بالمرونة والحركية، ولا بالعـواطف والمشاعـر، ولا بالأحـاسيس والانعكـاسات وردود الفعـل، التي تمتـاز بهـا الأجسـام الحيـة عن التمـاثيـل والنُّصُب، والصـور والـدُّمىٰ، ويمتـاز بهـا الإنسـان عن الحيـوان فضـلاً عن الجمادات والنباتات.

ولكنَّ وصفَ شخصيـة أو تـرجمـةَ إنسـان ليست من السهـولـة والعمـوم بالدرجة التي يتصورها كثير من الناس، فإنَّ ذلك يحتاج إلى عِدَّة مؤهِّلات:

أولاها: المعرفة الشخصية الواعية الناقدة، وإذا كانت عن طريق المعـاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلا فعن طريق الـدراسة الأمينـة وتتبـع الأخبـار، وأن تقـوم بينهمـا صلة من الصـلات التي تحث على تتبع الأخبار والتعرف على الخصائص.

ويليها: الاقتدار على البيان والتعبير وتملك ثروة لغويـة وكلمات مميـزة فاصلة.

ثم يأتي دور الدقة والأمانـة والشعور بـالمسؤولية، والقـدرة على تفصيل اللباس على قامة المترجم له والمعرف به، فلا يكسـوه لباسـاً سابغـاً فضفاضـاً يبدو فيه قزماً حقيراً، وينم هذا اللباس عن أنه لباس لغير هـذا الإنسان ولقـامةٍ أطول من قامته، وللرجال قامات وقيم، وقد تكون الجنـاية على القيمـة أشنـع من الجناية على القامة.

ومهم كذلك أن يتوفّر عند الكتابة في ترجمة حياة أو تعـريف بشخصية، دافع نبيل ورغبـة ملحّة تنبـع من القلب، من تجـاوب مع فكـرة، أو استجابـة لنـداء الضمير، أو دفـاع عن كرامـة مهضـومـة، وحق سليب، أو رد لاعتبـار، أو وفاء بفضل، أو إعجاب بجمال أو كمال، فإنَّ الكتـابة إذا تجـرَّدت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشيب جـامد أو وشي وتـطريز لمجـرد الربـح

المادي والغرض التجاري، ويكون الكاتب أو الشاعر في ذلك كالمطرب المحترف أو النائحة المأجورة.

ويجب أن يعرف أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (Temperature)، فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكانَ كلمةٍ ذات حرارة منخفضة، فضلاً عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة، ولا يسخى بكلمة تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال، أو النبوغ والذكاء، أو الخلق الحسن، والسيرة العالية، أو العلم الغزير والذكاء الألمعي، لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه في طبقته ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات.

والمشكلة حين يكون المترجم جامعاً بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل، كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطلع على مؤلفاته جميعاً، واطَّلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه.

وبهذه الخصيصة امتاز العلامة شمس الدين أحمد بن خَلِّكان (م٦٨١هـ) في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» من بين مؤلفي كتب التراجم والسِّيَر، فإنه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي، أو الفقيه، أو الأديب، أو المفسِّر، أو اللغوي، أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى، وهذا قلَّما تيسَّر لمؤلفي كتب التراجم والسير، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة في فن التراجم، ومن أعطاه الله الدقةَ في الحكم، ورقةَ الشعور، وحسنَ الذوق، والاطلاعَ الواسعَ الدقيق.

لقد أراد الله أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ وكتابة التراجم والسِّيَر، وأن أولد في أسرة كان فيها مؤرخون ومؤلفون، وكان أكثر اشتغالهم

بالتأليف في تراجم الرجال، وطبقات الشعراء والأدباء، وسير العظماء، من المصلحين والعلماء والملوك والأمراء، فكان جدي العلامة السيد فخر الدين الحسني (م١٣٢٦هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هذا ببال كثير من العلماء والمؤلفين في شبه القارة الهندية، وذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تعرف الموسوعات ودوائر المعارف في الهند حتى في اللغات الأجنبية، فوضع كتابه «مهرجهانتاب»[1] في مجلدين ضخمين يحتوي المجلد الأول بخط مؤلفه على ثلاث مائة وألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير، وأكثرها تراجم الطبقات للصوفية والعلماء والشعراء، ووفِّق والدي العلامة السيد عبد الحي الحسني (م١٣٤١هـ) رحمه الله تعالى لوضع أكبر كتاب يعرِّف في شبه القارة الهندية بتراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطي المساحةَ الزمنيةَ من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، والمساحةَ المكانية من ممر خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، ومن قُلَلِ كشمير إلى «مالابار» و«كالي كوت» في الجنوب، والأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم[2]، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خَلِّكان في الدقة والأمانة، وتحرِّي الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة في تخيُّر الأوصاف والنعوت، هذا إلى كتاب آخر اسمه «كل رعنا»[3] في طبقات شعراء الهند في «أردو»، اعتبر من

---

(١) معناه: الشمس المضيئة للعالم.

(٢) صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد «الهند».

(٣) معناه بالعربية: «الوردة الرشيقة»، صدر أربع طبعات للكتاب من المجمع العلمي الكبير «دار المصنفين» في أعظم كره «الهند».

المراجع الرئيسية في تاريخ الشعراء ونقد الشعر، وقُرِّر تدريسه في عِدّة جامعات في القارة الهندية، يضاف إليهما كتابه الثالث: «ياد أيام»[1]، في تاريخ ولاية كُجرات وعلمائها وعظمائها وحكوماتها، وهو النموذج العالي لتاريخ بلاد وولايات، يجب أن يُحتذى ويقلَّد، وقد قرأت هذه الكتب في سنٍ مبكرة، لأنها كتب كانت في متناول اليد، وكانت الدوافع إلى قراءتها قوية وطبعية، فحفظت منها الكثير، وقلَّدت أسلوب المؤلف حين بدأت أشدو في اللغة والأدب، وأمسكت القلم للكتابة والإنشاء.

لذلك كله كان أدب التراجم والسِّيَر من أحب الآداب وأخفها وأسهلها لي، وكانت هوايتي وشغلي الشاغل في سن قلما يتيسَّر فيها الكتابة لكثير من هواة الأدب والإنشاء، فبدأت أؤلف في تراجم الرجال وسيَر النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلاً، وبالأردية أكثر[2]. وتكوَّن من هذه التراجم والسِّيَر مكتبة لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين والمجدِّدين في الإسلام، والدعاة والمربين الذين نفع الله بهم الأمة ونهضوا بها في مختلف الأدوار والأمصار.

وكذلك تقديم كتاب لمؤلف معاصر أو عالم كبير، أو صديق عزيز، ليس عملاً تقليدياً يقوم به الكاتب مجاملةً أو تحقيقاً لرغبة المؤلف أو الناشر أو إرضائه، إنه شهادةٌ وتزكية، ولهما أحكامُهما وآدابُهما ومسؤوليتهما، وقد يتحوَّل من شهادة بالحق وتقويمٍ للكتاب تقويماً علمياً، وبيان مكانته في ما كتب وألف في موضوعه، ومدىٰ مجهود المؤلف في إخراج هذا الكتاب ونجاحه في عمله التأليفي أو التحقيقي، إلى سمسرة تجارية أو قصيدة مدح وإطراء من شاعر من شعراء المديح، فيفقد قيمته العلمية والأدبية ويتجرَّد من

(١) معناه: «ذكرى الأيام الماضية» وصدرت له طبعتان.

(٢) صدرت للمؤلف مجموعة مقالات في أردو عن المعاصرين الكبار الراحلين اسمها «المصابيح القديمة» عدد التراجم فيها ٤٢ وهي في جزئين.

الحياة والروح، ولا بد في التقديم من زيادة معلومات وإلقاء أضواء على موضوع الكتاب ومقاصده، وعلى حياةِ المؤلف ومكانته بين العلماء المعاصرين في عصره ومصره، وعلى تكوينه العقلي ونشوئه العلمي والدوافع التي دفعته إلى التأليف في هذا الموضوع رغم وجود مكتبة واسعة في موضوعه أو مجموعة من الكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع، ولا يكون التقديم مجموعَ كلماتِ تقريظٍ ومدح يمكن أن يُحَلَّى به جِيدُ أي كتاب إذا غُيِّر اسمه واسمُ مؤلفه.

ولا بد من أن تكون بين المقدِّم للكتاب وبين موضوعه صلة علمية أو ذوقية أو دراسة وافية للموضوع وما أُلِّف فيه، وارتباط وثيق كذلك بينه وبين المؤلف، يمكِّنه من الاطلاع على تركيبه العقلي والعلمي والعاطفي، إذا كان الكتاب في موضوع علمي أو أدبي أو فكري أو دعوي. وعلى مدى إخلاصه لموضوعه واختصاصه وتفانيه فيه ورسوخه في العلم والدين وأخذهما من أصحاب الاختصاص فيه المعترَف بفضلهم، إذا كان الكتاب في موضوع ديني كالتفسير والحديث والفقه وما إلى ذلك.

ويجب أن يكون هذا التقديم عن اندفاع وتجاوب وتحقيق لرغبة نشأت في نفس المقدِّم بعد قراءة هذا الكتاب، تحثُّه على كتابة هذا التقديم، وتحبِّبُ إليه المهمة، وتُيَسِّرها له بحيث إذا امتنع عنها اعتبر نفسه مقصِّراً في أداء حق وإبداء مشاعر وانطباعات، وأخفى حاجة في نفس يعقوب ما قضاها، وذلك هو التقديم الطبيعي المنصف الذي له أثره وفائدته.

ووقع بصري أخيراً على مقالات بالعربية كتبتها في إبداء مشاعري وانطباعاتي عن شخصيات عاشرتها وعشت معها، أو عرفتها عن كتب لا عن كتب، وعن خبرة وتجربة، لا عن سماع وحكاية، وقد كتبتها في مناسباتٍ مختلفةٍ غالباً على إثر وفاتها، لبعض كبار العلماء أو المؤلفين الأصدقاء، وقد نُشِرَ أكثرها في مجلة «حضارة الإسلام» التي كان يرأس تحريرها فقيد الإسلام

والعلم الدكتور مصطفى السباعي، أو مجلة «البعث الإسلامي» أو صحيفة «الرائد» الصادرتين من ندوة العلماء.

واطَّلعت كذلك على سلسلة مقالات لي عنوانها «الكتب التي عشت فيها» ذكرت فيها الكتب التي كان لها دور خاصٌ في تكوين ذوقي، وعقليتي وأسلوب تفكيري، ورأيت أنها إذا جُمع بعضها مع بعض كانت مجموعة يتعرف بها القرَّاء على تراجم هؤلآء الفضلاء، والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين، والمربّين الكبار، وقادة أكبر الحركات الإسلامية في عصرهم، ويترحَّمون عليهم ويدعون لهم ويتعلمون منهم الكثير من الإخلاص والأخلاق وعلو الهمة، والاهتمام بالأمة، والجمع بين الفضائل المشتتة.

وكذلك يطلعون على بعض الكتب المهمة المفيدة في موضوعها، فيحملهم ذلك على مطالعتها والإفادة منها، ويصبح الكتاب حديقةً واسعةً زاهرةً ينتقل فيها القارىء من داعيةٍ قائد، إلى عالمٍ مُرَبٍ، ومن مخلص رباني إلى نموذج إنساني عال، ومن مجاهد مناضل إلى مؤلف ومحقق، ومن كتاب في الملحمة الإسلامية وغزوات الصحابة وفتوحهم، إلى كتاب في السيرة النبوية، إلى كتاب في وصف وضع المسلمين الحالي وإثارة الشعور والغيرة فيهم والإشادة بماضي المسلمين، إلى كتاب في سير الربانين من العلماء والمربِّين، إلى كتاب في سيرة شخصية إسلامية مثالية كسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى كتب في الأدب الرفيع والشعر الرقيق والتاريخ الزاخر بالمعلومات والعبر، إلى مقالات ورسائل مثيرة للفكر ومغذية للعلم، وحاملة على الدعوة والكفاح، وكانت نهاية المطاف دراسة القرآن الكريم دراسةَ تأملٍ واعتبارٍ وتطبيق، فلا يمل ولا يسأم، ولا يملأ وعاءه من نوع خاص من علم أو أدب أو كفاح أو عمل إسلامي، أو بحث علمي وتحقيق موضوعي.

وإلى القراء هذه المجموعة التي كتبت في أوقات مختلفة والتي قد تطول بينها الفجوة، ولكن تربطها وحدة، وهي وحدة الشهادة بالحق، وأداء الأمانة، والوفاء لصاحب الفضل والحث على الانتفاع والاتباع، وبالله التوفيق.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

ندوة العلماء

لكهنؤ (الهند)

١٢ من ربيع الآخر ١٤٠٦هـ

٢٥ من ديسمبر ١٩٨٥م

رجالٌ عاصرتهم

الداعية الكبير
الشيـخ محمد إلياس الكاندهلوي
منشىء جمـاعة التبليـغ والدَّعـوة

رجل نحيل نحيف تشف عيناه عن ذكاء مفْرِط وهمَّة عالية، على وجهه مخايل الهمِّ والتفكير، والجهد الشديد، ليس بمفوَّهٍ ولا خطيب، بل يتلعثم في بعض الأحيان، ويضيق صدره، ولا ينطلق لسانه، ولكنه كله روح ونشاط، وحماس ويقين، لا يسأم ولا يمل من العمل، ولا يعتريه الفتور ولا الكسل، رأيته في حالةٍ عجيبة من التألم والتوجع، والقلق الدائم، كأنه على حسك السعدان، يتململ تململ السليم، ويتنفس الصعداء، لما يرى من حوله من الغفلة عن مقصد الحياة، وعن غاية هذا السفَر العظيم، رافقته في السفَر والحضَر، فرأيتُ نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل، فمن أغرب ما رأيت: يقينُه الذي استطعت به أن أفهم يقينَ الصحابة، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة، إيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات وبتجارب حياتنا، فكان كل شيء صحَّ في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها، وكأنه يرى الجنة والنار رأي عين.

ولد في الهند سنة (١٣٠٣هـ)، في أسرةٍ عريقة في الدين والعلم، والدعوة إلى الله، والتمسك بعقيدة التوحيد الخالصة.

وكان لسلف الشيخ محمد إلياس دورٌ في تاريخ الإصلاح الديني، ومساهمة فَعَّالة في حركة الجهاد، والدعوة إلى الدين الخالص، التي قادها

الإمامان: السيد أحمد الشهيد، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد[1]، وتَتَلْمَذَ رجال هذه الأسرة على مسند الهند وإمام الحديث فيها العلاَّمة الشيخ عبد العزيز ابن الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، صاحب «حجة الله البالغة»، ومسند الهند العلامة الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري. حفظ القرآن في صباه، وكان تحفيظ القرآن عرفاً مُتَّبعاً في الأسرة.

جُبِلَ على الحميَّة الدينية، وقرأ على أخيه الشيخ محمد يحيى، ثم درس في مدرسة «مظاهر العلوم سهارن فور» وارتحل في سنة ١٣٢٦هـ إلى ديوبند، وحضر دروس الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند، رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدار العلوم «ديوبند»، في جامع الترمذي، وصحيح البخاري، وأتم دراسة الحديث، وقرأ بقية الكتب الستة على أخيه الشيخ محمد يحيى.

وكان كثيرَ العبادة، مشغولاً بخاصة نفسه، وكان موضع احترام بين المشايخ والعلماء يعتبرون بتقواه وورعه، والإنابة إلى الله، واشتغل مدرساً مدة في مدرسة «مظاهر العلوم» بمدينة «سهارن فور» التي تمتاز بالاعتناء الزائد بعلم الحديث، وتخريج الدعاة إلى الله، والقائمين بالدعوة الدينية الشعبية، والمشتغلين بتدريس الحديث الشريف والإفتاء، وتأسيس المدارس والكتاتيب.

وكان أبوه الشيخ محمد إسماعيل، ثم أخوه الشيخ محمد، قائمين بالدعوة إلى الله، وتعليم أطفال المسلمين، وتثقيف الطالبين الأميين، في مسجد في جنوب «دِهْلي»، وكان أكثر هؤلاء الأطفال وطلاَّب الذين من «ميوات» التي كانت تغلب عليها الأمية، والبعد عن الحضارة، والخضوع للعادات والتقاليد الهندكية، فلم تحظ بعناية الدعاة المسلمين والمعلمين

---

(١) ليراجع للتفصيل كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للكاتب، طبع الكويت وبيروت.

والمربين من قرون عديدة، وكان هذا المسجد وهذه المنطقة التي أقام بها والده وأخوه مدخل هذه الولاية العظيمة التي كانت لا تزال على بداوتها وسذاجتها.

وبعد وفاة الشيخين ـ الوالد والأخ الكبير ـ انتقل الشيخ محمد إلياس إلى هذا المركز الديني والتعليمي، الذي كان يعتمد على روح التطوع والاحتساب، فكان نقطة تحول في حياته، ومنطلقاً لدعوته، التي شَرَّقت وغَرَّبت بعد وفاته، وعُرِفَت بحركة الدعوة وجماعة التبليغ.

وقد كان ذلك الزمن زمن نشاط حركة الردة، والعودة إلى دين الآباء الوثني البرهمي، وكان أكبر مركز نشاط هذه الدعوة المناطق التي يسكنها المسلمون الذين يقال عنهم إنهم أسلموا أيام الحكومات الإسلامية، وإنهم ينتمون إلى أسر وبيوتات هندكية قديمة، وقد آن الأوان ـ في الحكومة الإنجليزية التي تمنح لكل فرد وجماعة حرية الاعتناق لأي ديانة تريدها، والعودة إلى ماضيها السحيق، وتشجيع كل حركة تضعف المسلمين الذين انتزعت منهم الحكم، وورثتهم البلاد، ولا تأمنهم في المستقبل ـ أن يرجعوا إلى دينهم القديم، ونشطت هذه الدعوة في المناطق التي يمعن سكانها المسلمون في الجهالة، والتمسك بالحضارة الهندكية، ومشاركة مواطنيهم في كثير من العقائد والعادات والأعراف، وقد ارتد فعلاً كثيرٌ من القبائل المسلمة المنحدرة من الأصول الهندوكية عن الإسلام، وعادوا إلى دين آبائهم على زعمهم.

أفزع ذلك الشيخ محمد إلياس الذي رزقه الله من الحميَّة الدينية والغيرة على الإسلام، النصيب الأوفر، وطيَّر نومه، وكَدَّرَ صفوَ حياته، وشغل باله، وأفزعه كذلك بقاء هذه المنطقة العريضة الواسعة، ذات المواهب والطاقات، والبساطة والتقشف في الحياة، على جهلها المطْبِق، وأميتها الفاشية، والخضوع للتأثيرات الهندكية، وتناسي العلماء والدعاة والمصلحين،

لهذه الولاية المغمورة المجهولة تقريباً، الوضع الذي يهدد بكل خطر، ويغري كلَّ طامعٍ وطامح من دعاة الإفساد، والردة العقائدية، والوثنية الجاهلية، بالهجوم عليهم، وافتراسهم، فأقبل أولاً على الجولات التي كان هدفها الدعوة والوعظ والإرشاد، ثم على إنشاء الكتاتيب وبثِّها في القرى والأرياف، وعيَّن فيها مدرسين وأساتذة، كان ينفق عليهم من جيبه، ومن إعانة أصدقائه المخلصين، وقد نفع ذلك بعض النفع، ولكنه توصَّل إلى نتيجة أن الخطْبَ أعظم من ذلك وأوسع، وأن ما هم فيه من جهل وفقر، واشتغال بالفلاحة والزرع، يمنعهم من الانتفاع بهذه الكتاتيب والمدارس، وتفريغ أولادهم الذين يعتمدون عليهم في رعي الماشية وحراسة (الزرع) للدراسة فيها وأن شأن المدعو غير شأن الداعي.

وإضافةً إلى تجربته العملية، ونتائجه التي توصَّل إليها في المجهود الذي بذله في «ميوات» لحماية هذه المنطقة من خطر الردة، ووقوعها فريسة في براثن دعاة الإفساد والإلحاد والارتداد، والمجهود الذي بذله في نشر الدين، والحث على تعلمه، والتمسك به، راعَ الشيخ محمد إلياس ما أصاب المسلمين ـ في العالم الإسلامي بصفةٍ عامة، وشبه القارة الهندية بصفة خاصة ـ من الضعف والتدهْور في الإيمان والروح، وجفاف منابع الشعور الديني في هذه المدة، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية والحضارة الغربية، والتعليم المدني، وغفلة الدعاة والاشتغال الزائد بالحياة، حتى صارت مدارس العلوم الشرعية، ومراكز الحياة الإسلامية الدينية كجزر في بحر محيط، وأصبحت تتأثر هي نفسها بمحيطها الثائر على الدين، فاقتنع أخيراً بأن التعليم وحده لا يكفي، والاعتزال لا مسوِّغَ له ولا مجال، والانزواء والانطواء يزيدان في قرب الخطر، فلا بد من الاتصال بطبقات الشعب ـ على اختلافها ـ مباشرة، ولا بد من التقدّم إليها من غير انتظار، لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين، وما في ذلك من خسارة وخطر، وشقاء

وحرمان، وتعرض للمصائب في الدنيا، وأهوال في الآخرة.

واقتنع كذلك بأن الواجب أن يبتدىء بغرس الإيمان في القلوب، وتصحيح العقيدة، وفهم مبادىء الإسلام، والعمل بها، ثم العمل بأركان الإسلام العملية الأربعة ــ الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ــ مع الإقبال على العلم والتعلم، لما يحتاج إليه المسلم من عقائد وعبادات ومسائل، هذا مع الاشتغال بذكر الله الذي يربط القلب بالله تعالى، ويدفع عنه الشيطان ويقويه على مداومة هذا العمل.

وقد لاحظ الشيخ محمد إلياس بفراسته الإيمانية، وإخلاصه للدعوة وتجاربه العملية، أنَّ الدعوة إلى الله، والقيام بحركة إصلاحية، ينتقل سريعاً إلى أمور سلبية، ونقد لاذع، ويتحوّل ذلك سريعاً إلى إثارة الخلافات، وإيجاد المشكلات، وإهانة كثير من المسلمين الذين لا يكونون على مستوى هذا الداعي ــ المتخيَّل عنده ــ فيثير ذلك فتناً كثيرة، وقد تنتقل هذه الدعوة الإيجابية البنَّاءة، السليمة الهادئة، المجرَّدة عن الأغراض الدنيوية، ومطامع الملك والسلطان، إلى معسكرات خلافية، أو منظّمات سياسية، أو مخططات إرهابية، فأضاف إلى أسس هذه الدعوة ــ التي شرحناها في إيجاز ــ حمايتين حكيمتين دقيقتين لهذه الدعوة البريئة، الخالصة المخلصة لله، وهما: إكرام المسلم ــ على علاته ومواضع ضعفه، ومواضع نقده ــ نظراً إلى الركيزة الإيمانية المودعة في قلبه، وإيمانِه بالله ورسوله، وعدم تمرده عليها.

والثاني: عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي، وما هو في عداد الأمور الجانبية أو الهامشية في حياة المسلم، وترك ما لا يعنيه.

وقد كانا حِصْناً حصيناً وسياجاً متيناً لهذه الدعوة التي قد تقوم عمليتها في بيئات موبوءة يستغلها المغرضون لتحقيق أغراضهم، ويتخذونها قنطرةً للوصول إلى كرسي الحكم، وقد كان لهاتين الدعامتين فضلٌ كبير في صيانة

هذه الدعوة في جو مكهرب بالسياسة والانتخابات، وبالخصومات السياسية والحزبية في شبه القارة الهندية، وفي بعض البلاد الإسلامية.

وقد اهتدى أخيراً إلى أنَّ هذه الدعوة لا تقوم على قدميها، ولا تنتشر في العالم، ولا تحقق المطلوب، إلا إذا كان لها رجال متطوعون محتسبون، لا يريدون عليها جزاءاً ولا شكوراً، ولا يعتمدون فيها على الإعانات والاكتتابات، ومساعدة الحكومات، والصندوق والميزانية، وتجنيد الناس، وتسجيل أسمائهم في دفاتر وسجلات، وبثّ الفروع المنظمة التابعة للمركز على غرار الجمعيات والمنظمات، وأن تعيش بعيداً عن المجال السياسي، والشعارات الاستفزازية، واللافتات الجذّابة، وتعتمد على الإخلاص، وابتغاء رضوان الله، والامتثال لأوامر الله، والتقرب بكل ذلك إلى الله، كما كان الشأن في العصر الإسلامي الأول.

وفي ضوء ما شرح الله له صدره، وما اهتدى إليه عن طريق دراسته العميقة للكتاب والسنة والسيرة النبوية، وأخبار الصحابة رضي الله عنهم، وعن طريق تجربته العملية وممارسته للدعوة ــ غير معتمد في ذلك على الخطابة والكتابة، والذكاء المحض ــ فتح الله له الطريق إلى دعوة الناس إلى الخروج في سبيل هذه الدعوة، والاكتتاب بالوقت والنفس، وتقديم جزءٍ من الحياة، والتفرّغ عن الشواغل بدل الاكتتاب بالمال، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحط المناطق الهندية خلقاً وثقافةً وحظاً، وأبعدها عن الدين، وأعظمها جهالةً وضلالةً، وهي منطقة «ميوات» في جنوب دلهي، عاصمة الهند، والذين كان القتل عندهم أهون شيء، وقد يقتلون الإنسان لأمرٍ تافه ودرهم زائف، فدعا الناسَ فيها ــ كتجربة أولية ــ إلى انقطاع موقت عن أشغالهم ــ لا إلى انصراف عن الحياة والرهبنة ــ والخروج عن أوطانهم لمدةٍ محدودةٍ تقصر وتطول بحسب أوضاع المتطوع، وحاجته وهمته، لأنه عرف معرفة لا يرتقي إليها شك، أن هؤلاء القرويين الفلاحين أو التجار المدنيين،

أو الموظفين المشغولين، لا يتعلمون الدين ولو إلى درجة الضرورة، وما لا بد منه للمسلم، ولا يتغيّرون في الأخلاق والسلوك، ولا يتركون عاداتهم الجاهلية إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد، الذي يعيشون فيه، ومع أنه قد توفّرت فيه المدارس وكثرت فيه المناسبات الدينية، إلا أنهم لم ينتفعوا بها في قليل أو كثير، لتأثير المحيط الفاسد الذي أمسك بتلابيبهم، ووقف حاجزاً بينهم وبين الانتفاع بالفرص المتاحة لهم.

وقد أثّرت هذه الدعوة التي أذاب فيها مهجته، ووضع فيها مواهبه، رغم ما كان فيها من مصاعب، فقد قبل دعوته مئات وألوف من هذه المنطقة، وخرجوا شهوراً وقطعوا مسافاتٍ بعيدة مما بين شرق الهند وغربها، وشمالها وجنوبها، ركباناً ومشاة، فتغيَّرت أخلاقهم، وتحسَّنت أحوالهم، واشتعلت فيهم العواطف الدينية، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة، ولا مساعداتٍ مالية، أو نظم إدارية، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في صدر الإسلام، وتذكر بالدعاةِ المخلصين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعَهم وزادَهم، وينفقون على أنفسهم، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين.

هذا مع استغناء تام عن مساعدات أو تيسيرات تقدَّم عادةً من الجهات الرسمية لجماعات نشيطة، ذات نفوذ شعبي، أو دعوات وحركات تتمتع بثقة الجماهير واحترامها.

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في رجب عام ١٣٦٣هـ.

* * *

مولانا حسين أحمد المدني

رجعت إلى ذاكرتي وتفقدت أول معرفتي بالشيخ وصلتي به، فإذا بها ترجع بي إلى زمانٍ، الشبابُ فيه غضٌّ طري، وثوب العمر أبيض نقي، أنا في العقد الثاني من عمري، وعمر الزمان لم يستكمل الثلاثين بعد القرن التاسع عشر من الحساب المسيحي.

أتمَّ طلبة صف من صفوف دار العلوم لندوة العلماء مقدار الدرس المقرر في السنة للقرآن، وأشار عليهم معلمهم يومئذ الأستاذ عبد الحليم الصديقي(١) أن يعقدوا حفلة سرور وشكر بمناسبة هذه النهاية المباركة ويدعوا لتشريفها وإلقاء كلمة نصح وإرشاد عليهم شيخ الحديث الأستاذ المدني. انعقدت الحفلة في قاعة المحاضرات في دار العلوم وشرَّفها الأستاذ ملبياً دعوتهم.

دخلت في القاعة وأتذكر أني جلست بجنب الأستاذ مسعود عالم(٢)، رحمه الله، وكان يومئذ من كبار طلبة دار العلوم ولم نتعارف بعد تعارفاً تفصيلياً، وإنَّ كلاًّ منا يشعر بميل من نَفسه إلى صاحبه ذلك المَيْل الذي أَوْرَق

---

(١) كان عالماً أديباً شاعراً من قادة حركة التحرير تحت راية جمعية العلماء، تولى التدريس في دار العلوم مدة، ثم اعتزل وتعيَّن مدرساً في المدرسة العالية بكلكتة حتى أحيل إلى المعاش، توفي في ٤ فبراير ١٩٦٩.

(٢) وهو الأديب الصحافي الشهير مسعود الندوي رئيس تحرير مجلة «الضياء» العربية ورئيس دار العروبة بباكستان، توفي في ١٦ مارس ١٩٥٤م.

وأثمر بعد، دعاني الأستاذ مسعود للجلوس معه، وقد دخلت متأخراً فاستمعت لخطبة الشيخ وابتدرته أبصاري فإذا هو رجل بهيٌّ الطلعة ناصعُ الجبين عليه سيماء الصالحين، رجل ملء العين وملء السمع، ولا أحفظ من خطبته اليوم إلا انتقاده لزيادة قسطِ المنطق في منهاج الدرس القديم، وتوغّل العلماء في هذا الفن، وبخسهم لنصيب القرآن العظيم والحديث الشريف، وكيف أدال الله بعد ذلك للقرآن والحديث من هذا الفن الطارىء الشاغل من الدراسة والفكر مكاناً لا يستحقه، ونالت هذه الكلمة من أستاذ كبير في معهد كبير كدار العلوم ديوبند منا طلبة دار العلوم الندوية كل إعجاب وتقدير وحفظناها له.

كذلك تنبيهه للطلبة إلى احترام القرآن، واحترام الذين خدموه وأوصلوه إلينا ومعرفة حقهم وعرفان الجميل لهم، وقوله: أتعلمون أنَّ الشيعة لماذا لا يتأتىٰ لهم حفظ القرآن المجيد، هل سمعتم بأحد منهم جمع القرآن وقرأه عن ظهر الغيب؟ كان الجواب المنتظر النفي! قال الشيخ: لماذا؟ لأنَّ الرافضة يسبون الذين جمعوا القرآن ونسخوه في المصاحف، ونشروه في الآفاق أبا بكر وعمر وعثمان، فَحُرِموا من بركات القرآن ولم يُفتح لهم فيه، أو كما قال.

هذه هي المرة الأولى تَشرَّفت فيها بزيارة الشيخ، وما كنت رأيته ـ كما أتذكر ـ من قبل هذا إلّا خلسة أو لفتة، ثم قدَّر الله أن يتخذ بيتنا منزلاً له في لكهنؤ في أسفاره، وهي كثيرة تكاد تكون مستمرة، وأمكن أن أجلس إليه طويلاً وأن أستمع له وأن أتحدث معه كثيراً وأن أبيت معه ليالي ذوات العدد، وأن نجتمع على المائدة. كان كل ذلك ونحن أهل البيت مغتبطون مسرورون.

هذا الذي ذكرت من السعادة بفضل شرف بيتنا ومجد أسرتنا حضرة الدكتور السيد عبد العلي، مدير ندوة العلماء، فإن له خصائص اكتسب بها ودّ الشيخ والتفاته، منها أن أخي من تلاميذ فقيد الإسلام شيخ الهند مولانا

محمـود حسن الديـوبندي، رحمـه الله، والمتخرِّجين من دار العلوم ديـوبنـد، مـع ندويته وشهاداته العالية في العلوم الإنكليزية.

ومنها أن لبيتنا «البيت الحسني» بفضـل السيد الإمـام أحمد بـن عـرفان الشهيد أواصر وأرحاماً دينية تربطه مـع أفراد الحزب الديني في كل ناحيـة من نـواحي الهند، خصـوصاً المنتسبين منهم إلى مـدرسة شيـخ الإسـلام ولي الله الدهلوي الدينية والعلمية، ومنهم علماء ديوبند.

ومنها أن أبي، رحمه الله، مولانا السيد عبد الحي، مـدير نـدوة العلماء سابقاً، كـان من أصدقـاء شيـخ الهند. هـذه الخصائص التـاريخية كسبت لنـا الشيـخ وربحنا فيه ما ربحنا.

زد على ذلـك أن أخي ممن بايـع الشيـخ وليس من بـايعه بـالنادر ولكن زاد على ذلـك إخلاص أخي وبسـاطة معيشتـه وعدم احتشـامه والشيـخ يحب البساطة من المضيف ولا يحبها مـع الضيـف.

إذا عـرفت أن الشيـخ ينزل عنـدنـا ويقيم في بيتنـا أيـامـاً وليـالي، بـل وأسـابيـع أيضاً وأنت تعلم كثـرة أسفاره فـلا تسأل عن حـديث يدور ومجـالس تنعقد واجتماع يحصل، ولا تسأل عن سرور وأنس، ولا تسأل عن بركة وخير، وعن البحر حدث ولا حرج!

تكلم أخي مرة مـع الشيـخ في شأن ذهـابـي إلى ديوبنـد وإقامتي عنـده فقبله الشيـخ بأريحيته المعروفة وحفاوته النادرة.

سافرت إلى ديوبند وأنـا ندوي مـلء الإهاب، شـاب في التاسعـة عشرة أو العشـرين من عمره بعـارضه نبـات قليـل، وفي جلده جسم نحيـل، شـاب نشيط خفيف الروح مـع انحراف في الصحة، له هوى في العربيـة وشغف بها استفـاده من تعليم أستـاذه الشيـخ خليـل بن محمـد اليمـاني وصقلتـه صحبـة الأستـاذ الشيـخ تقي الـدين الهـلالي المـراكشي، وألقى عليـه محيط النـدوة

العربـي طلاوة، يكتب في «الضياء» مجلة الندوة بـل الهند العـربية الـوحيدة، وله إلمام قليل بفن الحديث اكتسبه من دروس الأستاذ حيدر حسن خان شيـخ الحـديث بدار العلوم نـدوة العلماء، لـه ولـوع بكتب شيـخ الإسـلام الحـافظ ابن تيمية، وتلميذه الأكبر العلامة ابن القيم.

تلك كـانت صفة هـذا الشاب الـذي رحـل إلى ديـوبنـد، وتلك كـانت صورته وثقافته.

وصل الطالب إلى ديوبند ودخل منزل الشيخ المعمـور فاستقبله الشيـخ بذلك الوجه الذي يلقى به الوافدين وببشاشته المعروفة.

أقام الطالب الشاب في منزل الشيـخ فوجده مضيفـاً عامـراً بالضيـوف، من كـل أصناف النـاس وطبقاتهم من علمـاء وسياسيين ومتصـوفين ومتـطوعين يذهبون إلى السجـون[1].

وجد بيته زاوية دينية ومـدرسة سيـاسية ونـادياً علميـاً تأتيـه الصحف من جميـع أنحاء الهند ويتهـافت عليها الـطلبة الـذين قد تـأثروا بـالشيـخ وفكرتـه السياسية تهافت الظمـآن على الماء، لأنهم لا يجـدون الصحف في غير هـذا المكان، ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث، وقد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيـخ، وهكذا يتلقون ثقافة سياسية ويخرجون رجالاً أحراراً ثائرين.

وجـدت مائـدةً واسعةً يجلس حـولها غـدواً وعشياً عشـرة وخمسة عشـر وعشـرون رجـلًا، ووجـدت قلبـاً أوسـع من المـائـدة، قلبـاً لا يمـل من كثـرة الضيوف وكثرة الوفود.

هنـالك تعـارفت بالسيـاسي النابـغ مـولانا محمـد سجاد البهـاري نائب رئيس الإمـارة الشرعيـة بمقاطعـة بهـار الـذي رزىء بـه المسلمـون حـديثـاً،

---

(١) الزمن زمن الحكومة الإنجليزية، والأيام أيام حركة التحرير والجلاء.

رحمه الله رحمة المجاهد الذي مات بالميدان، وكان الشيخ عظيم الإكرام والإجلال له، كثير الاستشارة منه.

وهنا تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء، وتعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيته، وقد كانت تنعقد مجالس منبسطة بعد صلاة المغرب في حديقة الشيخ الصغيرة وبين أشجار الزهور أمام حجرته.

وكان يحضر في بعض الأحيان عالم وقور عليه مهابة الشيوخ الكبار وروعة المعلمين السلف، كثير السكوت قليل الكلام، إلّا أنه إذا تكلم تكلم بكلام متين فصل، وكان ممتازاً في هذا المجلس كأنه من أشد الناس حباً لصاحب البيت، وأكثرهم إجلالاً له وإنصاتاً لكلامه، يملأ قلبه من حبه، وأذنه بكلامه ولا يكاد يملأ عينه منه، غاض الطرف من غير مرض، مطرق الرأس من غير حياء، صامتاً من غير عي، سألت بعض الإخوان عنه فأخبرني أنه مولانا إعزاز علي.

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئاً، فقبل وسمح لي بالاشتراك في درس شرح النقاية، كان الشيخ مهتماً بهذا الدرس جد اهتمام واختار عدداً من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص، وأذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درساً في نور الأنوار بعد صلاة العصر.

وكنت أشترك في درسين آخرين مهمين، يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث ورئيس الأساتذة في دار العلوم بنفسه ويواظب عليهما، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي، ودرس الجزء الثاني من صحيح البخاري، وإن أنسَ من الأشياء فلا أنس درس الحديث، فكانت له روعة في قلبي، وكانت تغشى دار الحديث غاشية من الدين، وسحابة من الروحانية، ولا يزال يرنُّ في أذني صوت الشيخ العذْب الرنّان ولحنه العربي الجميل.

وكانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة، ومقدار الدرس المقرر

لم ينته بعد، فكانت دروس متوالية ويكاد يكون النهار كله درساً، درسٌ بعد صلاة الصبح ودرسٌ ودرس، وكذلك درس بعد صلاة العصر وفترة بعد المغرب، ودرسٌ بعد صلاة العشاء يستمر إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، وذلك في الشتاء في البرد الشديد، ولكن الطلبة قلَّما كانوا يملون لفكاهة الشيخ ونوادره ودعابته.

أقمت في منزل الشيخ عشرين يوماً ـ كما أتذكر ـ، ثم استأذنته أن آكل في مطبخ دار العلوم وأقيم في حجرة من حجرات رواق الطلبة، فعزَّ ذلك على الشيخ، كما ظهر على وجهه، ولكنه تنازل إلى رغبتي وأذن لي فتحولت إلى حجرةٍ، وكانت هذه الحجرة قريبة من داره.

درست مدة إقامتي في دار العلوم كتاباً جليلاً وطالعت صحيفة ذات فصول وأبواب: منها الدين، ومنها الأخلاق، ومنها السياسة، صحيفة حية ناطقة صحيفة عنوانها الحسن والحمد، وليس لي إلّا أن أكرر ما كتب كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه على حاضر العالم الإسلامي:

«وقد رأيت في السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله وحق لي والله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسنَ مما قد رأىٰ بصري

واتّفق لي بعد ذلك أن صحبته في السفر فانكشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الإنسانية، وقرأت صفحةً جديدة من صفحات حياته ـ أطالها الله ـ، والإنسان في السفر غيره في الحضر، ولكني رأيته عين ما رأيته في بيته، بل وأجمل، نزاهةَ أخلاق وعِفَّة بطن، وعلوَّ همةٍ، وشهامةَ نفس، وصبراً لا يعرف السآمة والملل، وهمة لا تعرف الفتور والكسل، سهر في طاعة،

ويقظة في شغل ونومة في اعتدال، وأكلة في اقتصاد، وحياة كلها جد واجتهاد وتضحية وجهاد!

واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد والتقسيم، وعكف على الدرس والإفادة، والدعوة إلى الله، وتربية النفوس، لا يتصل بالحكومة ورجالها، حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة وألف برتبة فخرية، فرفض ذلك قائلاً: إنه لا ينسجم مع طريقة أسلافه، وبقي في (ديوبند) يدرس الحديث الشريف، ويتجول في الهند، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين، واتباع الشريعة الغراء، واقتفاء السنن النبوية، وإصلاح الحال، والإكثار من ذكر الله، وقد عَطَّف الله عليه القلوب والنفوس، وغرس حبه في أهل الخير، فأقبلوا عليه زرافاتٍ ووحداناً، وتقاطر عليه الناس، من كل صوب، وانهالت عليه الدعوات وهو يتقبلها بقلب طيب، ويتحمل في سبيلها المشاق، حتى اعتراه مرض القلب وضغط الدم، فانقطع عن الأسفار مدة قليلة ولزم بيته، وهو ملتزم لأوراده، جاد في التربية والإرشاد، وإكرام الضيوف ولقاء الزوَّار، قد تغلب عليه الخشوع والرقة والابتهال إلى الله تعالى، والتهيؤ للقائه، حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاث مائة وألف، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في جمعٍ حاشد لا يُحصى، ودفن بجوار أستاذه الشيخ محمود حسن الديوبندي، والإمام محمد قاسم النانوتوي.

كان الشيخ من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقاً وإخلاصاً، وعلوّ همة وقوة إرادة، وشهامة نفس، وصبراً على المكاره ومسامحة للأعداء، يشفع لهم ويسعى في قضاء حوائجهم، وثباتاً على المبدأ ورحابة ذرع وسعة صدر وجمعاً لأشتات من الفضائل والمتناقضات من الأعمال، له نزاهة لا ترتقي إليه الشبهة.

كان مربوعَ القامة، كبير الهامة، عريضَ الجبهة، واسع العينين، أسمر

اللون، جسيماً، مفتول الذراعين، قويَ البنْية، وقوراً مهيباً في غير عبوس أو فظاظة، طَلْق الوجه دائم البِشْر، وكان يلتزم الملابس الثخينة من النسج الوطني، وكان شديد البغض للإنجليز، كشيخه محمود حسن، شديدَ الحب والبغض في الله، وكان قد راضَ نفسه على النوم والانتباه، ينام إذا شاء وينتبه متى أراد، وكان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان، وكان يؤمُّه مئات من الناس ويصومون معه ويقومون، ويتحول المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاوية عامرة بالذكر والتلاوة، والسهر والعبادة.

* * *

الشيــخ عبد القادر الرائيبوري

في أواخر ذي القعدة ١٣٥٨هـ (ديسمبر ١٩٣٩م) سافرنا ــ ونحن ثـلاثة أصدقاء زملاء ــ في رحلةٍ استطلاعية رائدة إلى المراكز الـدينية والتـربويـة في الهند، لنستفيد من تجاربها ومناهـج عملها، ووصلنا إلى سَهَارنفور، وتوجهنـا منهـا إلى رائيبور، مشينـا خمسـة أميـال على الأقـدام حتى وصلنـا إلى زاويـة الشيـخ عبد القادر الرائيبوري، فلما وصلنا إليه رَحَّب بنا تـرحيباً حـاراً واحتفى بنا، بدون سابق معرفة، حفاوةً بالغة، كأنه كان منَّا على ميعاد.

والشيـخ عبـد القادر الـرائيبوري من كبـار المربين والعلمـاء الربـانيين، المطّلعين البصيرين، من أصحاب الفراسة والذكـاء والانفتاح الـذهني، الذين يجمعـون بين العلم والعمل، والتـربية والتـزكيـة، وهم من أولئـك القـائـدين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمـون، بل قـادتهم في كل زمـان للقيـادة والتوجيـه، والاستفـادة من تجـاربهم وطيب أنفـاسهم، وقـد رأينـا في اطّـلاع الشيـخ وبصره بـأوضاع العصـر وظروفـه وبصيرتـه السياسيـة وفراستـه الإيمانية وجمعه بين العبادة والإنابة، والجـانب العملي المشرق نمـوذجاً طيبـاً للزوايـا السنوسيـة، وذكّرتنـا أخلاقـه الفاضلة، وعـطفه الأبـوي، وتـواضعـه، وحفـاوته وضيـافته، بـأخلاق السلف الصـالحين الذين كـانوا يقتـدون بـأسـوة صاحب الخُلُق العظيم ﷺ.

وقد استرعى انتباهنا ما كان يخيم على هـذه القريـة النائيـة من الهدوء،

كـأنَّ غـاشيـة من السكينـة تغشىٰ أهلهـا، فينسى النـاس الـزائـرون همـومَهم وأحـزانهم، أما في آخـر الليل فـلا تسمـع إلاّ صوتَ الـذكـر وتـلاوة القـرآن، ولا ترى إلاّ راكعاً أو ساجداً.

وقد استفدنا من كلمات الشيخ المنيرة، وتوجيهاته وإرشاداته، وتجاربه وتعليقاته السديدة العادلة على السيـاسة الإسـلامية في شبـه القارة الهنـدية في ظرف ربـع قرن من الزمان، والحركات والمنظمات الإسلامية، استفادةً علميةً كبيرة، جـدّدت قصص علماء السلف والمجاهـدين من جماعـة الإمام السيـد أحمد الشهيد وأصحابه ورفقته التي تثير الإيمان والحنان.

اقتضت حكمـة الله أن يقـضيَ شيخنـا عبـد الـقـادر الـرائيبـوري (المتوفى ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م) أكبرَ شـطر من حياتـه ـ بعد أن بلـغ أشـدَّه ـ في بيئاتٍ متنوعة وطبقات مختلفـة من المسلمين، وبين أحزاب دينيـة تختلف طرائقُها ومناهـجُ تفكيرها. إنه كان تهب فيه نفحـة من نفحات الفكـر المتحرر من الخارج أحياناً، فتحدث اضطراباً وقلقاً في طبعه الذكي الحسّاس الهادئ الساكن، إنه عاش في المراكـز العلمية والـدينية المختلفـة في الهند، وشـاهد تنافُس العلماء في المناصب والجاه، وفتاوىٰ التكفير والتفسيق، وإعجابَ أهل العلم بعلمهم، وكثرة الشقاق والجدال، والقيل والقال، وتوغـل المدرسين في المعقـول، ورغبـة المصلحين عن إصـلاح البـاطن، واستئصـال الـرذائـل والأمراض النفسية.

نشـأت خـلال ذلـك حـركـات مختلفـة تصبـو إلى إصـلاح المسلمين وإنهاضهم، ولكنها هبت وزمجرت كالعاصفة، وهدأت وتلاشت كـالعاصفـة، ورأى في زعمـاء هـذه الحـركـات وقـادتِهـا من ضعف العـاطفـة، وانحـطاط الأخـلاق، وكثرةِ الشقـاق والرغبـة عن إصلاح ذواتهم، مـا كانت لـه مفـاسـد ومضار لا يستهان بها، وشاهد زوال تلك الحركـات ومصايـرها المؤلمـة، كما شاهد نشأتها الرائعة المرجوة.

إنه رأى ـ خلال إقامته في رائيبور ـ حركةَ الخلافة في أوج شوكتها وريعان شبابها، وكانت أقوىٰ وأوسع وأشمل حركةٍ شبه دينية وشبه سياسية، عرفتها الهند المعاصرة، ولم يرها عن قريب فحِسب، بل فطن إلى أسرارها، ودخائل ذاتها، واطّلع على مشروعاتها ومخططاتها السرية، ولكنه شاهد إثر وفاة شيخ الهند محمود حسن ـ رحمه الله ـ أنها بعد قليل سائرة إلى الزوال، وشعر بالتفرقة والانشقاق في صفوفها، والفوضىٰ الفكرية في قادتها وأعضائها، وعدم الإخلاص والتربية في القادة ـ باستثناء بعض الخاصة ـ، وقلة الطاعة والنظام في الأعضاء العاملين والمتطوعين، وعدم الانقياد والثقة في عامة المسلمين، وندرة الأمانة في المسؤولين، وسمع شكاوى الناس حول هذه الأمور، وأحسَّ تذمُّرهم من هذه الأوضاع، حتى رجع من كل ذلك، نتيجة حفظها في مستودع فكره، أنَّ الفوضى في الخارج هي نتيجة الفوضى في الداخل والفراغ فيه، وإلى ذلك أشار محمد إقبال في شعره، حيث قال:

«الصفوف معوجة منشقة، والقلوبُ خاويةٌ حائرة، والسجدةُ خامدة جامدة، لا حرارةَ فيها ولا شوق، ولا عجب! فقد انطفأت شعلة القلب وخمدت جمرة الفؤاد».

إنه عَرَف أنَّ ضعف القيادة هو السرُّ الوحيد وراء كل هذا الاضطراب والفوضى بين الناس، وأن السرَّ في ضعف الحياة وتضعضعها، هو عدم وجود التربية لدىٰ القادة والزعماء، وجمود القلب والعاطفة.

إنَّ القادة قلب الجماهير، ولكنَّ قلوب هؤلاء القادة بنفسها عدلت عن مكانها المقرر المرسوم، وامتلأت بحب الدنيا وحب الجاه، بدلاً من الإيمان واليقين، والحب والعاطفة.

ورأى بعينيه، أنَّ أهل الطرق والمشايخ في بلدة بنجاب، أقاموا أسواقاً

ومتاجرَ تباع فيها الطريقة وتشترى، ويساوَم عليها كما يساوم على السلعة في عالم المادة، أما غذاء القلب والروح، وزاد المعرفة والإيمان، فلم يبق منه إلّا اسمه أو رسمه، وأنَّ النفوس لا تجد الآن في هذه الزوايا إلّا ما يغذّي النفس ويشجعها، ويمنح العقل الشاطر المحتال سنداً وسلماً يرتقي به إلى دنياه.

إنه سمع بلاغة الخطباء الساحرة، وخطبهم الرنانة، واطّلع على أدب الكُتَّاب، ووفرة المعلومات في المؤلفات، وبراعة أصحاب العلم والبيان، وعاد منه بانطباع واحد، وهو أنَّ كل ذلك أصيب بفقر الإخلاص، والضعف في العمل، وزوال الحب والعاطفة.

إنّ هذه الفترة ــ أي منتصف القرن الرابع عشر ــ في الهند كانت فترةَ خطابة دينية ساحرة، وصلت إلى نقطة كمالها، ولكنها لم تستطع أن توقظَ ركب الحياة الوسنان السكران من غفوته أو تعيده إلى سواء السبيل.

أنشد الشاعر الكبير (جكر مراد آبادي) مرةً، إحدى قصائده الرائعة الرائقة أمام الشيخ، فلما وصل إلى هذا البيت استحسنه الشيخ كثيراً، لأنه يمثّل طبقة الوعاظ والخطباء في الهند أجمل تصوير:

«ما أروعَ كلماتِ الخطيب، وما أجملَ تعبيره، ولكنني لا أجد في عينيه بريقَ الحب، ولا أقرأ في وجهه نورَ الإيمان، وسيماء الحب والحنان».

إنَّ دراسته الواسعة العميقة لهذه الأوضاع، وتجاربَه الطويلة في الحياة، انتهت به إلى نتيجةٍ أصبحت فيما بعد يقيناً وعقيدة، وهي أنَّ مرد كل هذا الفساد في مختلف نواحي الحياة، ورأس البلاء وأصل الشقاء، هو عدم الإخلاص، وسوء الأخلاق، وأنَّ أكبر واجب ومهمةٍ في هذا العصر، هو إحياءُ الإخلاص والأخلاق وتجديدهما، وأكبر وسيلة للحصول عليهما هو الحب، والطريق إلى الحب: الذكر والصحبة، وعشرة عباد الله الصالحين والعارفين.

إنَّ هـذا الإخلاص والحب يحيـي مَـواتَ الأعمـال، وينفـخ الـروح في الجهـود الإصلاحيـة والكفاح الإسـلامي، ويملؤه قـوةً وأمـلاً ونشـاطـاً وعـزاً، فترجـع الروح إلى العبادات، ويرجـع النور إلى العلم، وترجـع القوة والبركـة إلى التعليم والتدريس، ويرجـع التأثير إلى الخطابة والـوعظ، ويرجـع القبـول والقـوة إلى الدعـوة والإصلاح، ويـرجـع الأثر المسلوب والجمـال المحجوب إلى الكتـابة والتـأليف، ويعود التـوفيق والنجـاح وحسن العـاقبـة إلى الجهـود السياسية والتنظيمية، ويعود الوئام والانسجام إلى الأواصـر والعلاقـات، وتعود الوحدة الضائعة والائتـلاف المفقود إلى الأحـزاب والجماعـات، ويعود الحب والإيثـار إلى الأفراد والمجتمعـات. وبالجملة: فقـد تجري الميـاه مجاريهـا، وتعطي القوسَ باريها، ويزول كل لـون من الضعـف، وكل نـوع من الفوضى، وذلـك هو معنى الحـديث الشريف: «ألا وإنَّ فـي الجسـد مضغـةً إذا صَلَحت صلـح الجسد كله، وإذا فَسَدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب»، وهكـذا الأخلاق فلا تُتصور حياة متّـزنة نـاجحةٌ بغيـرها، ولا تفلـح محـاولةٌ اجتمـاعية بـدونها، فكـان يرىٰ أنَّ من أهم أغـراض هذه الأذكـار والأشغال التي تـوارثها القوم من صحبة الشيوخ، والرياضات والمجـاهدات، تقـويمَ الأخلاق وإزالـةَ الرذائل، وبعبارةٍ أصـح: تزكيـة النفس، فلا تكفي الأذكـار والأشغال مـطلقاً، وإنما إصلاح الأخلاق واجب يلزم على كل سالك.

إنـه كان ينـظر قبـل كـل شيءٍ إلى حيـاة الصحـابـة، رضي الله عنهم، وجهودهم العظيمة الخالـدة، التي انتشر بهـا الإسلام في نصف المعمـورة في نصف قـرن تقريباً، وهبت ريـح الإيمان في كـل مكان، فقـد درس حيـاتهم وسيـرتهم دراسةَ تعمّقٍ ووعي، وكـانت مجالسـه دائماً تفـوحُ بذكـرهم وعاطِـر أحاديثهم.

وكـان لـه اطـلاع واسـع على حـركـة المجـاهـد الكبيـر السيــد أحـمـد الشهيد (م ١٢٤٦) وتاريـخ رجاله، وكان له بهـا شَغَفٌ عجيب، وكان يقـول:

إنه يبدو لدارس أحوالهم أنهم كانوا نموذجاً للصحابة، عليهم رضوان الله، في هـذا العصـر المتـأخـر، نفس الحب والتفـاني، ونفس الحنين إلى الشهـادة، والرغبة عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، والتضحية والإيثار والفداء والوفاء.

كـان الشيـخ عبـد القـادر واقعيـاً في طبيعتـه يحب العمـل والاجتهـاد، ويراعي التطورات وتغيرات العصر، وكان بعيداً عن الإفـراط والتفريط، وبعـدَ الخيال الناتـج عن الذكاء المفرط، والمجاهدة المضنية، والرجـائية (المغالاة في الرجاء والتفاؤل)، فكان ذهنـه متوازنـاً للغايـة، وعملياً، يبني أفكـاره على دراسة الحقائق ومتابعة الأحـداث ــ مهما تكن مُـرَّةً ومشوِّشـةً للذهن ــ، وكان لا يغفل عن جوانب الضعف والمواضع المظلمة، وكان لـه نظر ثـاقب يراقب به التطورات والمتطلبات العصـرية، ويـرعاهـا حق رعايتهـا، ويوليهـا أهميتها وينبه إليها، ويصرف الاهتمام إليهـا. ورغم أنه نشـأ في بيئةٍ خـاصة، وعـاشَ مدةً من الزمن في جو خاص، مرتبطاً بطبقةٍ دينية خاصة، كان متفتحَ الذهن، واسـعَ الفكر، دقيقَ النظر، ناقداً بصيراً بالأمـور، لا يوجـد له مثيـل في رجال الـطبقة الـدينية المتحفـظة التي كان ينتمي إليهـا، فكان من النـظام المرسـوم المتبـع في رائيبـور قراءة كتـاب من الكتب المفيدة، والاطـلاع على الصحف اليومية والمقالات المهمة، وأخبار الهند والعـالم الإسلامي، لا يـرى في ذلك إخلالاً بما قامت له هذه القريـة الهادئـة والزاويـة المنعزلـة من الاشتغال بـالله والانصراف عن الدنيا وشواغلها.

كان الشيـخ الرائيبوري يؤكد ضـرورةَ تقدم البلدان الإسـلامية وتـطورها اقتصادياً، واستقـرارها سيـاسياً، واعتمـادها ذاتيـاً، ويصرف اهتمـام المثقفين والمسؤولين وأصحـاب النفوذ والسلطة الـذين كـانـوا يشتـركـون في مجـالسـه أو يلتقون به (وخاصة خلال زيارته لباكستان) لذلك، وكان ذلك موضوعه المحبب كلما ضمَّ مجلسُه رجالاً من هذه الـطبقة، وقـد أشار مـرةً إلى إهمال في هـذا الصدد في أحد مجالسه، فقال:

«إنَّ المسلمين انغمسوا في أشغالهم وأصابهم النعاس فلا يفيقون، فقد كان المسلمون نائمين نوماً عميقاً لما كانت أوروبا متيقظة، فأعدَّت كلَّ نوع من المعدّات الحربية، وأهملها المسلمون، وكيف يمكن شنّ حربٍ بدون سلاح، فلو تحوّلت جميع الدول المسلمة إلى دول إسلامية حقيقة، فإنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات حربِ يومٍ واحد».

وكان الاهتمام بالقضايا الإسلامية، وهمّ الإسلام، والتفكير في مسائل المسلمين والقلق لهم، طبيعته الثانية، ومحور تفكيره، ومحرك نظام حياته، ولم يكن له وقت مخصص ولا عهد أو مرحلة حياة خاصة، وإنما سَرَىٰ هذا الهم وامتزج بروحه وفكره، فكان لا يفارقه، ولا ينفصل عنه، وكأنّه اندمج بدقات قلبه، أو سرى في دمه.

إنه كان ينتمي إلى تلك الجماعة الربانية التي لا تصرفها أشغالها والعكوف على الذكر والتسبيح والانقطاع إلى الله، عن تَتَبُّع حال المسلمين والتفكير في مسائلهم، ولا تجعلها في غفلة عن قضايا المسلمين لحظة، بل تزيدها اهتماماً بها، وتحدث في قلوبها حرقةً واضطراباً زائداً لها، ويتحول هذا الهم أحياناً إلى دموع، ترسلها عيون رجالها فتتضرع إلى الله، وتبتهل لنصرة المسلمين ولعزتهم وسعادتهم، وأحياناً تغلبهم الشكوى على حال المسلمين، والاعتراف بتقصيرهم وتهاونهم في الإسلام، فيتوجّهون إلى تذكيرهم وتنبيههم وإنذارهم، فيرسلون الدموع في خلواتهم ومناجاتهم مع الله، وفي محافلهم ومجالسهم يحرك هذا الهمُّ ألسنَتَهم للتنبيه والإنذار والتوصية، فلا يفارقهم هذا الهم.

وقد بلغ هذا الهم ذروته في عام (١٩٤٧م) عندما هبت عاصفة هوجاء في شبه القارة الهندية، وبدأ المسلمون يبحثون عن ملجأ لهم نازحين عن هذا الوطن الذي رواه أسلافهم بدمائهم، فكان كالسليم الذي لا يهدأ له بال، أو كأنه يتقلب على أحرّ من جمر.

شاهد الشيخ الرائيبوري مراحل نشوء القاديانية عن كثب، فقد كانت له صلات معرفة قريبة بمنشىء هذا المذهب، المرزا غلام أحمد، والحكيم نور الدين خليفته، وقادة هذا المذهب الآخرين، فكان الشيخ خبيراً بأهداف هذه الحركة ومنطلقها، والظروف التي نشأت فيها واتجاهاتها، وعلى أساس هذه المعرفة الشخصية بزعمائها، وأهدافها وبواعثها، كان الشيخ الرائيبوري واثقاً بأنَّ هذه الحركة وسيلة للتخريب وهدمِ الإسلام، وقد زاد كراهيتَه ونفورَه من هذه الحركة، حبُّ الرسول ﷺ الذي كان يغمر قلبه، وما كان يحمل من عواطف الهيام بذات الرسول ﷺ، والإيمان العميق بأنه خاتم النبيين وإمام الأنبياء والمرسلين، فكان يعتبر كل من يدّعي النبوة، نداً للنبوة المحمدية ومعانداً لها، فكان يغار على النبوة المحمدية وذات الرسول ﷺ، ويحنُّ إليه كما يحن ويغار مُتَيَّمٌ إلى حبيبه، وخادم وفيٌّ إلى سيده.

كانت هذه العاطفة والإيمان والصلة بذات الرسول ﷺ، هي التي دفعت الشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء، والسيد أنور شاه الكشميري إلى مكافحة هذه الحركة، والجهاد ضدها، فكانا يعتبران كل عمل لمقاومتها عبادةً وجهاداً، كذلك كان الشيخ الرائيبوري مندفعاً قلبياً ووجدانياً إلى محاربة هذه الحركة، ومؤمناً بضلالها، وهو الذي نَفَخ الروحَ في القادة الذين قاموا بحركة مقاومة القاديانية[1]، كحركة «أحرار إسلام» و «منظمة تحفظ ختم نبوت» والعلماء الآخرين، وكان ذلك حديث مجالسه، وخدمة دينية جليلة في ذلك العصر،وكان الإسهام في حركة المقاومة للقاديانية أو الحديث عنه، وسيلة للتقرب إليه والتحبّب لديه، وهو الذي أمر كاتب هذه السطور بتأليف كتاب بالعربية في التعريف بالقاديانية والرد عليها، فكان تأليف كتابي «القادياني والقاديانية» ونُقل إلى عِدّة لغات.

---

(١) في مقدمتهم وعلى رأسهم الخطيب المصقع السيد عطاء الله شاه البخاري.

هذه جوانب من فهم الإسلام الفهم الصحيح الشامل، والاهتمام بما يؤثر في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية، والمرونة الخلقية والفكرية، الجوانب التي لا تُتوقع غالباً من مُرَبٍ روحانيٍّ يعيش في عزلة عن الخِضَم السياسي والمجتمع الهائج المتطور، عاكفاً على العبادة والدعاء للمسلمين، وتربية القاصدين لإصلاح أخلاقهم وتزكية نفوسهم.

أما مكارم الأخلاق، ودقائق السلوك الإسلامي الإنساني، والزهد في الدنيا، والاستهانة بالزخارف والمظاهر، وعدم الاكتراث بثناء الناس ونقدهم، والاستغناء عن الناس ـ بما فيهم من ولاة الأمور وحكام البلاد وكبار الأثرياء والوجهاء ـ، والنظر إلى أكبر مقدار من المال كالحصاةِ والرمل، والتوكل على الله، وتكفّل الله بجميع حاجاته بطرق تحيِّر العقول، والإنابة إلى الله في جميع الأحوال والاطّراح على عَتَبةِ عبوديته، فهو حديث يطول، وقصص ومشاهدات تذكّر بحكايات السلف التي دونها كتاب «حِلية الأولياء» لأبي نعيم، و «صفة الصفوة» لابن الجوزي، و «مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية، وقد جاءت أمثلتها ونماذجها في كتابنا «تذكرة الشيخ عبد القادر الرائيبوري» في شيء من التفصيل[1].

لم أكن أدرك المدارجَ الروحيةَ الباطنية في ذلك الوقت ولا أدركها الآن، إلّا أنَّ مزايا الشيخ الثلاث أثرت فيّ:

إحداها: تواضعه وما يسميه علماء النفس والكتّاب العصريون «بإنكار الذات» الذي لم أرَ له نظيراً ولا أعلم له مثيلاً ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

والثانية: سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشاهدها في كبار العاملين في مجالات الحياة، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين

---

(١) صدرت للكتاب عدة طبعات في الهند وباكستان، والكتاب في أردو ويقع في ٣٥٢ صفحة.

جربوا الحياة حلوها ومرها. وقد ساعدتني طبيعتي الخاصة، ودراستي المتنوعة وبيئتي التي نشأت فيها ــ فقد تربيت تربيةً عقلية فكريةً عاطفية ــ على تقدير هذه المزايا التي خصَّ الله الشيخ بها، ولم يكن لمثلي أن يتجاوب مع هذه الخصائص، ويجد مكانه في تلاميذه ومقدِّري فضله، لولا هذه السعة في التفكير والرحابة في الصدر، والاتصال بالعصر الذي يعيش فيه علماً وتفكيراً وشعوراً وتألماً، وهو الذي حثّني على إتمام سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وكان يحرّضني دائماً على ذلك، وعلى تأليف الكتب المفيدة، والاشتغال بالقضايا الإسلامية، ونشر الثقافة والقيام بالدعوة.

والميزة الثالثة: العطف علي، العطف الذي لا أستطيع أن أشبهه إلّا بعطف الأمّ وحنانها.

* * *

شيـخ الحديث مولانا محمد زكريا الكـانـدهلـوي

وُلِدَ في بيتٍ عريق في العلم والدين، امتاز رجاله وأسلافه بعلو الهمّـة، وشدَّةِ المجاهدة، والتمسُّك بالدين والصلابة فيه، والحرص على حفظ القرآن وقـراءته وطلب العلوم الـدينية، أشهـرهم في الأوّلين الشيـخ العـلامـة المفتي إلّـهي بـخش الـكـانـدهـلوي (١١٦٢هـ ـ ١٢٤٥هـ)، تـلمـيـذ الـشيـخ عبـد العزيـز بن ولي الله الدهلوي، وخليفـة المجـاهـد الشهيـر السيـد أحمـد الشهيد البريلوي، وأشهرهم في الآخرين الداعي إلى الله المشهور في الآفـاق عمـه الشيـخ محمد إليـاس بن محمد إسمـاعيل الكـاندهلوي صـاحب دعـوة «التبليـغ» المشهـورة (١٣٦٣هـ)، ودرس وجاهـد في سبيل الله غيـر واحد من أفراد هذه الأسرة، وجده الشيـخ محمد إسماعيل الكاندهلوي (١٣١٥هـ) من الذين اتفقت الألسنة على إخلاصه وصلاحه وزهده.

وُلد لإحدى عشرة ليلة خلت من رمضان في (كاندهلة) من أعمال مظفر نكـر، سنة (١٣١٥هـ)، ورضـع بلبـان العلم والـدين، ونشـأ في تصـوّنٍ تـام وتربية دقيقة حكيمة، ونقل إلى كنكوه، وهو قريبُ العهد بالفطام، فدبَّ ودرج بين الصالحين والعلماء الراسخين، وأدرك الشيـخ الكبير العلامة (رشيد أحمد الكنكوهي) وسعد بحنانه وعطفه الأبوي، لما بينه وبين والده من اختصـاص، وعقلَ أولَ ما عقل أيامه وشفقته، وقد بلـغ الثامنة من عمره حين انتقل الشيـخ إلى رحمة الله تعالى، وبقي في كنكـوه إلى أنْ بلـغ الثامنـة عشرة من عمـره، فنشأ في بيئةٍ هي أفضل البيئات في ذلك الزمان وأكثرها محافـظةً على الآداب

والسنن، وأبعدها عن الفساد الذي بدأ ينتشر في البلاد، ووالده يعتني بتربيته أشد الاعتناء، ويحاسبه على النقير والقطمير، ويأخذه بعلو الهمة في كل شيء، والإقبال على العلم وصحبة الصالحين إقبالاً كلياً، والابتعاد عن الاختلاط بالناس، وكان والده أشد اعتناءاً بالتربية منه بالتعليم، فقرأ مبادىء اللغة الأردية والفارسية على عمه الشيخ محمد إلياس وحفظ القرآن.

ثم انتقل مع والده سنة (١٣٢٨هـ) إلى «سهارنبور»، المركز العلمي الكبير، وأقبلَ على العلم إقبالاً بالقلب والقالب، واشتغل به بهمّةٍ عالية وقلبٍ متفرّغ، وبدأ درس الحديث على والده وقد تهيأ تهيؤاً كبيراً، ودعا في آخر الدرس دعاءاً طويلاً، ومن ذلك اليوم أصبح الحديث أكبرَ همه، وغايةَ رغبته، وشعاراً يعرف به وغلب على اسمه، فاشتهر في آخر الأمر بشيخ الحديث، وقرأ الكتب الستة على والده (غير سنن ابن ماجه) سنة (١٣٣٣هـ)، ثم قرأ صحيح البخاري وسنن الترمذي على العالِم الجليل والمربي الكبير الشيخ (خليل أحمد السهارنبوري)[١] ــ والذي قدر الله أن يكون أكبر خلفائه وناشر علومه ومفيض بركته ــ سنة (١٣٣٤هـ)، وكان ذلك بطلب واقتراح من الشيخ لما توسَّم فيه من النجابة وصدق الطلب وعلوّ الهمة، ولما بينه وبين والده من الحب العميق والرباط الوثيق، وقضىٰ هذه المدة في عكوفٍ كامل على الدراسة، وفي إجهاد النفس وإرهاقها في المطالعة، والاطلاع على المصادر والاستعداد للدرس.

وكان مما أكرمه الله به أنَّ شيخه أبدى رغبته وحرصه الشديد على وضع شرح لسنن أبي داود، وطلب منه أن يساعده في ذلك وأن يكون له فيه عضده الأيمن وقلمه الكاتب، وكان ذلك مبدأ سعادته وإقباله، ووسيلةَ

(١) اقرأ ترجمته في الجزء الثامن من «نزهة الخواطر»، للعلامة السيد عبد الحي الحسني طبع دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الهند.

وصوله إلى الكمال واختصاصٍ لا مزيد عليه بالشيخ، فكان الشيخ خليل أحمد يرشده إلى المظان والمصادر العلمية التي يلتقط منها المواد، فيجمعها الشيخ محمد زكريا، ويعرضها على شيخه فيأخذ منها ما يشاء، ويترك ما يشاء، ثم يملي عليه الشرح، فيكتبه، وهكذا تكوّن كتاب «بذل المجهود في شرح سنن أبي داود» في خمسة أجزاء كبار، وفتح ذلك قريحته في التأليف والشرح، ووسّع نظره في فن الحديث، ثم اهتم بطبعه في المطابع الهندية، والعناية بتصحيحه وإخراجه، بإخلاص كامل ومجاهدة شديدة، فنال بذلك رضا شيخه، وحاز ثقته، حتى انتهى ذلك إلى ما انتهى إليه من خلافة ونيابة، وإقبال القلوب والنفوس إليه، وما وُفّق له من بعد من جلائل الأعمال وفضائل الأخلاق.

وعُيِّن مدرساً في (مظاهر العلوم)، التي كان يدرس فيها شيخه ـ ووالده من قبل ـ، والتي تعلّم فيها، وكان ذلك غرة محرم سنة (١٣٣٥هـ) وهو أصغر الأساتذة سناً وأشبُّهم عمراً، وكان راتبه زهيداً لا يُتَصور في هذا الزمان، وأسند إليه تدريس كتب لا تسند عادة إلى أمثاله في العمر، وفي أول التدريس، ولم يزل يتدرج فيها حتى أسند إليه تدريس بعض أجزاء من صحيح البخاري في سنة (١٣٤١هـ)، وأثبت المدرس الشاب جدارته وقدرته على التدريس حتى أصبح رئيسَ أساتذة هذه المدرسة، وانتهت إليه رئاسة تدريس الحديث أخيراً، وكان أكثر اشتغاله بتدريس سنن أبي داود، ويدرس النصف الثاني من صحيح البخاري في آخر السنة، وبعد وفاة الشيخ عبد اللطيف مدير المدرسة، آلَ إليه تدريس الجامع الصحيح بكامله، فواظب عليه مدة طويلة مع ضعف بصره وأمراضه الكثيرة، ولم يعتذر عنه إلّا في أول السنة الدراسية في سنة (١٣٨٨هـ).

ولم يأخذ الشيخ محمد زكريا ما عُيِّن له من المرتب، ولمّا اضطر بأمر شيخه إلى أن يأخذها مجموعة لينفقها في الحجة الثانية سنة (١٣٤٤هـ)

التي رافق فيها أستاذه ليكمل تأليف «بذل المجهود»، أخذها الشيخ محمد زكريا امتثالاً لأمر شيخه وتطييباً لخاطره، ثم ردها إلى المدرسة بجملتها، وهكذا كان اشتغاله بالتدريس طول هذه المدة تطوعاً وتبرعاً، لا يأخذ في ذلك أجراً ولا يبغي جزاءاً، وعُرِضت عليه مرتين وظيفتان للتدريس براتب كبير يزيد على راتبه «الرمزي» في مظاهر العلوم أضعافاً مضاعفة، وكان امتحاناً شديداً لإخلاصه وعلوّ همته، فقد كانت هذه الوظائف مما يتنافس فيها المتنافسون ويتهالك عليها الطالبون، فاعتذر عنها في صرامة وعزم، وفي ثقة وإيمان، فكافأه الله على ذلك مكافأة لم يكن يتصورها، وعوّضه من ذلك بما هو خير وأبقى.

وكانت سفرة (١٣٤٤هـ) للحج التي رافق فيها شيخه هي سفرة شيخه الأخيرة ومبدأ سفره للآخرة، فأكمل تأليف «بذل المجهود»، وهنالك حصلت له الإجازة العامة والخلافة المطلقة عن الشيخ خليل أحمد، وفي هذه الرحلة وأثناء إقامته في مدينة الرسول، عليه أفضل الصلاة والتسليم، بدأ في تأليف كتاب «أوجز المسالك» في شرح الموطأ لإمام دار الهجرة الإمام مالك، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، بدأ في تأليفه في مسجد الرسول ﷺ، وبارك الله في الكتابة والتأليف، فأكمل في بضعة شهور ما لم يكمله في سنين عديدة في الهند، ووصل في الشرح إلى أبواب الصلاة، وظل مشتغلاً به بعد عودته إلى الهند، تتخلله فترات طويلة حتى أكمله في ستة أجزاء كبار.

وعاد إلى الهند مكرّماً محبباً مثقلاً بالأعباء، قد شخصت إليه الأبصار، وارتفعت إليه الأصابع، واتّجهت إليه القلوب، فأقبل على التدريس والتأليف بجميع همته.

وتوفي شيخه في الحجاز سنة (١٤٣٦هـ)، فآلت إليه المشيخة ورئاسة تدريس الحديث، والإشراف على تربية أصحابه، والاتصال بمراكز العلم

المنتشرة حوله، وبالجماعات الدينية التي تلوذ به وتلتقي عليه وتصدر عن رأيه.

وكان بيته ملتقى العلماء والطلبة والواردين والصادرين، الذين قد يحملون آراء متناقضة، وأذواقاً مختلفة، وينتمون إلى مدارس متباينة، ورأيه الحصيف، وما رزقه الله من السداد والاقتصاد يؤلّف بين القلوب المتنافرة والآراء المتباينة، ومائدته الواسعة تجمع كل صنف من الناس، وكل طبقةٍ من الرجال، وكل فرد من الجماعات المتنافسة، وهو محافظ على أوقاته وأشغاله، دؤوب في المطالعة والتأليف، بشوش منبسط مع الوافدين، يؤتي كلَّ ذي حق حقه، ويعرف لكل صاحب فضلٍ فضلَه، ويُنزل الناس منازلَهم، ولا يشغله تلقّي الضيوف وحسن وفادتهم عن المطالعة، ولا تشغله المطالعة وما فطر عليه من حب العلم والانزواء والخلوة، عن البشاشة، وبذل الود، وطيب النفس، ولا يشغله كل ذلك عن الاشتغال بربه، والانفراد بعبادته ومناجاته، وعن تربية المريدين، وعن حضور حفلات التبليغ، وعن وضع كتب ورسائل في الإصلاح والدعوة إلى الله، في أسلوب سهل يتنزل فيه إلى مستوى العامة، وقد تُلقيت هذه الرسائل بقَبول عام، وانتفع بها خلق لا يحصون، وظهرت لها طبعات لم تتيسر إلّا لكتبٍ دينية معدودة في عصرنا، هذا مع جذبةٍ قاهرةٍ إلى رفض جميع الأشغال والمسؤوليات، والفرارِ من الناس والتبتّل الكلي، والتفرغ للعبادة والمناجاة والاشتغال مع الله، ولا يقدر على قهر هذا الدافع وجمحه بكل ما يشتّت القلب ويكدِّر صفاء النفس، إلّا كبار الأقوياء الذين أراد الله أن ينفع بنفوسهم وأنفاسهم، وعلومهم ومؤلفاتهم.

وأوقاته مشغولةٌ بأمور نافعة موزعة بينها، يحافظ عليها بكل دقة وشدة، فإذا صلّى الفجر جلس قليلاً، مشغولاً بحزبه ووِرده، ثم يخرج إلى بيته ويجلس مع الناس، ويتناول الشاي من غير فطور وأكل، ويكثر عدد الناس

في هذا الوقت، ثم يطلع إلى غرفة مطالعته فيشتغل بالمطالعةِ والتأليف، ولا يزوره في هذا الوقت إلّا من يطلبه أو من يكون مستعجلاً من الضيوف، وغرفته هذه تذكّر بالسلف المنقطعين إلى العلم والتأليف، فهي آيةٌ في البساطة والتقشف، ومجرّدةٌ عن كل زينة وتكلف، ويثقل عليه أن يزعجه أحدٌ بزيارته ويصرفه عن شغله، فإذا كان وقت الغداء نزل وجلس مع الضيوف الذين يكثر عددهم عادةً، وهم من طبقات شتى، فيؤنسهم ويلاطفهم ويبالغ في إكرامهم، والتفقد لما يسرهم ويلذّ لهم، فيكثر من ذلك، ثم يقيل، فإذا صلّى الظهر اشتغل بإملاء الرسائل والرد عليها[1] قليلاً، ثم خرج إلى الدرس، وكان يشتغل به ساعتين كاملتين قبل العصر، فإذا صلّى العصر جلس للناس، وقدم لهم الشاي وهم في عدد كبير، يتوهم الزائر أنه في حفلة صغيرة، وأنه شيء جديد، وهو له عادة، فإذا صلّى المغرب اشتغل طويلاً بالتطوع والأوراد، ولا يتناول طعامَ العشاء عادةً إلّا إكراماً لضيف كبير.

وهو مربوعُ القامة، جسيمٌ وسيم، أبيضُ اللون، مُشْرَبٌ بالحمرة، كأنما فُقِىء في وجنتيه حبُّ الرمان، كثير النشاط، لا يعرف الكسل، خفيف الروح، بشوش ودود، كثير الدعابة مع الذين يأنسهم أو يحب أن يؤنسهم، سريعُ الدمعة، جريح المقلة، كلما ذُكِر شيء من أخبار الرسول ﷺ أو الصحابة والأولياء، أو أُنشد بيت رقيق مرقّق فاضت عيناه، وتملكه البكاء، وهو يغالبه ويخفيه فتنم عليه الدموع، وليس الحديث له صناعةً وعلماً فحسب، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه.

وتوفي عمه الكبير الذي كان صِنْوَ أبيه وأستاذه وصهره، ومن أحبّ الناس إليه، وأعظمهم حنواً عليه، الشيخ محمد إلياس سنة (١٣٦٣هـ)، فكان المصاب عظيماً، والواقع كبيراً، فتحمله في صبر العظماء، ثم توفي

---

(١) علمت في بعض زياراتي أن عدد الرسائل التي تأتيه من أنحاء مختلفة يتراوح عددها بين ٤٠ و ٥٠ يومياً.

ابن عمه الذي كان عضده الأيمن وأحبَّ إليه من أولاده، والذي كـانت حياتـه كلهـا غنـاءً للمسلمين، وذخــراً للدين، وكـان فضله كبيــراً على المسلمين، الشيـخ محمد يوسف بن إلياس سنة (١٣٨٤هـ)، فطمَّ الأمر وعـظُمَ الخطب، وكانت الخسارة فـادحة، وتتـابعت المحن والحوادث، ومن قبـل توفي الشيـخ حسين أحمـد المدني سنـة (١٣٧٧هـ)، والشيـخ عبد القـادر الرائيبـوري سنة (١٣٨٢هـ)، وكان شديدَ الحب لهما، فتحمل كل هذا في إيمان وصبـر، في إكمال المبتدئين وتربية المريدين، وتوجيه القاصدين، والإشـراف على مراكـز العلم والـدين، هذا مـع إجهـاد شديـد للنفس في النـوافـل والعبـادات، وفي الجمـع بين الأشتات والمتناقضـات، خصوصـاً في رمضان فـإنه كـان ملازمـاً لختمة القرآن في كل يوم، وطول السهر في الليـل والاجتزاء بـالأكل اليسيـر، ويصوم عنده بضـع مئات من الناس، ويعتكفون أكثر الشهر، وكلهم ضيوفـه: فأثّر كـل ذلك في صحتـه، وفي بصره، وهـو صابـرٌ محتسب، دائب مستمر، لا يتوانىٰ ولا يكلّ، ولا يسأمُ ولا يمل، وسـافر للحـج للمـرة الثالثـة بطلب من ابن عمه الحبيب الشيـخ محمد يوسف وإلحاح منه، سنة (١٣٨٣هـ)، وللمرة الـرابعة مـع الشيـخ إنعـام الحسن أمير جمـاعـة التبليـغ وختنـه العـزيـز سنـة (١٣٨٦هـ)، وكان إقبال الناس عليه عـظيماً في كلتـا الرحلتين، خصـوصاً في باكستان، فكان الناس يفدون لزيارته من أنحـاء بعيدة وينتهـزون فرصـة مروره بهذه البلاد فينتفعون بصحبته ودعائه.

وسافر علىٰ جناح الشوق والحنين للمرة الخامسة إلى الحجاز في صفـر (١٣٨٩هـ)، وكأنه مدفوع إلى ذلـك لا يملك صبراً ولا قـراراً، وقد نـذر صومَ شهرين متتابعين شكراً على هذه النعمة، وملازمة الوضوء إلّا للاضطرار.

وقد أسعد الله كاتب هذه السـطور بمرافقتـه في هذه الـرحلة، فرأى من علوّ همته وقوة إرادته، وشدة أدبـه مـع الرسـول ﷺ، وشدة حبـه لـه، وشوقـه إليه، ومن علو استعداده ومداركه، وما أكرمه الله به في هـذه المدة من القـرب

والاختصاص، ما جدَّد ذكرى الأقدمين، وصدَّق ما جاء في كتب أخبار السلف الصالحين، فكان يجلس تجاه أقدام أفضل الرسل ساعات متواليات، مشغولاً مراقباً، رغم ضعفه وكبر سنه وعلله الكثيرة، لا يفتر ولا يشبع من ذلك، وكان يتمنى البقاء في هذه البقعة المباركة، وفي هذا الجوار الكريم حتى يفارق الدنيا ويلحق بربه، ويعز عليه حديث العودة، إلّا أنَّ دعوات المسلمين، وما يعانونه في الهند من مشاكل ومسائل تتطلَّب بقاءه بجوارهم، وما تعانيه المدارس الدينية من أزمات ومعضلات، وما تحتاج إليه في الهند جماعة التبليغ من إرشاد وتوجيه، وإشراف ومراقبة، اضطرته إلى العودة، فعاد بسلامة الله في شهر ذي القعدة سنة (١٣٨٩هـ)، ومرَّ في طريقه من باكستان فتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور، والتفوا حوله في كل مكان كان ينزل فيه، وظهر من إقبال الناس عليه وحبهم له ما لم يسمع من زمن بعيد.

ثم عاد إلى المدينة المنورة وجاور في جوار المسجد النبوي، عاكفاً على العبادة والذكر والإملاء والإرشاد، والتربية الروحية، وتزكية النفوس، والحث والتشجيع على الدعوة إلى الدين ونشره، والقيام بأعباء التعليم الديني، وفتح المدارس والتعاون على البر والتقوى، لا شأن له بأمور الدنيا إلّا ما ينفعه في الآخرة، متمنياً داعياً من الله أن يلقىٰ الحِمام في جوار الرسول، عليه الصلاة والسلام، ويجد مكاناً في البقيع بجوار الصحابة وأهل البيت الكرام.

وقد حقق الله أمنيته وأتاه الأجل المحتوم في آخر شهر رجب عام (١٤٠٢هـ)، وشُيِّعت جنازته في جمعٍ عظيم قلّما رآه الناس لعالِم أو كبير في هذا البلد الكريم، ودُفن بجوار شيخه المحدث الكبير (خليل أحمد السهارنبوري) في حظيرة أهل البيت الكرام، غفر له الله ورفع درجاته.

* * *

الأمير الفاضل
الشيخ حبيب الرحمن الشرواني

في سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) شهدتُ حفلة لندوة العلماء بـ (لكنؤ)، كنت يومئذ ابن عشر سنوات، دخلت في قاعة دار العلوم وهي مكتظة على سعتها بالحاضرين، واسترعىٰ بصري رجلٌ على منصة القاعة لم أرَ مثله جمالاً وبهاءاً، ووقاراً وحسن شارة، ونظافة ملبس وأناقته، يجمع بين مهابة العلماء، وسراوة الأمراء، وظرافة الأدباء، كأنه من بقايا الملوك الفضلاء في إحدىٰ الدول الإسلامية، وما لبثت أن علمت أنه رئيس الحفلة ـ النواب صدر يار جنك مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني ـ من أمراء مديرية (عليكره)، ووزير الأمور الدينية في حكومة حيدر آباد، رأيت رجلاً تزدان به الرئاسة وتتجمّل، أكثر مما يتجمل بها.

كانت هذه زيارتي الخاطفة وازددت معرفةً بالرجل، وكان يزور دار العلوم مرةً أو مرتين أو أكثر في العام، فقد كان عضوها العامل وأحد مؤسسيها، وكان الطلبة يعقدون له حفلةَ تكريم في كل زيارة، وكان يخطب فيها، وكان خطيباً بارعاً يستحق أن يُتَّخذ مثالاً في الخطابة، فقد استوفىٰ أكثر شروط الخطابة وجمع أكثر ما وَصف به علماءُ البلاغة الخطباء، فارعَ القامة، رائعَ الشخصية، واضح اللهجة، معروف النسب، رابط الجأش، له شعور بالشخصية في غير عُجب وكبرياء، وثقة بالنفس في غير مبالغة وغرور، فكان إذا خطب ملك على الناس إعجابهم، ونفذ في عقولهم وقلوبهم.

وتقدمت بي السنّ والدراسة، فقرأتُ كتابَه: «علماء السلف»، فأثّر في عقليتي تأثيراً كبيراً، وهو من الكتب التي أدين لها بالفضل، فقد بعث في نفسي الحرص على العلم والاجتهاد في طلبه، ويشاركني في هذا الشعور والاعتراف عدد كبير من الطلبة وتلاميذ المدارس العربية، وإليه يرجع الفضل في علوّ همتهم في طلب العلم وتحمُّل المشاق، والتعب في سبيله، وسهر الليالي، والتوسع في العلوم، والتفنن في فضائلها.

وقرأت له كذلك «سيرة الصديق»، وهو من الكتب التي أملاها عليه وجدانه، وفاض بها قلبه، قبل أن يفيضَ بها قلمه، وتلك صفة الكتاب الذي يكتب له التوفيق ويحكم له بالتأثير، وكان دائماً إذا ذكر سيدنا أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، في خطبه أو مجالسه لم يملك نفسه، واندفع يحكي حكايات زهده وتقشفه في خلافته، وأمانته في بيتِ مال المسلمين، وكيف ردّ الدراهم التي وفّرتها زوجته للحلوىٰ إلى بيت المال، وأمر باقتطاع هذا المقدار من راتبه، لأنه يَفْضُل عن حاجته، وذلك كله بأسلوب مؤثر، وصوت شجي يغالب البكاء، فتارةً يغلبه ويخفيه، وطوراً يملك على نفسه فيفشيه.

وعرفت بعد ذلك أنه أديبٌ من الطراز الأول، وصاحب أسلوب في إنشاء (أردو) يُعْرف به، يمتاز بقلة الألفاظ، وكثرة المعاني وإصابة الغرض، وله أسلوبٌ أدبي في سياق التاريخ، وجمل مرسلة تفاجىء القارىء على غفلة منه فيطرب لها، وتراكيب فارسية جميلة قد تكون مبتكرة، ولولا أنه من العلماء والأمراء لعُدَّ من كبار الأدباء، فإنَّ الناس لم يألفوا إلّا محترفاً أو عالماً توفّر على دراسة الأدب وإخراج الكتب الأدبية، أما الذي يمزج الأدب بالعلم والدين، أو يُعرف بالغنىٰ أو الصلاح، فلا يصدقون أنه أديب مبتكر، أو صاحب أسلوب.

ومقدماته على الكتب الأدبية والتاريخية، وخطبه في ندوة العلماء،

ومؤتمرات (أردو) وفي (لاهور) وحفلات المؤتمر التعليمي الإسلامي . . مثالٌ للأدب العالي والإنشاء البليغ.

وقد جَنَتْ إمارته على علمه جناية كبيرة، فلو لم يكن من أصحاب الإمارات والثراء لعُدَّ من كبار العلماء، فقد دَرَس العلوم الدينية والعقلية والأدبية على أساتذتها الكبار بإتقان وتفصيل، وتخرَّج على الأستاذ الكبير الشيخ (لطف الله العليكري) الذي انتهت إليه رئاسة التدريس في عصره، وخطبُه في حفلات ندوة العلماء، ومقالاته في نقد منهاج الدرس الجاري، وتطبيقه في المدارس القديمة، وانتقاده لتاريخ بغداد للخطيب، تشهد لغزير علمه وعميق نظره.

وكان مؤرخاً كبيراً، واسعَ الاطلاع على المصادر العلمية، متصلاً بالحركة العلمية وتيارها، لا ينقطع عن ركب الثقافة السيّار، ولا يتخلف عنه رغم كبر سنّه وكثرة أشغاله، يتصل دائماً بالحديث الأحدث من المنشورات والمقالات، فيزين به مكتبته العامرة ويطالعه ويبدي فيه رأيه.

وكان غالباً يكتب في أرقى مجلات الهند العلمية «معارف» الشهرية، التي كان يصدرها العلاّمة الدكتور السيد سليمان الندوي من أعظم كره.

وكان مشتركاً في شبابه مع الأستاذ الكبير والمؤرخ الشهير مولانا شبلي النعماني في إنشاء مجلة «الندوة»، وكانت مجلة علمية لها مكانة عالية في الأوساط العلمية، وكان معالي مولانا أبو الكلام آزاد وهو في مقتبل شبابه نائب رئيس التحرير لهذه المجلة.

وكان أحب موضوع إليه الحديث عن الثقافة الهندية الإسلامية ورجالها، وأخلاق العلماء، وأخبار قناعتهم، وكبر نفسهم وشغفهم بالعلم وعكوفهم على الدرس والمطالعة، وإذا ذكر شيخه مولانا لطف الله وذكر

مجالس درسه التي اشترك فيها، وشخصيته الفائقة فصوَّرها لأهل مجلسه، ذهل عن كل شيء.

وكتابُه «أستاذ العلماء»، الذي ترجم فيه لأستاذه المحبوب ووصفه لقارىء الكتاب، مثال جميل لكتب التاريخ والتراجم، وينبىءُ عن وفائه لأستاذه وشدة إعجابه به.

وكان من آخر أدباء الفارسية في الهند، لأنَّ دور الأدب الفارسي في الهند كاد ينتهي؛ له شعر رصين في الفارسية، واستحضار غريب لغُرر أشعار أئمة الشعر الفارسي ونجومه، وله ذوقٌ عالٍ وبصرٌ نافذ في اختيار المعجب المطرب من قصائدهم ومنظوماتهم، لا يشاركه في التذوق بالأدب الفارسي والتضلّع منه إلاّ صديقه معالي مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف للهند بعد الاستقلال، تشهد بذلك مراسلاتهماومطارحاتهما التي نُشِرت في كتاب «كاروان خيال» و«غبار خاطر».

وكان من المشغوفين بجمع الكتب واقتناءِ النوادر من الآثار العلمية والمؤلفات القديمة، وكان أعزَّ شيء عليه مكتبته الفاخرة الثمينة التي تُعد من أغنىٰ مكتبات الهند كتباً خطية وآثاراً عتيقة، يزورها العلماء من الأقطار البعيدة ويفيدون منها، ويعترفون بفضلها في مقدمات كتبهم ومقالاتهم، وكانت له عناية عظيمة بها، لا يزال يزيد في ثروتها وقيمتها، وقد وضع لها بقلمه فهرساً مفصّلاً في مجلدٍ ضخم أشار فيه إلى خصائص الكتب ونبّه على مؤلفيها وكل ما تهم معرفته، وهذا الفهرس ينمُّ عن واسع اطلاعه وعكوفه على الدراسة.

ولم يقتنع بهذه الفضائل العلمية، ولم يقصر عليها همته، وأراد أن يجمع إلى ثقافته وعلمه عمارة الباطن بالإيمان والإحسان، وعمارة أوقاته بذكر الله، وأن يجمع بين حسني الدنيا والآخرة، فاتصل في شبابه بالمربي الكبير مولانا (فضل الرحمن الكنج مراد آبادي)، وأفاد من صحبته وعلومه،

وحافظ على ذلك طول عمره، فكان محافظاً على الجماعة والتطوعات، وكانت له رواتب وأوراد يداوم عليها في السفر والحضر، وكان في آخر أيامه قد فقدَ الحسَّ، وخانته ذاكرته فلم يعد يعرف أحداً، ولم يزل مع ذلك مشتغلاً بالصلاة على النبي ﷺ حتى فارق الدنيا.

لقد رأيت في جولاتي الواسعة واتصالي بطبقات الناس، رجالاً نوابغ في كل فن، لقد رأيت رجالَ العلم، ورجالَ الدين، ورجالَ الأدب والشعر، ولكني ما رأيتُ أجمعَ منه للفضائل المتشتتة، ولا أوسع منه ثقافة، فقد كان أميراً في الأمراء، وأديباً في الأدباء، وشاعراً في الشعراء، ومؤلفاً في المؤلفين، وناقداً في النقاد، ورجلاً تعليمياً في رجال التعليم، حتى إذا ضمهم مجلس وجمعتهم دار، كان واسطة عِقْدهم وملتقىٰ أذواقهم وثقافتهم، يلتفّون حوله ويصدُرونَ عن رأيه، ويقلدونه الرئاسة والزعامة لشأنهم.

لذلك تراه وزيراً في حيدر آباد، وأمين المؤتمر التعليمي الإسلامي بعد وفاة (السر سيد أحمد خان) مدةَ حياته، ورئيس دار المصنفين الدائم، ورئيس حفلات (ندوة العلماء) مرة بعد مرة، ورئيس مؤتمر (أردو) حيناً بعد حين، وتمنحه جامعة (عليكره) دكتوراه شرف، وتقلّده رئاسة القسم الديني الفخرية. تسمعه يخطب في مدرسة قديمة (كديوبند) فإذا به خطيباً في كلية عصرية، أو جامعة كالجامعة العثمانية في حيدر آباد، أو الجامعة الإسلامية في (عليكره). ثم تراه يرأس نادياً أدبياً، ، أو مؤتمراً شرقياً، ويجمع بين اللغات والثقافات. ولقد تعلم اللغة الإنجليزية في كلية (آكره) الكبرى، والعلوم العربية في مدرسة مولانا لطف الله.

لقد عرفته من صغري، فقد كان صديقاً لأبي مولانا السيد عبد الحي، رحمه الله، مدير ندوة العلماء الأسبق وزميله في تأسيس هذه المؤسسة الكبيرة دار العلوم التابعة لها، ثم كان شريكاً له في العلاقة بمولانا (فضل الرحمن)، فكان إذا رآني ضمني إلى صدره وعانقني كأني أحد أولاده، وكانت بيني وبينه

مراسلات احتفظ بها، ولما توليت إنشاء مجلة «الندوة» الشهرية مع زميلي الأستاذ (عبد السلام القدوائي الندوي)، طلبت من كبار رجال العلم وقادة الفكر في الهند أن يتحدثوا عن الكتب التي لها فضل خاص في تكوين عقليتهم وتركيب ثقافتهم وفي سيرتهم وخلقهم، وسألت مولانا (الشرواني) أن يفتتح هذه السلسلة بمقالته، فتنازل ولبّىٰ رغبتي، وتفضَّل بمقالة قيمة تشهد بدراسته الواسعة المتنوعة وطول سياحته بين الكتب والمؤلفات، وسلامة فكره وصفاء حسه، وقد نشرت هذه المقالات في كتاب مفرد.

ولقد كانَ مولانا الشرواني واحداً من ركب الحضارة والثقافة الراحل، وأراد الله أن يتخلَّف عن رفقته وأترابه لمدة، حتى يتمتع به رجال هذا العصر، ويعرفوا به رجال التاريخ القديم، كالصاحب ابن عباد، والأمير أبي الفضل الميكالي، والمسند العالي عبد العزيز آصف خان وزير كجرات، وخواجه عماد الدين محمود الكيلاني، ويصدقوا ما قيل عنهم، حتى إذا بعدت الشقة بينه وبين هذا العصر وثقافته وأخلاقه، وشقَّ عليه طول المكث في دار غربة، أَذِنَ الله له في السفر يوم الجمعة في ٢٦ من شوّال ١٣٦٩هـ (الحادي عشر من أغسطس سنة ١٩٥٠م)، فالتحق بأصدقائه ورفاقه وترك في الحياة العلمية والدينية فراغاً لا يُرجى سداده في مدة قريبة، فإنَّ المدرسة الشرقيةَ الإسلاميةَ التي كانت تخرِّج هذا الضَّرب من الرجال قد أقفلت، أو هي في إجازةٍ طويلة لا تعرف نهايتها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

العلاَّمة سيد سُليمان الندوي

لم يكن العلاّمة سيد سليمان الندوي من كبار المؤلفين في «السيرة النبوية» لعصره فحسب، بل كان من أبرز المؤلفين في السيرة والتاريخ الإسلامي بكامله، وقد كان من مزاياه، أنه وسَّع نطاق السيرة من سَرْد الأحداث وبيان الشمائل ووصف العادات، إلى الرسالة المحمدية والتعليمات النبوية والشريعة الإسلامية، وبحث شعبها المختلفة، وبهذا المنهج المنفرد الموسَّع الذي سلكه أستاذه العلامة «شِبْلي النعماني» في المجلدين الأولين للسيرة النبوية، وسلكه العلامة سيد سليمان الندوي في المجلدات الخمسة الباقية، أصبح الكتاب موسوعةً للسيرة لا يوجد لها نظير في أي لغة من لغات المسلمين في العالم.

وكان من منجزاته أيضاً أنه حقَّق بالسيرة والتاريخ أهدافاً لا تحقق إلاّ بعلم الكلام، فأسَّس علم كلام جديد يفوق علم الكلام القديم في التأثير على الذهن الجديد وإقناعه، وفي توثيق الثقة بالشخصية النبوية والشريعة الإسلامية، وهو أكثر سداداً للحياة العملية المعاصرة.

أما كتابه «خطبات مَدْراس»، الذي نُقل إلى العربية باسم «الرسالة المحمدية»[1]، وصدرت عدة طبعات له من مصر وسوريا، فهو من أقوى

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ محمد ناظم الندوي.

الكتب في السيرة وأروعها في جمال التعبير، وبثٍّ حلاوة الإيمان، وتوثيق الصلة بذات النبي ﷺ، والكتاب عصارةٌ لمكتبة كاملة في السيرة النبوية، وهو هدية ثمينة لغير المسلمين والمثقفين المسلمين، والباحثين عن الحق، للتعريف بالإسلام، ولعرض سيرة النبي ﷺ بإيجاز وأسلوب مقنع مؤثّر، وقد صدرت عدة ترجماتٍ إنكليزية له، وأحدثها الطبعة التي أصدرها المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ الهند باسم (Muhammad the Ideal Prophet).

يُعرف العلامة سيد سليمان الندوي عادةً في الأوساط العلمية كمؤرخ وأديب، ولكني أعتقدُ أنَّ موضوع اختصاصه الذي يتجلىٰ فيه ذوقه الطبعي هو القرآن الكريم وعلم الكلام، ويدل على هذا الاتجاه المجلدان الرابع والخامس من «سيرة النبي» ﷺ، اللذان يعالجان منصب النبوة والعقائد والعبادات والأخلاق بزاوية جديدة ودراسة مقارنة.

إنَّ سيد سليمان الندوي يستحق بدون مراء أن يُعَدَّ أكبر مؤرِّخ وباحث لعصره، وإنَّ كتبه «خيام» و«عرب وهندكي تعلقات» (الصلات بين الهند والعرب)، و«عربون كي جهاز راني» (الملاحة عند العرب)، و«الإمام مالك، رحمه الله»، و«سيرة عائشة، رضي الله عنها» خير نماذج للكتابة في التاريخ والبحث العلمي، وكتابه «أرض القرآن» لا يزال كتاباً فريداً لم يُنسج على منواله في موضوعه، وهو ثروةٌ غنية في المواد العلمية.

وبالنظر إلىٰ هذه المؤلفات القيمة يمكن أن يصدر الحكم بأنَّ شخصاً واحداً في بعض الظروف ينجز من أعمال علمية هائلة لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازها، وقد كتب شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال، الذي كان بدوره عالماً كبيراً للفلسفة والعلوم الشرقية، في رسالة له: (إنَّ سيد سليمان الندوي يفجِّر من الصخرة ينبوعاً من العلم، ويمتلك ناصية العلوم الإسلامية).

كان من مزايا شخصية سيد سليمان الندوي: الجامعية والشمول في المعرفة والبحث، فقد كان خبيراً بالعلوم القديمة والعصرية، وكان مؤرخاً وأديباً وناقداً ومحققاً، وبجانب ذلك كان فقيهاً ومحدثاً في آنٍ واحد، وبالإضافة إلى هذا الاشتغال والشغف بالبحث العلمي كان من كبار القادة لحركة تحرير البلاد والانتفاضة السياسية للمسلمين، فكان يرأس اجتماعات وحفلات أدبية ولغوية، ويرأس مجالس فقهية ودينية تضم العلماء، وكان أحد أعضاء وفد حركة الخلافة الذي توجه إلى إنكلترا برئاسة رئيس الأحرار مولانا محمد علي في عام (١٩٢٠م)، لشرح مشاعر المسلمين إزاء قضية الخلافة على المسؤولين البريطانيين والمثقفين وقادة الفكر في بريطانيا، وترأَّس أيضاً وفد الخلافة الذي اشترك في المؤتمر الإسلامي الأول، الذي دعا إليه الملك عبد العزيز بن سعود في عام (١٩٢٦م)، وكان أحد الأعضاء الثلاثة للوفد الذي توجه إلى أفغانستان بناءاً على دعوة نادر خان ملك أفغانستان لإعداد خطة جديدة للتعليم في أفغانستان، وكان العضوان الآخران في الوفد الدكتور محمد إقبال، والسر رأس مسعود نائب رئيس الجامعة الإسلامية بعليجرة.

وقد انتقل في آخر حياته ـ قبل انتقاله نهائياً إلى باكستان ـ إلى إمارة بهوبال، وشغل مناصب رئيس القضاة وأمير الجامعة الأحمدية، والمستشار للشؤون الدينية، ومكث هناك أربع سنوات، ثم اشترك في إعداد الدستور لجمهورية باكستان الإسلامية، وقام بإرشاد هذا البلد الفتي دينياً.

ومن مآثره الأخرى أنه أحرز قَدَم السبق ونال الاعتراف به في ميدان لغة البلاد وأدبها، وصدرت بقلمه السيَّال وفكره الغزير مقالات وخطب وبحوث علمية أشادَ بها النقّاد وأساتذة اللغة الأردية والأدب الأردي، لغزارتها العلمية وسعة المطالعة، وعمق النظر، ويعتبر كتاب «نقوش سليماني» خير نموذج لها. وبذلك ردَّ علمياً التهمة الشائعة بأنَّ علماء الدين لا يستطيعون أن يسايروا ركب اللغة والأدب السيَّار، وأنهم لا يستطيعون التعبير عن أفكارهم إلّا باللغة

القديمة، وبذلك فإنه أنقذ الدعوة الإسلامية والتعبير الـديني من خطر التخلف والجمود، وغض البصر عن العهد الجديد والطبقة المثقفة العصرية.

إنَّ الذين يتابعـون تاريـخ العـالم العلمي والفكري والـديني، ويعرفـون أغواره وأنجاده، يعرفون أنَّ فجوة هائلة وقعت أحياناً في تـاريـخ الأمم والملل بين خبراء العلوم القديمة والطبقـة العصريـة المثقفة والعصـر المتجدد، وأدَّت هـذه الفجوة إلى عـزل الدين والأخـلاق عن موضـع التـأثير والنفـوذ، وعـاش المجتمـع في فجوةٍ من سيطرتهما، فأصبـح العلم والسلطة كـالفيل الهـائـج، وأصبحت الحيـاة كالجمـل المرسـل حبله على غاربـه، وكانت هـذه الفجـوة مصدر صراع شديد نشأ في القرون الـوسطى، في أوروبـا بين العلم والدين، وقـد وصف هـذا الصـراع الكـاتب الشهيـر (Drapper) في كتـابـه المعـروف «الصـراع بين الـدين والعلم» (Conflict Between Religion & Science): (وقـد مَـرَّت أوروبا بتلك القـرون المـظلمـة (Dark Ages) التي قـامت فيهـا محـاكم التفتيش، وصـدرت أحكام قـاسية على البـاحثين، وقـد وصف مؤلف أوروبي وهو يذكر فظائـع هـذه المحاكم أن عـدد قتلاهـا يزيـد عن عدد قتلى الحـرب العالمية الكبرى، ولكن لم يحدث مثل هذا الصـراع بين رجال الـدين ورجال العلم في الإسـلام، ولم تقـع مثل هـذه الفجوة في تـاريـخ الملة الإسلاميـة، ويـرجـع الفضـل في ذلـك إلى أمثـال هؤلاء العلمـاء الـذين كـانـوا يتصفـون بالجامعية والبصيرة العلمية والذهن الوقّاد، والذين شعروا بتغيـر الزمن وتـابعوا المسـائل المستحـدثَة، وعـرفوا ذهنَ الجيـل الجديـد ونفسيتَه، وفهمـوا اللغـة المتطورة للبلاد والأساليب البيانية وقاموا برعايتها، فأنقذوا الجيـل الجديـد من تيارات التشكيك والإلحاد والمروق، وتستحق أسماء العلامة شبلي النعماني، وتلميذه الرشيد العلامة سيد سليمـان الندوي، وبنـاة ندوة العلمـاء وأساتـذتها الفضلاء، من بين علماء هذا العصر ومؤلفيـه بأن تُكتب بمـاء الذهب في هـذا الميدان، إنها لمـأثرة دينيـة علمية كبـرى، ويطول الاستشهـاد بمقتطفـات من

كتابات سيد سليمان الندوي التي تنم عن مدىٰ اهتمامه وشعوره بهذا التغير ومدى رعايته لهذا الجانب في مؤلفاته، وخاصةً في كتابه السيرة النبوية وشرح العقائد الإسلامية)[1].

(أعتقد أنه لم يكن في العلماء المعاصرين، وعلى الأقل في خريجي المدارس الدينية في الهند من عاش معركة العقل والقلب، والقديم والجديد، والشرق والغرب، والدين والأدب، أو الدين والفلسفة مثل ما عاشها أستاذنا العلامة الذي كان من خريجي دار العلوم ندوة العلماء، ومؤلف «سيرة النبي» ﷺ، وسياسياً خبيراً، وأديباً بصيراً، تجوَّل في أوروبا، وكان قد سقى شجرةَ العلم بنبعه الفياض، واستظل بظلها الظليل سنين طوالاً، وتناول موضوعَ التاريخ، وتحدَّث عن فلسفة مدِّ العلم وجزره، وتطوره وانحطاطه، ولكن قلبه السليم وروحه الوثّابة كانت تشهد ــ وإن كان تلاميذه والمعجبون بعلمه وكتاباته لا يقرون بأنه كان في حاجة إلى مزيد جديد ــ بأنه لم ينهل بعد من نميره الصافي الفيَّاض، وكانت مؤلفاته وخاصة «خطبات مَدْراس»: «الرسالة المحمدية»، و «سيرة النبي»، و «سيرة عائشة» قد أذكت في قلوب آلاف من الناس شعلةَ الإيمان، فذاقوا حلاوته، ولكن همته البعيدة وعزمه وطموحه كان يحثه على البحث عن تلك المنزلة التي عبر عنها الحديث الشريف بالإحسان، والقرآن الكريم بالتزكية.

وكما أنه وجد مرشداً وموجهاً، مثل العلامة شبلي النعماني، في طريق العلم والأدب والبحث والتحقيق، فطواها بنجاح وتوفيق، كذلك كان يبحث عن مربٍ حكيم وموجه بصير، يبصِّره بغوائل النفس ومواضع الضعف في

(١) من تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوي رئيس تحرير صحيفة «الرائد» لمقال المؤلف الذي قدمه لندوة تذكار العلامة السيد سليمان الندوي التي انعقدت في دار العلوم تاج المساجد ــ بهوبال ٤ ــ ٧ من سبتمبر ١٩٨٥م.

طبقة العلماء والمنشغلين بالعلم والتأليف، ويسهِّل له الوصول إلى مرتبة الإحسان والتزكية[1]، وإن قصته ومشاعره الداخلية في ذلك كانت ـ إلى حد كبير ـ كالتي نشاهدها في حياة الإمام حجة الإسلام الغزالي، فإنه لما بلغ ذِروة الفضل والكمال والشهرة العلمية، بدا له ما كان يشتغل به من اجتهاد علمي وفكري كسراب، وخرج من بغداد في البحث عن معين العلم الحقيقي واليقين والمعرفة، وعاد موفقاً قد نهل وعل.

وكان العلاّمة السيد سليمان الندوي يمتاز من بين أقرانه بهمةٍ عاليةٍ وولع شديد بتحقيق منجزات علمية، وكان يقبل على إكمال كتاب يبدأ تأليفه كأنّه أحب وآخر عمل يقوم به في حياته، فكان يركز عليه جلَّ عنايته، ويبذل فيه كل جهوده، ويطالع مئات، بل وآلافاً من الصفحات لأجله، ويجمع المعلومات، ويحضر المواد، ثم يستخدمها وينتفع بها في إخراج هذا الكتاب أو البحث، وما كاد ينتهي من عمل حتىٰ يبدأ بعمل آخر، بدلاً من أن يأخذ قسطاً من الراحة، ويروح نفسه من التعب والعناء، الذي لاقاه في البحث والتحقيق، وكان يشتغل به بنفس النشاط والرغبة، وقد أثَّر ذلك في صحته، فتعرَّض لأمراض مضنية وضعف وإعياء شديد، وهو لا يفتر ولا يستريح، ويبقىٰ مشغولَ الخاطر بالموضوع الذي يبحث فيه أو يستعد له، شأن من استأسره العلم وملك عليه مشاعره وتفكيره وملأ منه كل فراغ.

وكان مما ميّزه الله به، سعةَ النظر واتزانَ الفكر، وكان في ذلك نصيبٌ للبيئة التي تلقىٰ فيها تربيته العلمية والفكرية، وفضلٌ لتوجيه الأساتذة والمربين الذين استفاد منهم، فلم يكن فيه تزمّتٌ فكريٌ، أو عصبيةٌ مذهبية، أو جمودٌ علميٌ شأنَ كثير من العلماء في عصره وقبل عصره.

---

(١) تتلمذ العلامة لإكمال هذا الجانب من حياته المليئة بالأشغال العلمية والتأليفية على العالم الرباني والمصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي (المتوفى ١٣٦٢هـ) وحاز ثقته وشهادته بالإخلاص والنبوغ.

وكان بريئاً من ضحالـة علمية، وتسـرُّع في الحكم، وانبهارٍ بـالحضارة الأوروبية، كالطبقة المثقفة الجديـدة، بل كـان واسـعَ النظر، رحبَ الصـدر، محباً للوسطية والاعتدال في كل شيء من آرائه العلميـة إلىٰ مذهبـه الفقهي، ولو لم يكن كذلـك لواجـه حَرَجـاً وعنتاً في كثيـر من المناسبـات، وفي صحبة الزعيم الهندي الكبير مولانـا محمد علي في وفـد الخلافـة إلى إنجلترا، وفي حضوره للمؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة وسفـره إلى أفغانستـان، وصلاتـه بـالجامعـة الإسلاميـة في عليكـرة، والجـامعـة المليـة الإسـلاميـة في دلهي، والمجـامـع الأدبية واللغـوية والعلميـة في أنحاء الهنـد التي كان فيهـا موضـع احترام وإجلال وتقدير واعتراف)[1].

(كـان سيد سليمـان الندوي ربـع القـامة، مـائلاً إلى القصـر، له وجـه مشرق، تلوح عليه أمارات الهُدوء والسكينة، ويعلوه الوقار والرزانـة، له لحيـةٌ كثة مستديـرة، وجبينٌ واسـع زاهر، ممتلىءُ الـوجنتين، واسـعُ العينين تشفَّان عن ذكـاء وحيـاء، أزجُّ الحـاجبين، رقيقَ الشفتين، نقيُّ اللون بين سمـرة وبياض، نظيف الملابس دائماً، لا يـراه الناس قط في وسـخ وتبـذل، ملتزمـاً للعِمـامـة في الأسفـار والمجـامـع، مقـلاً من الكـلام، كثيـرَ الصمت، دائمَ الفكـرة، امتزج العلم بلحمـه ودمه، فـلا يعنىٰ إلّا بـه، ولا يتحـدّث إلّا عنـه، مديمَ الاشتغال بالمطالعة والبحث، دائمَ المذاكرة للعلماء في العلم والـدين، سلسَ القـريحـة، سـائـلَ القلم في التـأليف والتصنيف، ليست الخـطابـة في المجامـع العامة والخوض في السياسة من طبعـه وذوقه، فـلا يتقدّم إلى ذلـك إلّا متكلفاً أو مضطراً، راسخاً في العلوم العربية وآدابها، عـالي الكعب، دقيق النظر في علوم القرآن وعلم التوحيد والكـلام، واسـع الاطلاع، غـزير المـادة

(١) القطعة بين الهلالين مقتبسة من كتاب المؤلف «المصابيـح القديمة» نقلها إلى العربية الأخ حشمـة الله الندوي.

في التاريخ وعلم الاجتماع والمدنية، منشئاً صاحب أسلوب أدبي في اللغة الأردية، كاتباً مترسلاً في اللغة العربية، شاعراً مقلاً في اللغتين مع إحسان وإجادة، حليماً صابراً، يقهر النفس، ويتسامح مع الأعداء والمعارضين، ضعيفَ المقاومة في شؤونه الشخصية، يتحمل ما يرهقه ويشق عليه.

وبقي مشغولاً بالذكر والعبادة، والتربية والإفادة، إلى أن وافاه الأجل في غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة وألف هجرية(١٩٥٢م) في كراتشي، وحضر جنازته كبار العلماء وأعيان البلاد، وسفراء الحكومات الإسلامية والعربية، ودفن بجوار الشيخ شبير أحمد العثماني)[١].

* * *

(١) مقتبس من كتاب «نزهة الخواطر» المجلد الثامن للعلامة السيد عبد الحي الحسني، والقطعة المقتبسة هنا بقلم نجل المؤلف أبي الحسن الندوي.

الدكتور السيد عبد العلي الحسني

مدير ندوة العلماء

في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٠هـ (السابع من شهر مايو ١٩٦١م) فقدنا عَلَماً من أعلام العالم الإسلاميّ، ونادرةً من نوادرِ الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، ومحاسن القديم والجديد. .

هو أخي الكبير ومربّي ومثقّفي الدكتور (السيد عبد العلي الحسني)، ابن مؤلف الهند الكبير العلّامة السيد عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق وصاحب «نزهة الخواطر»، و«الثقافة الإسلامية في الهند»، وُلِدَ في سنة (١٣١١هـ)، وهي السنة التي وُلدت فيها حركة ندوة العلماء صاحبة المؤسسة الإسلامية الكبيرة ـ دار العلوم في لكهنؤ ـ الهند، ورائدة الحركات الإسلامية الكبيرة في العصر الحاضر. . فكان الفقيد تِرباً لندوة العلماء وكانا في سنٍ واحدة، وقد كان وفيّاً لتِرْبه العظيم، فقد عاش متصلاً به، مساعداً له مديراً لإدارته لأطول مدة تمتَّع بها مدير في تاريخ الندوة، يعني من سنة (١٩٣١م) إلى أن لفظ نفسه الأخير في اليوم السابع من شهر مايو (١٩٦١م).

نشأ أخي، رحمه الله، في حضانة المؤلف العظيم جده الشيخ فخر الدين، ووالده الكبير السيد عبد الحي، وجوَّد الخط وتعلَّم اللغة الفارسية ـ على عادة أبناء الأُسَرِ الشريفة في ذلك العهد ـ وكان يتكلّم بها بطلاقة وسهولة، وقرأ الأدبَ العربيّ والفقه وأصولَ الفقه في جدٍ واجتهاد وفهم، وكان

لا يزال يتكلم بها بطلاقة وسهولة، وقرأ العلومَ الدينيةَ وآدابَ اللغةَ العربية على أساتذة دار العلوم التابعة لندوة العلماء البارعين، وتعلَّم المنطق والفلسفة والهيئة والأقليدس والنحو والأدب العربي، والفقهَ وأصولَ الفقه في جدٍ واجتهاد، وفهمٍ وإتقان، وكان مُتَّسماً من صباه بطول الصمت والاشتغال بذات النفس، والجد في كل شيء، والبعد عن الهزل وسفاسف الأمور، وقد اشتهر بين أقرانه وفي زمانه بالبر بوالده والخضوع لأوامره ورغباته، والحرص على راحته وطاعته، وكان مضربَ المثل في ذلك، وله في ذلك حكاياتٌ نادرة تحفظ وتروى.

ثم التحق بالجامعة الإسلامية الدينية المعروفة بدار العلوم ديوبند، والتحق بصفها النهائي، المختص بدراسة الحديث الشريف، وكانت دار العلوم ديوبند تعتبر أعظم مركز لتدريس الحديث، وكان رئيس أساتذتها العالم الرباني المشهور بمولانا محمود حسن المعروف بشيخ الهند، ومكث عاماً يدرس الحديث ويتخصَّص فيه، وكان من أساتذته الكبار العلامة الكبير الشيخ أنور شاه الكشميري. وكان معجباً بجودة فهمه وحسن تقييده للدرس، وتخرَّج في ديوبند بامتياز، ثم رجع إلى لكهنؤ مقر والده وعكف على دراسة الطب العربي القديم، وقرأ على والده الذي كان من كبار الأطباء وأتمَّ دراسته، ثم سافر إلى (دهلي) ولازم الحكيم (أجمل خان)، أشهر أطباء الهند، ومن كبار زعماء حركة التحرير، ومن أصدقاء الزعيم غاندي، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، واستفاد منه ومن مجالس الدكتور مختار أحمد الأنصاري رئيس المؤتمر الوطني الأسبق، ومن الأطباء البارعين في الطب الجديد، وكان مدة إقامته في دهلي أثيراً عند الحكيم أجمل خان وموضع ثقته.

وبعدما تخرَّج في العلوم الدينية وأتمَّ دراسة الطب، بدأ يدرس اللغةَ الإنجليزية والعلومَ الجديدة وهو شاب، ولم يشعر بذلك والده حتى حصلت

له مشاركة فيها، فكانت مفاجأة له كما كانت مفاجأة لكثير من أقاربه وأصدقائه، والتحق بالمدرسة الحكومية، ثم دخل في كلية لكهنؤ (Canning College)، مركز الثقافة المدنية في العاصمة، وحضر امتحان ليسانس (.B.S.C) سنة (١٩١٩م) في العلوم الطبيعية، وتخصَّص في علم النباتات (Botany) وبرز في الامتحان وفاق أقرانه، وكان المُجَلِّيْ[١] في هذه الكلية، والمصلى[٢] في جامعة إلّه آباد الكبيرة، ونال وسَامَيْن، ثم التحق بكلية الطب الجديد في لكهنؤ وقضى فيها خمس سنوات، وأخذ الشهادة النهائية من جامعة لكهنؤ، وقد توفي والده أثناء دراسته، وترك أسرة كان الفقيد كافلها والحامل لأعبائها، وأتمَّ دراسته في كلية الطب، ثم بدأ حياته المستقلة كطبيب ليكفل أسرته، وكان زاهداً في الوظائف الحكومية قانعاً متقشفاً في حياته الخاصة، واسع الذراع، رحيب الصدر لإخوته الصغار، وقد أنساهم بره ورقة عاطفته ألم اليتم وخسارة فقد الوالد.

وانتخب عضواً في لجنة ندوة العلماء التنفيذية عام (١٩٢٣م)، وانتخب نائب المدير عام (١٩٢٨م)، ومديراً عام (١٩٣١م)، وقد قطعت ندوة العلماء ودار العلوم أشواطاً بعيدة زمن إدارته وإشرافه وفاق عصرُه جميعَ العصور، وأصبحت مؤسسة عالمية لها شهرتها ومكانتها في العالم الإسلامي.

وكان عضواً في لجنة دار العلوم ديوبند أيضاً، ولما عقدت جمعية العلماء حفلتها السنوية سنة (١٩٤٩م) تحت رئاسة العالم الجليل الزعيم الإسلامي مولانا حسين أحمد المدني، كان رئيس لجنة الاستقبال، وألقى خطبة قيمة وجيزة المباني، غزيرة المادة، عميقة التفكير.

عاش الفقيد حياته منقطعاً إلى حرفته التي خدم بها الناس في إخلاص

---

(١) أي كان ترتيبه الأول.

(٢) أي جاء ترتيبه الثاني.

وأمانة، ونصح وإيثار، وكان همُّه دائماً برء المريض وراحته، دون الفائدة المادية، وكان أميناً ناصحاً في آرائه لا يتعصّب لطب أو لطبيب، ولا يصرُّ على خطأ ولا يستحي من قوله «ما فهمت» إذا لم يتبيّن له الصواب، وجمع إلى ذلك إدارة ندوة العلماء التي كان يقوم بها متطوعاً محتسباً، وكان حريصاً على إيصال النفع إلى الناس، والمواساة وصلة الأرحام، مشتغلاً بذات نفسه معتزلاً في بيته، قليل الحديث إلّا فيما ينفعه وينفع الناس، زاهداً في الجاه والشهرة والظهور.

ولم يزل على ذلك حتى انحرفت صحته في الزمن الأخير وأصيب بضغط الدم، وأمراض القلب حتى وافاه الأجل المحتوم في ٢١ من ذي القعدة ١٣٨٠هـ (١٧ من مايو ١٩٦١م) وخلَّف وراءه ولده الوحيد الأستاذ محمد الحسني منشىء مجلة «البعث الإسلامي»[1] وخمس بنات، وأخاً أصغر هو كاتب هذه السطور وأختين، وصلّى عليه جمع حاشد يبلغ عدده الآلاف، ونقل جثمانه إلى وطنه (رائي بريلي)، حيث دُفن بجوار أبيه العظيم، وأجداده المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار، ورثْته الجرائد والمجلات والأوساط الدينية والعلمية وانهالت رسائل التعازي إلى أخيه الأصغر من جميع أنحاء الهند ومن الخارج، وكلها إعجاب واعتراف بشخصيته الفذّة الجامعة، وثناء على ديانته وإخلاصه واستقامته.

لقد كان الفقيد رحمه الله مثالاً نادراً لما تخيله المصلحون في الشرق وما تمنوه، وما قامت به دعوة ندوة العلماء من الجمع بين القديم والجديد،

---

(١) وقد استأثرت به رحمة الله في ١٧ من رجب ١٣٩٩هـ (١٢/٦/١٩٧٩م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره، وقد نبغ واشتهر ككاتب إسلامي مرموق بالعربية، وأنشأ مجلة «البعث الإسلامي» ورأسَها مدةَ حياته، يرجع لترجمته الوافية في مقدمة كتاب «الإسلام الممتحن» بقلم كاتب هذه السطور.

والـدين والدنيا، ورسوخ في العقيـدة واستقامـة في الدين، وتضلّـع من العلوم القديمة والحديثة وسعة آفاق العلم والثقافة، وتصلّب في المبادىء والغايـات، وتـوسّـع في الوسـائل والآلات، واقتبـاس العلوم النـافعـة، وأخـذ بـالحـديث الأحدث من المعلومات والاكتشافات.

ولقد اجتمـع فيه حب الواقعية وعـدمُ التعصب الذي اتّسمت بـه العلوم التجريبية الحديثة، والإتقان والتعمق اللذان امتاز بهمـا نظام التعليم القـديم، انتقل إليه من الجيل القديم ومن آبائه وشيـوخه حب اتبـاع السنّة، والاستقـامة في الحيـاة، واقتبس من العصـر الجـديـد الـذي نشـأ فيـه روح البحث والاستطلاع، وحب الاختبار والتجربة، وأشهـد أنني لم أرَ فيمن رأيت وعرفت من الشخصيـات الكبيـرة مثله في التـوسط بين الجمـود والتجـدد والاقتصـاد والسَّداد بين القديم والجديد.

ولقد رزقه الله سبحانه وتعالى فطرة سليمة بعيدة عن الإفـراط والتفريط، وعن التطرف والتزمت، وقد كان متقشفاً في حياته الشخصية، زاهـداً إلى حد يستدعي العجب، ولكنه كـان واسـع النظر رحب الصـدر في العلم والدراسـة وفي الثقافة، وفي أفكاره الإصلاحية والتعليمية.

كان عجباً في بساطة معيشته واتباع السنّة في أحواله الشخصية، والبعـد عن الإسراف وعن تقليد العادات الهندية في المعاشـرة والاجتماع، وتـزويـج البنين والبنات، وبالعكس من ذلـك كان مستعـداً لأن يقبل كـل جديـد مفيد، وكـل رأي سـديـد في العلم والأدب، وفي نـظام التعليم ومنـاهـج الـدراسـة والاجتماع والسياسة، ولم تكن أفكاره ونظرياته آراءاً سانحة ونظريـات مرتجلة تخضـع للحوادث المحلية والمؤقتة، لذلـك لم يضطر إلى تغييـرها ونسخهـا، شأن كثير من معـاصريـه، ولم يكن ليتوب عمـا انتحله من الآراء، ودان به من مذاهب وأفكار، كما يفعل كثير من (المفكرين) المتهورين المتحمسين.

وقد كان جاداً في كل أعماله، متقناً لكل ما درسه من القديم والجديد، إماماً في مسجد الحي، عالماً فقيه النفس، قد بايع العالم الرباني الجليل مولانا حسين أحمد المدني وأحبه واختصَّ به، وكان بيته مقراً للشيخ كلما مرَّ بلكهنؤ، أو أقام بها مدة، وقد كان من خاصة أصحابه، يحبه الشيخ ويستأثر به.

وكان يتمتع بثقة واسعة واحترام عام، وكانت شخصيته غير منازع فيها، فإذا انعقدت حفلة ذات خطر، وأراد القائمون عليها أن يتفادوا الخلاف اختاروه رئيساً لها، ووافق على ذلك الحاضرون من غير اختلاف.

وكان محبَّباً كبير المنزلة عند المشايخ الكبار المخلصين من عباد الله، وكانت له صلة خاصة بالداعية الكبير مولانا محمد إلياس الكاندهلوي منشىء جماعة التبليغ المشهورة، رحمه الله، يحبه ويثني عليه ويحتفي به، وكان متنوع الثقافة كثير جوانب الشخصية، فكان بذلك كله مجمعاً علمياً دينياً في شخصه وثقافته.

وكان من أبرز مزاياه وسماته حميته الإسلامية والاهتمام بأمور المسلمين وشدة التعلق بالعالم الإسلامي، كأنه كان عاملاً بالحديث النبوي المعروف: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، وكان شديد العطف على قضايا العالم الإسلامي، مقدراً للجهاد أينما كان، حريصاً على المساهمة فيه، شارك في جهاد فلسطين بتبرعات أسرته، وكذلك في جهاد الجزائر، فقد جمع التبرعات من أعضاء أسرته وأولاده وأرسلها إلى ممثل حكومتها المؤقتة في الهند.

وكان شديد التعلُّق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين بصفة خاصة، عميق الحب، شديد التعظيم للنبي ﷺ وأصحابه وأهل بيته، شديد الحب للعرب، يسوءه ويؤلمه ذمُّهم وانتقاصُ حقهم وفضلهم، وقد كان

مرهفَ الحس في ذلك، وكنا نعرف ذلك في وجهه، محباً للشعوب الإسلامية كلها، شديدَ الكراهة لدولة إسرائيل، وكان لا يخفي استياءه وامتعاضه من ذلك، قدم له أحد أعضاء الأسرة مجلة «إسرائيل» الإنجليزية، لحبه الاطلاع على شؤون العالم، فتغيَّر لونه، وظهرت الكراهة في وجهه، وقال: ما لي ولهذه المجلة، وهذا الموضوع؟.

وكان مرجعاً لنا جميعاً في جغرافية العالم الإسلامي، خبيراً بجغرافية جزيرة العرب واسع الاطلاع على شؤون العالم الإسلامي، ألَّف كتاباً بالعربية في هذا الموضوع في شبابه، وكان يترقب الفرص لإتمامه والزيادة فيه، ولم تمهله أشغاله ومسؤولياته، وكان متتبعاً لما يحدث في العالم العربي، وقد بدأ يطالع الصحف العربية والجرائد التي تصدر من عواصم العالم العربي في الزمن الذي لم يكن هذا شائعاً في الهند، فكان من قرَّاء صحيفة «الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب، و«فتى العرب» الدمشقية، و«الجامعة الإسلامية» الفلسطينية، في أيام لم يكن يعرفها كثير من علماء الهند، ولم يزل متصلاً بالعالم العربي، مطَّلعاً على صحفه وجرائده إلى آخر أيام حياته، يقرأ ما يصدر من المراكز الثقافية في الشرق العربي من المجلات الإسلامية الرفيعة والصحف السيارة، ولم ينقطع عن الركب الثقافي مع اعتزاله وشدة اشتغاله بشؤون الحياة.

وكان كبير الاعتناء عظيم التقدير للحديث النبوي الشريف، يرى أنه يملأ فراغاً في الحياة الدينية لا يملؤه غيره، وأنَّ من عاش بعيداً عنه عاش في إفراط وتفريط، وأخطأ فهم الدين.

وكان له شَغَف واهتمام بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الجليل العلاّمة ابن قيم الجوزية، وكان كثير المطالعة لـ«زاد المعاد»، حسن الاعتقاد شديد الإجلال لمصلحي الهند المجددين، كالإمام الربَّاني الشيخ أحمد

السَّرْهَندي، وشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وخاصة الأخير الذي كانت له معه صلة القرابة والنسب وكان شديد الإعجاب به، يعتقد أن شخصيته ودعوته من أشبه الشخصيات والدعوات بالمنهاج النبوي في القرون الأخيرة، وهو الذي حثَّني على تأليف كتاب في سيرته وترجمة حياته، ووفقني الله لذلك.

وكان شديد العناية باللغة العربية ونشرها وتعليمها في الهند، وكان له سعيٌ مشكور في تغيير منهاج دراستها في دار العلوم، والاستفادة من الأساتذة العرب وتهيئة الأسباب لأستاذنا العلامة «تقي الدين الهلالي المراكشي»، ولشقيقه الأستاذ «محمد العربي»، وغيره من الأساتذة الذين تذوقوا اللغة، وتشجيعهم في تعليمهم اللغة العربية على الطريقة الصحيحة الموافقة للطبيعة.

أما فيما يخصُّني ويتَّصل بي فقد نشأت في حضانته وتحت إشرافه، فقد مات والدي، رحمه الله، وأنا في التاسعة من عمري. وقد كفلني كفالةَ الآباء للأبناء، قد كان ــ رحمه الله وكافأه أفضل مكافأة ــ عطوفاً رؤوفاً مربياً حكيماً من أفضل من عرفت من المربين، وهو الذي رَسَم لي خطةً في التعليم والثقافة، اتبعتها طول حياتي، وطبعني على حب الاقتصاد والسَّداد، والاتّزان والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وعلى حب السلف وإجلال السنّة، وعدم الإفراط والتفريط، وهو الذي هيأ الله لي عن طريقته وسائل التعليم والدراسة وما كتب لي من خدمة العلم والدين، والانقطاع إليهما، والتفرغ من الهموم وتكاليف الحياة.

وقد كانت مجالسه الرزينة، وتوجيهاته الحكيمة، وتعليماته الهادئة، أنفع لي من مائة كتاب، وقد كان لها فضل في فهم فضل تعاليم الإسلام والحضارة التي تؤسسها هذه التعاليم، والاطلاع على مواضع الضعف في

الحضـارة الغربيـة وزيـغ أساسهـا، وإذا كان في ثقـافتي وما وفقني الله لـه من الدراسة والتأليف والدعوة والتوجيه شيء يستحق الذكر، فالفضل في كل ذلك يـرجـع إليه بحـول الله، وبذلـك تقدر خسـارتي بموتـه، وحزني على فقـده، وألمي بمصابه، ومـع ذلك نحتسبه عند الله، ونعتزُّ بهـذه الحياة السعيـدة التي انقضت في خدمة العلم والدين وصالـح المسلمين، ونرجو له من الله المغفرة والـرضوان، ولنـا الأجـر والمثـوبـة، ومن الإخـوان والمحبين في الله صـالـح الدعوات له ولأسرته، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

* * *

الشيخ خليل بن محمد اليماني[1]

كل من ينحدر من أصل عربي يدعى في الهند بـ (عرب صاحب) حباً وإجلالاً له، مهما كانت منزلته العلمية والدينية، وحينما لم يكن السفر من بلد إلى بلد عرضة القيود والإجراءات الرسمية، كانت المدن الكبيرة للهند تشهد الزائرين الوافدين من الحجاز الذين كانوا يتزيون بالزي العربي، وكان المسلمون يستقبلونهم بحفاوةٍ وحبٍ وإكرام، ويكرمون مثواهم، مدفوعين بالعاطفة الدينية الخالصة، والعلاقة الروحية التي كانت تربطهم بإخوانهم العرب.

ولكن ابتداءاً من(١٩٢٤م ـ ١٩٢٥) إلى (١٩٣٢م ـ ١٩٣٣)، كانت كلمة (عرب صاحب) في مدينتنا لكهنؤ خاصة بشخص واحد فقط، وهو الشيخ خليل بن محمد، الذي كان قد عُيِّن أستاذاً لتدريس اللغة العربية[2]

---

(١) نقل هذا المقال، العزيز حشمة الله الندوي تعريباً من كتاب المؤلف «المصابيح القديمة»، المشتمل على تراجم عدد من الشيوخ والأساتذة، والمعاصرين الكبار، والزملاء الراحلين في أردو في مجلدين.

(٢) درّس أستاذنا الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين بن محسن اليماني سورة «الزمر» بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عندما بدأت دراسة اللغة العربية عليه، وقد أودع الله عزّ وجلّ فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي وخاصة للشعر العربي قلّما يوجد له نظير، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية لهج لسان النبوة بالشهادة والخير لها «الإيمان يمان»، وقد ورث جمال الطبيعة العجمية من أخواله، وحرقة القلب العربية من أعمامه، فكان كلما يتلو القرآن يبكي فيُبكي المستمعين، وحينما كان ينشد القصائد كان يصور سوق عكاظ تصويراً حياً، وكان يتميز بتذوقه في التوحيد، ودرس هذا الموضوع فأحسن وأجاد وفتح القلب للتوحيد، ولم أزل أحتفظ بتلك النعمة منذ ذلك الحين وأشكر الله على هذه النعمة، وقد نقشت آية: ﴿ألا لله الدين الخلص﴾ في القلب، وإنّ الحيل والدعاوى التي تقدمها فلسفة نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول: ﴿وما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ لا تزيد عن نسج العنكبوت.

والأدب العربي منذ وقت قريب في جامعة لكهنؤ، وكان مُحبَّباً مكرَّماً لدىٰ الطلاب وكبار الأساتذة في الجامعة، بفضل ما كان يتَّصف به من خلق عربي نبيل، وحلاوة الحديث، وخفة الروح، والذكاء والفطنة، وحضور البديهة، والبساطة في العيش وعدم التكلف، وما إلى ذلك من أخلاق وصفات كريمة.

وكان حضوره في المحافل والمجالس يزيدها رونقاً وبهاءاً في كثير من المناسبات، ولذلك كان ينال من محبيه وإخوانه حباً وإكراماً وتقديراً لأخلاقه، سواء في قصور الطبقة الارستقراطية التي كان يتردَّدُ إليها لتدريس اللغة العربية ونشر العقائد الإسلامية الصحيحة، أو في مسجد الحي، وكان يصلي بالناس فيه، ويعظهم ويوجههم توجيهاً دينياً في أغلب الأحيان، وفي المجالس العلمية بدار العلوم ندوة العلماء التي كان يحضر في أهم مناسباتها بصفته أحد أفراد أسرتها، لأنه درس في دار العلوم وتخرَّج فيها.

ويراه الناس ماشياً على الأقدام إلى جامعة لكهنؤ، في أغلب الأحيان، وكان يمشي بخطى سريعة، ولكن بسكينة ووقار، وكان مُحَيَّاه يشبه العرب اليمنيين، كان أسمرَ اللون، حادَّ البصر، واسع العينين، عريضَ الجبهة، تنمُّ عن حدة الذكاء وعلوّ الهمة، وكان ربعاً من الرجال، ضارباً إلى القصر، يضع منديلاً على طريقة العرب على رأسه يلفُّه كأهل اليمن، وكان لباسه يجمع بين الطراز العربي والهندي، ينتهي من الحصص الدراسية في الجامعة في الساعة الثانية ظهراً على وجه التقريب، وكان يدرس طلبة البكالوريس والماجستير بصفة عامة، وكان رئيسُ قسم اللغة العربية والفارسية في الجامعة إما من تلاميذه أو من الذين كانوا يستفيدون منه بوجه عام، وكان أساتذة الأقسام المختلفة ورؤساؤها من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم العلوم الطبيعية وما إلى ذلك، يحترمونه ويعترفون بفضله كأستاذ ماهر، وأديب ممتاز، وإنسان كامل، ومسلم صادق.

وكان عضواً من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة التي كانت تضم لفيفاً من الأساتذة الإنجليز، والذين كانوا من بنغال ومَدْراس، بفضل ما كان يمتاز به من

بساطة في العيش، وتفوق في اللغة والأدب، وكبر النفس والإباء، ودماثة الخلق.

وكان ــ قبل موعده في الجامعة وبعد انصرافه منها ــ يدرس في بيته من كان يأتي إليه للاستفادة من طلاب الجامعة، والمدرسة النظامية في فرنكي محل، ودار العلوم ندوة العلماء، وكان منهم من كان يدرس في هذه المدرسة غير النظامية، التي كان قد أنشأها في منزله، وقد أثمرت مهارته في التدريس ومؤهلاته العلمية وجهوده التي بذلها في هذه المدرسة ثماراً يانعة.

وبفضل هذه المدرسة التي لم تُعرف باسم ولا لافتة، ولم يكن فيها دفتر للتسجيل، ونظام للامتحان، والتي كانت لا تمنح الشهادات والألقاب للمتخرجين، انتشرت اللغة العربية في الهند، كلغةٍ حيةٍ للكتابة والنطق بها، ونشأ الذوق الأدبي السليم، وكانت بداية للعهد الجديد لتعليم اللغة العربية كأداة للكتابة والإنشاء، والذي امتد حتى بلغ أوجَهُ من الرقي والازدهار، وكانت منجبةً منتجةً في مجال الكتابة الإسلامية، وتعليم اللغة العربية ونشرها وتسهيلها وتحبيبها إلى النفوس.

ويبدو أن وظيفة الشيخ خليل في الجامعة كانت وسيلة قد هيأها الله ــ سبحانه وتعالى ــ للخير الكثير، فقد كان يشتغل بالتدريس في (داكا) (بنغله ديش) منذ مدة طويلة، وساقه القدر إلى لكهنؤ، ليقوم بإنشاء طليعة في الهند تضطلع بمهمة تدريس اللغة العربية، لغة القرآن الكريم بطريقة أفضل وأنفع، وتخريج شباب يرفعون علم الدعوة الإسلامية في الأقطار العربية الإسلامية.

ولكن الشيخ خليل لم يكن غريباً في الهند، وإن كان من مواليد أسرة عربية صميمة ولكنه ولد ببوفال، وكان جده العلّامة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري، وهو الذي قدم أولاً من حديدة اليمن إلى بوفال، وذلك في أيام (سكندر بيكم) سنة (١٨٦٢م)، وأقام ببوفال سنتين، ثم رجع إلى وطنه، وقدم مرةً ثانيةً في أيام شاه جهان بيكم، ورجع إلى وطنه بعد أربع سنوات، وكان ذلك في عهد العالم الهندي الجليل والمؤلف الكبير الأمير السيد صديق

حسن خان، الذي كان عالماً ضليعاً بصيراً بخصائص الرجال مقدّراً لهم، وكان قد لقي الشيخ حسين بن محسن أثناء إقامته بالحجاز، وتأثّر به كثيراً، بما رأى فيه من الذكاء النادر، والذاكرة القوية، والقدرة الفائقة على تدريس الحديث الشريف، والاطلاع الواسع على علوم الحديث، ثم لأنَّ إسناده في الحديث إسناد قليل الوسائط، وهو يعتبر ميزة يفتخر بها علماء الحديث، وأعجب به إعجاباً كبيراً، وأخذ منه إجازة في الحديث، واستدعاه إلى بوفال.

قدم الشيخ حسين محسن بوفال سنة (١٨٧٩م)، وتديّرها، وكان إماماً في فن الحديث، ومثالاً رائعاً للمحدثين القدامى، الذين تتحدث كتب السير والتراجم عن حفظهم وسعة اطلاعهم ممّا يبعث على العجب، وانتهت إليه رئاسة تدريس الحديث في الهند.

قال أستاذي الشيخ حيدر حسن خان، أستاذ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء: (إنه كان يكاد يحفظ ١٣ مجلداً لفتح الباري «شرح البخاري»، وكان تلميذاً للعلامة أحمد نجل المؤلف الشهير صاحب «نيل الأوطار» العلّامة القاضي محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ)، وغيره من علماء اليمن المشهورين، وكان يفتخر كبار الأساتذة وجهابذة فن الحديث، أصحاب المؤلفات القيمة الذين تلاميذهم يعدون بالمئات، بالانتساب إلى زمرة تلاميذه، ويجدر منهم بالذكر الأمير السيد صديق حسن خان، والشيخ محمد بشير السهسواني، والشيخ شمس الحق الديانوي صاحب «غاية المقصود» و «عون المعبود»، والحافظ عبد الله الغازي بوري، والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي البهاري، والنواب وقار نواز جنك، والشيخ وحيد الزمان الحيدر آبادي، والشيخ محمد طيب المكي الرامبوري، والشيخ محمود حسن خان التونكي، صاحب «معجم المصنفين»، والشيخ حيدر حسن خان التونكي، والنواب صدر يار جنك حبيب الرحمن الشيرواني، ووالدي العلّامة السيد عبد الحيّ الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق.

وكانت إقامة الشيخ حسين بن محسن في (بوفال) قد جعلتها مدرسة للحديث تضاهي شيراز واليمن، وظل (موتى مسجد) ببوفال مثل الأزهر الشريف، يدوي بصوت «قال: قال رسول الله ﷺ» أكثر من ثلاثين سنة، وانتشر عبيره في أنحاء الهند المختلفة، ولبىٰ هذا الإمام الكبير نداءَ ربه ـ عزّ وجلّ ـ في عام (١٣٢٧هـ).

وكانت قد سكنت ـ آنذاك ـ أسرته، وأسرة أخيه القاضي زين العابدين في مدينة (بوفال)، وكان نجله الأكبر الشيخ محمد بن حسين الذي رافق أباه وهو شاب من اليمن إلى بوفال، عالماً كبيراً ومدرساً صاحب مؤلفات عديدة وله ميل شديد إلى الأدب والشعر، وكان بصيراً بفن العروض والقوافي، كاتباً أديباً، وشاعراً قديراً، وظل مشتغلاً بتدريس الأدب العربي مدةً طويلة في دار العلوم ندوة العلماء، كما شغل منصب شيخ الحديث فيها مدةً من الزمن، وقد سعد كاتب هذه السطور بلقائه.

كان عربياً بأخلاقه وأوصافه، إذا نطق باللغة الأردية، يغلب عليها طابع العربية، وكان صبيحَ الوجه، بهيجَ الطلعة، قصير القامة، كثيرَ العيال، وله عدة زوجات، من أبنائه الشيخ خليل بن محمد، والشيخ عبد الرحمن، والشيخ حبيب الرحمن، والشيخ عبيد بن محمد أستاذ الكلية الحميدية ببوفال، والذي نال شهادة فخرية لخدمة اللغة العربية من رئيس جمهورية الهند، والذي توفي قبل عدة سنوات، وأخي وزميلي الشيخ حسين بن محمد، وأخواه الأصغران: محسن وحسن.

ولد الشيخ خليل بن محمد في هذه الأسرة العربية ومدرسة الحديث سنة (١٣٠٤هـ)، وكانت أمه (رقية) كريمة عم والده القاضي زين العابدين، الذي توطَّن في (بوفال)، حيث شغل منصب القضاء زمناً طويلاً، وتلقى الشيخ خليل التعليم الابتدائي من علماء بوفال وأبيه، وكانت بوفال آنذاك

مركزاً للعلماء المتبحّرين، وأساتذة الفنون المختلفة، ثم قدم لكهنؤ مع أبيه الشيخ محمد الذي عُيِّن أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء، وأقام في لكهنؤ، ودَرَس هنا على أساتذة دار العلوم الأفاضل ونال شهادةً منها.

وكان الشيخ السيد أمير علي المليح آبادي صاحب تفسير «مواهب الرحمن» وغيره من مؤلفات أخرى كثيرة، عميد دار العلوم وأستاذ الحديث الكبير فيها، فانتظم الشيخ خليل في حلقة تلاميذه، وظل يدرس ويستفيد منه حتى برع في العلوم، وكان مثالاً للطلبة البارعين الذين كانوا يتخرجون على الأساتذة المتبحرين في الزمن القديم.

وكان السيد أمير علي محدثاً كبيراً، وعالماً خبيراً واسع الاطلاع على أسماء الرجال، وكاتباً مثابراً ذا همة عالية[1]، وكانت له صلة وثيقة بالشيخ خليل، فزوّج السيد أمير علي بنته منه، وأظن أن الشيخ خليل قام بالتدريس في دار العلوم ندوة العلماء مدةً من الزمن، وكان يحمل شهادة دار العلوم فقط.

ولكن ما امتاز به الشيخ خليل عن غيره من الأساتذة، واكتسب به شهرةً ومكانةً عاليةً أينما حلَّ وسار، هو ذوقه الفطري للغة والأدب، وملكته الفطرية للتدريس، وجهده المتواصل، والبحث والعناء الذي كان يتحمله والذي تُحدثنا عنه صفحات التاريخ، وقلَّما نرى أمثاله في المؤسسات التعليمية ومراكز التربية والتعليم اليوم، زد إلى ذلك عطفه وحبه لتلاميذه كعطف الآباء على الأبناء، وحب الأمهات للأولاد، وصلاحيته المنقطعة النظير لنقل ما لديه

---

(١) ترجم عدداً من المجلدات الكبيرة لكتب الفقه والحديث، منها ترجمة «فتح الباري» التي لم تطبع بعد، وقد طبعت له مؤلفات وترجمات عديدة، ونالت شعبية وقبولاً في الأوساط العلمية.

من علوم ومعارف وذوق وبصيرة إلى الطلاب، وقدرته الفائقة التي قلَّما تحصل لأحد على تنمية الذوق السليم فيهم، وتحبيب الكتاب الذي كان يدرسه إليهم، حتى ينشأ فيهم حب للموضوع وتقدير للمؤلف.

وهذه الكفاءة لا تكتسب بالجهد والعناء، وإنما هي موهبةٌ من الله سبحانه وتعالىٰ، يُكرم بها من يقدر له أن يقوم بخدمة جليلة، وهؤلاء هم الذين يغيّرون مجرى التاريخ، وينفخون في المناهج الدراسية العقيمة روحاً جديدة ونشاطاً جديداً، وهم الذين يرزقون هذه الملكة في التدريس، وصلاحية الإنتاج والعطاء وإنشاء الذوق في الطلاب.

وأنا سعيدٌ ــ والحمد لله ــ بأن وُفِّقت للاستفادة من الأساتذة البارعين، ولا أزال مَديناً لفضلهم ومعترفاً بجميلهم.

ولكن هذا الذوق السليم للغة العربية، والأدب العربي، وهذه القدرة الفائقة على نقله إلى لغة أخرى، مما كان يمتاز به الشيخ خليل، لا نجد لهما أثراً في الأوساط العلمية والأدبية الكبيرة في البلاد العربية، فضلاً عن الهند التي حُرِمت هذا الذوق الرفيع ونظام التعليم القويم منذ أمد بعيد.

ولما حان أوان دراستي للغة العربية سلَّمني أخي الكبير ومربيّ الجليل الدكتور السيد عبد العلي الحسني ــ رحمه الله تعالى ــ إلى الشيخ خليل الذي كان صديقاً له وجاراً، وكانت أسرة الشيخ خليل قد دَرَّست جيلين من أبناء أسرتي، وكنت أنا من الجيل الثالث، وكان أبي قد تخرّج في الحديث على الشيخ حسين بن محسن، وكان من أخصِّ وأحبِّ تلاميذه إليه، قد ألّف الشيخ حسين بعض الرسائل التي أحتفظ بها حتى الآن خاصةً لأبي، ودَرَس الأدب العربي على نجله الشيخ محمد بن حسين.

وقد آن أواني، وكان لي حق على الشيخ خليل، وكان له عليَّ حق،

ذلك الحق الذي توارثته أسرتي وأسرته منذ ثلاثة أجيال، وكان يعرف ذلك كالعلماء الأقدمين الكرام.

وأعتقد أنه كان عام (١٩٢٦م) إذ بدأت أتعلم اللغة العربية منه في منزله الذي كان يسكن فيه، كتبَ الدرس الابتدائي في الصرف على دفتر وكلفني حفظه، وكنت أنا طالباً وحيداً في هذا الصف، وبعد أيام قليلة بدأ يدرسني «المطالعة العربية» وكان اسمها الحقيقي «المطالعة المصرية»، وكانت تدرس في المدارس الابتدائية في (بنغال)، وكان الشيخ خليل معجباً أشد الإعجاب بهذا الكتاب، لِمَا كان يمتاز به من سهولة اللغة وسلاسة الأسلوب، والحوار الممتع والترتيب الفني الأنيق، وظهرت له طبعات عديدة، ونال قبولاً واسعاً في المدارس الإسلامية، وذلك بفضل ما بذله الشيخ خليل من جهد وعناية في نشر هذا الكتاب.

وما هي إلّا أيام قلائل حتى وجدت زميلاً عزيزاً التحق بصفي وهو حسين بن محمد أخو الشيخ خليل الأصغر، الذي بدأ يدرس اللغة العربية قبلي بمدة قصيرة، وكنا نحن الاثنين في الصف، وقد ركَّز الأستاذ جُلَّ عنايته علينا، فإذا كان حسين أخاه يتصل به بصلة العرق والدم، فكنت أنا ابنه الروحي بسبب ما كان له من صلةٍ متينة بأسرتي منذ زمن بعيد، والعلاقة العلمية الروحية التي كانت تربطني به منذ مدة طويلة.

مضت أيام كثيرة، وأتذكّر أني لم تأخذني سآمة ولا ضجر من درسه قط، لأنَّ حديثه الممتع، وفكاهته الحلوة المشجعة، ودعابته وخفة روحه قد أزالت عني غربة اللغة الأجنبية وصعوبة الكتب الدراسية.

لم يسافر الشيخ إلى خارج الهند، وإن سافر فإنه لم يتجاوز ــ فيما أظن ــ اليمن، وبعض المناطق المختلفة في الخليج العربي، ولذلك كان قليل الاطلاع على ما حَدَث في مصر والشام من تطورات وتجارب جديدة في مجال تدريس اللغة العربية وأصولها ومبادئها.

وكانت الجرائد والمجلات العربية والكتب العربية الجديدة لا تصل إلى الهند، ولكنه كان على الرغم من ذلك كله، سليمَ الفكر، محباً للتجديد والاختراع، واقعياً، وإن كانت دراسته حسب النظام القديم، ولكنه كان لا يحب تدريس كتاب مقرر في مناهج التعليم القديمة أُلِّف في عصر الانحطاط بالنسبة للغة العربية، سوى بعض كتب اللغة العربية القديمة الأصيلة، وقد حفظت قسطاً كبيراً من نماذج النثر التي كان يشتمل عليها مجموعات من النثر العربي، وبقيت آثارُها عالقةً بذهني، واعتملت في تكوين ذوقي وامتزجت بكياني، واصطبغت بها كتابتي.

وكانت ميزة الشيخ خليل أنه كان يتلذَّذ بالألفاظ والتعابير الرائعة، ويبدي لنا ما يشعر به من لذة وحلاوة، حتى كانت تلك الكلمات والتعابير ترتسم في ذهننا، وتترسخ في ذاكرتنا، وكنا نظن أنَّ الالتذاذَ بها والشعور بأهميتها مما لا بد منه.

وميزته الثانية أنه كان يخلق فينا الشعور بأن هذه الثروة اللغوية ليست ملكاً لأحد ولا هي كنز لا تصل إليه يد تلميذ متأخر زمانه، وإنما هي ملك مُشَاع يمتلكه كل من يقدر على استخدامه على وجه صحيح مناسب، وربما كان يبدي سرورَه وإعجابه بتعبير جميل أو مثل سائر، أو جملة نكتبها صحيحة على دفتر الإنشاء، كأننا قمنا بعمل جليل يستحق التقدير والإعجاب، وكان يمنحنا جائزة في بعض الأحيان.

وعلى هذا المنوال كنا نأخذ الدروس باستمرار في اللغة العربية، وكنا لم نشعر بأهمية وقيمة المنهج الذي كان يتبعه الشيخ خليل في التدريس، ولكني أحسستُ فيما بعد أنه منهج مفضل مبنيٌّ على التجارب العلمية الطويلة، ويسفر عن نجاح كبير لا يحصل بطريقة أخرى، فإنه كان لا يخلط بين لغتين، بل ومادتين مختلفتين في التعليم في وقت واحد، فمنذ بداية

دراستنا للغة العربية والأدب العربي حتى سنتين، عكفنا على دراسة اللغة بما فيها قواعد النحو والصرف، وعلىٰ الأدب مع ممارسة الكتابة والإنشاء، وكان ذلك نهاية أملنا ورأس مالنا.

وكان اكتساب المهارة والبراعة والتفوق في هذه الدراسة أكبر نجاح وأسمى شرف لنا، فكانت النتيجة أن تركزت جل عنايتنا ومحاولاتنا على إحراز النجاح والتقدم في هذا الموضوع، وكنا نتكلم عنده بالعربية ونفكّر فيها ونكتب بها، وكانت هذه هي الدنيا التي نعيش فيها.

وحينما سافرت إلى مصر سنة (١٩٥١م)، سألني العلّامة الشيخ محمود شلتوت الذي كان يشغل منصباً كبيراً في الأزهر، والذي تولىٰ فيما بعد منصب شيخ الأزهر ونال شهرة عالمية، عن تاريخ دراستي، وكان يريد أن يعرف كيف درست في بلد أعجمي بعيد عن مركز العروبة حتى وصلت إلى درجة أني تمكنت من تحقيق أهدافي العلمية والدينية، فلما أخبرته عن أسلوب الشيخ خليل الذي كان يتخذه لتعليمنا، وذكرت له أني كنت آخذ مادة واحدة وموضوعاً واحداً للدراسة في وقت واحد، وبذا فكنت في مأمن من كثرة المواد واختلاط الدروس المختلفة، الأمر الذي يشاهد في جميع المدارس والمعاهد التعليمية، سواء أكانت قديمة أو جديدة، هتف قائلاً بعاطفة وحماس: هذا هو المنهج المفضَّل للتعليم.

وبعد انتهاء كتب الأدب المتوسطة تغلب على الشيخ خليل ذوقه الديني، فجعل يدرسنا بعض الأجزاء من القرآن الكريم التي تتناول بصفة خاصة موضوع التوحيد، والتي تركّز بكل قوة ووضوح على هذا الموضوع، فقرأنا سورة الزمر وما بعدها من سور عديدة، مع دراسة كتاب «المغازي» من صحيح مسلم، وكان له شغف زائد بهذا الموضوع الذي كان يلائم ذوقه، وما عدا هذين الدرسين كنا نقرأ كتب اللغة العربية والأدب العربي في النثر،

لأنه وسيلة طبيعية للتعبير، أكثر ملاءمة للمواضيع العلمية والفكرية، وأما النظم، فنطاقه محدود بالنسبة للنثر، وقرأنا عليه في النظم «حماسة أبي تمام»، و «لامية العرب» للشنفري، وقصيدة «بانت سعادة، و «سقط الزند» لأبي العلاء المعري، وبجانب هذه الدواوين الشعرية درسنا خلاصة لتاريخ آداب اللغة العربية.

وكان للشيخ خليل ولعٌ كبير بكتاب «نهج البلاغة» وخاصة رسائله، لأنَّ الخطب التي تُنسب إلى سيدنا علي، رضي الله عنه، يغلب عليها التكلف، وأضيف إليها شيء كثير مما ليس من كلام سيدنا علي، رضي الله عنه، وأما الرسائل فهي نموذج عالٍ لأساليب البيان، وأفانين القول في النثر الفني، ولم تكن «مقامات الحريري» من الكتب المفضلة لديه، فكان لا يعجبه أسلوبها المنمق الملتزم بالسجع والقافية، ولكنه درَّسنا عشرين مقامة منها نظراً لما تحمله من ثروة لغوية، وكان يوصينا بمطالعة شرحها القيم للشريسي، وكان مأخوذاً بجمال أسلوب إمام العربية عبد القاهر الجرجاني، وذوقه العربي الخالص، ودقة نظره، ونفاذ بصيرته، وكان يكيل له المدح، ويجزل عليه الثناء، وكان كتابه «دلائل الإعجاز» من أحب الكتب لديه، وأهمها، فكان يدرِّسه بشغف كبير، يطرب لبيت من الشعر، أبدىٰ المؤلف إعجابه به، تترنح أعطافه كلما قرأه ويعيده مراراً، ويتذوقه ويلتذُّ به حسياً كأنه أكل طعاماً لذيذاً، معترفاً للبحتري بما يتصف به شعره من بين الشعراء الآخرين من النغم الموسيقي، وجزالة اللفظ، وحلاوة الجرس والطابع العربي الخالص، ومعجباً بما يمتاز به المتنبي من دقة الخيال وابتكار المعاني الجديدة.

وكان يحفظ مئات من الأبيات، ويقرض شعراً رائعاً بليغاً، يحاكي فيه بعض فحول الشعراء، وعندما كان يقرأ شعر «الحماسة» أو بعض قصائد البحتري، كانت تتمثل أمامنا سوق عكاظ، فكنَّا نحسُّ كيف كان يؤثِّر الشعر

كالسحر في نفوس العرب، ويقرر مصير القبائل، ويغير مقاييس الكرم والشرف والذلة والمهانة، فيرفع البعض ويضع البعض، وكان العربي يطرب لسماعه ويتواجد، ويبدو الشيخ خليل صورة حية لمعاني الشعر وأثره، كأنَّ الشعر قد امتزج بلحمه ودمه فينبثق نغمه وموسيقاه من كل شعرة من جسده.

وكان له شغف زائد بتعليمنا، فكان التدريس هو غاية أمله، وعملاً يلائم طبيعته وذوقه، وكانت تبدو عليه ملامح السرور حينما كان يدرسنا، وكان لا يعفينا من الدرس ما عدا يوم الجمعة، ولا أدري كيف رَضِيَ بعطلة يوم الجمعة، ولا أتذكر إلاّ عطلة يوم غير الجمعة.

كان الشيخ خليل يعود من الجامعة مجهوداً مكدوداً يتصبَّب عرقاً، وما كاد يصل إلى البيت ـ وكان أحد شبابيك بيته يطل على واجهة منزلنا القديم ـ حتى يناديني بأعلى صوته وهو قائم على الشباك، وما لنا إلاّ أن نلبي نداءه، وكثيراً ما حدث أنه ذهب إلى عليكره أو غيرها من المدن لحضور مؤتمر أو لجنة اختبار أو اختيار، وعاد من سفره قبيل وقت الدرس، وكنّا متأكدين بأننا لا ندرس اليوم، إذا بصوته يرتفع وهو ينادينا لقراءة الدرس لأنَّ الدرس كان غذاءاً يقوي روحه، ولا يقرُّ له قرار بدونه.

كان الشيخ خليل يمنياً أصلاً ونسباً، وأغلب ظني أنَّ أسرته سكنت اليمن منذ هاجر الجيل الثاني أو الثالث من أسرة سيدنا سعد بن عبادة، رضي الله عنه، من المدينة المنوّرة إلى اليمن، وقد نطق لسان النبوة ـ على صاحبها ألف ألف تحية ـ يشهد لفضل أهل اليمن، فيقول:

(أتاكم أهل اليمن أرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوباً، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية).

وحدثني هو نفسه أنَّ بعض كبار المحامين والمثقفين ثقافةً عاليةً، وكان

معظمهم من الهنادك، أنشأوا جمعية في لكهنؤ، مهمتها تقديمَ نماذج للتعاليم الخلقية التي تتبناها الأديان المختلفة، وقد دعوا بإحدى المناسبات الشيخ خليل لتقديم نموذج تعاليم الإسلام الخلقية، فتناول الآيات الأخيرة من سورة الفرقان ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشونَ على الأرض هَوناً﴾، وقرأها بلهجته العربية الخالصة، فسالت الدموع من أعين العديد من المستمعين بمجرد سماع هذه الآيات، وهو لم يترجمها بعد، وكانت له لهجةٌ خاصة تعتمل فيها عواطفه الداخلية أكثر من قواعد التجويد، وكان من الصعب أن يسمع أحدٌ آي الذكر الحكيم يتلوها، ثم يتمالك نفسه، لا يتأثر بها ولا يرقّ لها قلبه.

كان الشيخ خليل شغوفاً بنشر الدعوة الإسلامية في غير المسلمين، فدامت هذه المهمة تشغل باله مدىٰ الحياة، وأيام إقامته في لكهنؤ كان يتحيّن الفرصة لعرض السيرة النبوية ــ على صاحبها ألفُ ألفِ تحية وسلام ــ وتعاليم الإسلام على أصدقائه والمتصلين به من أساتذة الجامعة وطلابها، وبخاصة كان يحنُّ إلى عرض تعاليم الإسلام السامية من الأخوة والمساواة والعدل وما إلى ذلك، على الشعوب المتخلّفة والمنبوذين، فكان لا يتحاشىٰ من مخالطتهم ومؤاكلتهم فحسب، بل وكان يدعو الآخرين إلى أن يحذوا حذوه، ويسيروا سيرته، في ذلك.

كان عام (١٩٣٥م)، فيما ــ أظن ــ إذ أعلن الدكتور أمبيدكر[١] أنه يبحث عن دين حق يعتنقه هو وشعبه، وسيتّخذ خطوة إيجابية بصدد قبول دين يرتضيه، فاضطرب لذلك الشيخ خليل كثيراً، وكلّفني هو وأخي الذي كان يشاركه في هذا الذوق فظل مهتماً دائماً بالقيام بمهمة الدعوة في غير المسلمين، أن أحمل بعض الكتب الإنجليزية الدعوية، وترجمة إنجليزية لمعاني القرآن الكريم إلى الدكتور أمبيدكر، فامتثلت أمرهما، وذهبت إلى

---

(١) كان حقوقياً مرموقاً، وهو الذي وضع دستور الجمهورية الهندية الحرة، ولا يزال مطبقاً حتى الآن.

بومبائي لألقاه، وأعرضَ عليه الكتب.

وقد أوصاني الشيخ خليل بسرية إذ همس في أذني: أنه إذا حال دون قبوله للإسلام أمرُ سماح المسلمين بعقد رابطة المصاهرة بينهم وبين من يسلم جديداً من شعبه، فاقبل منه هذا الأمر نيابةً عني، وقال ذلك بلهجة ملؤها الرقة والانفعال.

وبعد استقالته من وظيفة جامعة لكهنؤ انتقل إلى وطنه (بوفال)، وظل هناك عضواً عاملاً في مجلس العلماء مدة طويلة، ومربياً لابن وليةِ العهد في إمارة (بوفال).

وانتقل إلى كراتشي بعد تقسيم البلاد، حيث ظل مشغوفاً بنشر اللغة العربية، والعقائد الإسلامية الصافية، وخاصة التوحيد والسنّة، وازداد اشتغاله بالحديث أخيراً، وتلقيت برقية من كراتشي، بأنه انتقل إلى جوار رحمة ربه ـ عزّ وجلّ ـ، وذلك في يوم الجمعة (٢٦ أغسطس ١٩٦٦م)، وصلى عليه جمع محتشد من الناس بعد صلاة الجمعة، ودفن هذا الرجل العظيم في ناحية من نواحي كراتشي، غفر الله له وأعلى درجاته.

وأختم هذا المقال بما جاء في «نزهة الخواطر» في ترجمة حياته:

(وله اشتغال بالعلوم، ومهارة في التدريس، ونجابة كاملة، وذهن وقّاد، وفكر نقّاد، إلى إدراك الحقائق منقاد، وكان رقيقَ الذوق، أبيَّ النفس، كريمَ الأخلاق، له قدم راسخةٌ في علوم البلاغة، وآداب اللغة العربية، وطبع أصيل في الشعر والأدب، يعرف جيده من رديه وصحيحه من سقيمه، كان إذا أنشد شعراً حسناً من أشعار الأوائل، جاشت نفسه وترنحت عواطفه، وعلا صوته، فكأنّك (بعكاظ) أو (ذي المِجَنّة).

كان مربوعاً من الرجال، مائلاً إلى القِصَر، شديدَ السمرة، عريضَ الجبهة، واسعَ العينين، سريعَ الخطى، جَهْوري الصوت واضح النبرات).

* * *

الإمام الشهيد حسن البنّا

كفى برهاناً على خلود الإسلام، وعلى أنه دين الله المختار، الذي جاء ليعيش إلى آخر الزمن، وعلى خلود هذه الأمة، وعلى أنها هي الأمة الأخيرة، وعلى أنها منْجِبة منتجة، مورقةٌ مزهرة، وعلىٰ أنها كنانة الله التي لا تنفد سهامها، ولا تخطىء مرامها، كفىٰ برهاناً على كل ذلك وجود هؤلاء المصلحين والمجاهدين، والعباقرة والنوابغ، والموهوبين والمؤيّدين والمربين، وقادة الإصلاح الموفقين، الذين ظهروا ونبغوا في أحوال غير مساعِدة، وفي أجواء غير موافِقة، بل في أزمنة مظلمةٍ حالكة، وفي بيئات قاتلة فاتكة، وفي شعب أصيب بشلل الفكر، وخواء الروح، وخمود العاطفة، وضعف الإرادة، وخور العزيمة، وسقوط الهمة، ورخاوة الجسم، ورقة العيش، وفساد الأخلاق، والإخلاد إلى الراحة، والخضوع للقوة، واليأس من الإصلاح، وأصبح الجيل المعاصر كله كأنه طبعة واحدة من كتاب واحد خرجت من مطبعة متقنة لا تختلف نسخها وصحائفها، فحسبك أن تقرأ كتاباً وتقيس عليه الباقي، فلا تنوّع ولا اختلاف، ولا طموحَ ولا استشراف، ولا قلق ولا اضطراب، ولا تفرد ولا شذوذ، ولا جدة ولا طرافة، ولا شيء غير المعتاد، ولا شيء فوق المستوى.

وأصبحت الحياة قطاراً موحداً تجرُّه قاطرة واحدة، هي قاطرة المادة والمعدة، أو قاطرة الغرض والمصلحة، أو قاطرة اللذة والمنفعة، أو قاطرة

القوة والغلبة، ويدل كل شيء على أنَّ هـذه الحياة قصـة واحدة، أو مسـرحية قـد أُحكم وضعها وإخـراجها، ويعـاد تمثيلها على مسـرح الإنسانيـة، أو على مسـرح التاريـخ الإسـلامي، ويلعب كل بـطل من أبـطال هـذه الـروايـة دوره الخاص الذي أسند إليه بكـل مهارة ولبـاقة، ثم تنتهي هـذه القصة في تصفيق المعجَبين ودموع المتألّمين.

وبينمـا يواصـل هذا الـركب سيـره، وهـذا القـطار سفـره، في غـايـاتٍ محدودة ومنازلَ معروفة، وأصواتٍ مألوفة ونغمـاتٍ مكررة، إذا بشخصيـة تقفز من وراء الأستار أو من ركام الأنقاض والآثار، وتفـاجىءُ هذا الـركب الهادىء الوادع الذي لا يعرف غير الوصول إلى غـايته المـرسومـة المحدودة، ولا يهتم إلّا بقوت اليوم وزاد الطريق وأمن السبيل وراحة الأبدان، تفاجئه بـالدعـوة إلى الإصلاح، والحاجة إلى استئناف النظر، والتفكير في الأوضاع العامة، ومصير الإنسـانيـة، ومسؤوليـة الأمـة التي أخـرجت للنـاس، والثـورة على الأوضـاع الفاسدة، والأخلاق الرذيلة والعقائد الضالة والعادات الجاهلية، وعبادة البطون والشهوات، وعبودية القوة والسلطات، ويدعو إلى حيـاة كريمـة فاضلة، وإلى مدنية سليمة صالحة، وإلى مجتمـع رشيد عـادل، وإلى إيمان عميق جـديد، وإلى إسلام قويٍّ حـاكم، ويرفـع بكـل ذلك صـوتاً مـدوّياً عـالياً يضـطرب به الركب، وتهتزُّ به مشاعره وعواطفـه وقيمُهُ ومفـاهيمُه، ولا يستـطيـع أن يتغافـل عنه أو يتجاهله أو يستخف به ويستمر في سيره، غير مقبل عليه أو ملتفت إليه، بل يخضـع له عددٌ كبير من أعضـائه فينشقـون عنه ويلتحقـون بهذا الـداعية، فيجعل منهم ركباً جديداً يثق بنصر الله، ويسير على بركة الله.

إنَّ لهؤلاء الثائرين والدعاة المصلحين قائمةً مُشْرِقةً مُشَرِّفة، يتجمَّـل بها تـاريـخ الإصلاح والـدعوة، ولا يخلو منهم زمـان ومكـان، وقـد كـان الشيـخ حسن البنّا، من هذه الشخصيات التي هيَّـأها الله بقـدرتـه، وصنعتها التـربية الـربانيـة، وأبرزتهـا في أوانها ومكـانها، وإنَّ كـل من يقرأ كتـابه: «مـذكرات

الدعوة والداعية»، وهو سليمُ الصدر، مجرَّدُ الفكرة، بعيدُ عن العصبية والمكابرة، يقتنع بأنه رجل موهوب مهيأ ليس من سوانح الرجال، ولا صنيعة بيئة أو مدرسة، ولا صنيعة تاريخ أو تقليد، ولا صنيعة اجتهاد أو محاولة وتكلّف، ولا صنيعة تجربة وممارسة، وإنما هو من صنائع التوفيق والحكمة الإلهية والعناية بهذا الدين وبهذه الأمة، وبالغرس الكريم الذي يهيأ لأمر عظيم ولعمل عظيم في زمن تشتد إليه حاجته، وفي بيئة تعظم فيها قيمته.

إنَّ الذي عَرَف الشرق العربيَّ الإسلاميَّ في فجر القرن العشرين، وعرف مصر بصفة خاصة، وعرف ما أصيب به هذا الجزء الحسَّاس من جسم العالم الإسلامي من ضعف في العقيدة والعاطفة، والأخلاق والاجتماع، والإرادة والعزم، والقلب والجسم، وعرفَ الرواسبَ التي تركها حكم المماليك وحكم الأتراك وحكم الأسرة الخديوية، وما جرَّ عليها الحكم الأجنبي الإنكليزي، وما جلبته المدنية الإفرنجية والمادية والتعليم العصري اللاديني، والسياسة الحزبية والنفعية، وزاد هذا الطين بِلَّةً ضعف العلماء وخضوعهم للمادة والسلطة، وتنازل أكثرهم عن منصب الإمامة والتوجيه، وانسحابهم عن ميدان الدعوة والإرشاد، والكفاح والجهاد، واستسلامهم للأمر الواقع، وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، زد إلى ذلك كله نشاط دعاة الفساد والهدم، والخلاعة والمجون، والإلحاد والزندقة، وتزعّم الصحف، والمجلات الواسعة الانتشار، والقوية التأثير للدعوات المفسدة، والحركات الهدامة، والاستخفاف بالدين وقيمه، والأخلاق وأسسها، كذلك ما آل إليه الأمر ووصلت إليه الأقطار العربية بصفة عامة، والقطر المصري بصفة خاصة، من التبذل والإسفاف، والضعف والانحطاط والثورة والفوضى، والانهيار الخلقي والروحي في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي، ورأى كل ذلك مجسَّماً مصوَّراً في أعداد «الأهرام»، و «المقطَّم» و «الهلال» و «المصوِّر»، وفي كتب كان يصدرها أدباء مصر وكتابها المفضَّلون المحببون

عنـد الشباب، ورأى ذلـك مجسَّمـاً مصـوَّراً في أعيـاد مصـر ومهـرجـانـاتهـا، وحفلاتها وسهراتها، واستمـع إلى الشبـاب الجامعي في نـواديهم ومجالسهم، وزار الإسكندرية وشواطئها ومصـائفها، ورافق الكشـافة والـرياضـة والمباراة، ودخل دور السينما، ورأى الأفلام الأجنبية والمحليـة، واطلـع على الروايـات التي تصدرها المكتبة العربية في مصر بين حين وآخر، ويتهافت عليها الشباب بنهم وجشـع، وعـاش متصلاً بـالحياة والشعب وتتبَّـع الحـوادثَ ولم يعش في برج عاجي، وفي عالم الأحلام والأوهام.

ومن هنـا تبدأ فقـرة تقول: إن من رأى ذلـك كله عـرف رَزِيَّـة الإسـلام والمسلمين، ونكبة الدعوة الإسلامية في هذا الجزء الذي كـان يجب أن يكون زعيماً للعالم العربـي كله، وزعيماً للعالم الإسلامي عن طـريقه، والـذي بقي قروناً كِنانة الإسلام ومصدر العلم والعرفان، وأسعف العـالم العربـي وأنجـده بـل أنقذه في فتـرات دقيقة عصيبـة في التاريـخ الإسـلامي، ولا يزال يحتضن الأزهر الشريف أكبر مركز ثقافي إسلامي وأقدمه.

إنَّ كل من عرف ذلـك عن كثب لا عن كتب وعاش متصـلاً به، عـرف فَضْل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود، وفاجأت مصر ثم العالم العربـي والإسلامي كله بدعـوتها وتـربيتها وجهـادها وقـوتها الفـذّة التي جمـع الله فيها مواهب وطاقات قد تبـدو متناقضـة في عين كثير من علمـاء النفس والأخلاق، ومن المؤرخين والناقدين وهي العقل الهائل النيّر، والفهم المشـرق الواسـع، والعاطفة القوية الجياشة، والقلب المبارك الفيّاض، والروح المشبوبة النَّضِرة، واللسان الذرْب البليـغ، والزهد والقناعة ـ دون عنت ـ في الحيـاة الفرديـة، والحرص وبعد الهمة ـ دونما ملل ـ في سبيل نشر الـدعوة والمبـدأ، والنفس الولوعة الطموح، والهمة السامقة الواثبة، والنظر النافذ البعيد، والإبـاء والغيرة على الـدعوة، والتـواضـع في كل مـا يخص النفس. . . تواضعـاً يكاد يجمـع

على الشهادة عارفوه، شأنه ـ كما حدَّثنا كثير منهم ـ مثل رفيف الضياء، لا ثقل ولا ظل ولا غشاوة.

وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادة دينية اجتماعية، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادةً دينية سياسية أقوى وأعمق تأثيراً منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلامية يندر أن تجد ـ في دنيا العرب خاصة ـ حركةً أوسعَ نطاقاً وأعظمَ نشاطاً وأكبرَ نفوذاً وأعظمَ تغلغلاً في أحشاء المجتمع وأكثرَ استحواذاً على النفوس منها.

وقد تجلَّت عبقرية الداعي ـ مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها ـ في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلا القليل[1] النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين:

أولاهما: شغفه بدعوته وإيمانه واقتناعه بها وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسية للدعاة والقادة الذين يجري الله على أيديهم الخير الكثير.

والناحية الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج، فقد كان منشىء جيل ومربّي شعب، وصاحب مدرسة علمية فكرية خلقية، وقد أثر في ميول من اتصل به من المتعلمين والعاملين، وفي أذواقهم وفي مناهج تفكيرهم، وأساليب بيانهم ولغتهم وخطابتهم، تأثيراً بقي على مر السنين والأحداث، ولا يزال شعاراً وسمة يعرفون بها على اختلاف المكان والزمان.

---

(١) وكان من هذا القليل النادر الشيخ محمد إلياس الدهلوي منشىء دعوة التبليغ وحركتها في الهند، ونجله وخليفته الشيخ محمد يوسف، فقد كانا مثالين فذين في هاتين الناحيتين كلتيهما.

لقد فاتني أن أسعد بلقائه في مصر وفي غير مصر، فقد كان العام الأول الذي كتب الله لي فيه الحج، والزيارة، وخرجت من الهند لأول مرة، هو عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، وهو العام الذي تغيَّب فيه الشهيد عن الحجاز ولم يغادر مصر، وقد كان يحضر الموسم في غالب الأعوام، ويحرص على نشر دعوته والحديث إلى وفود بيت الله الحرام، وعلى السعي المجهد الحثيث في توثيق الصلات والعهود مع الوافدين من أنحاء العالم الإسلامي كله.

بَيْدَ أني قابلت بعض تلاميذه ودعاته، فلمست فيهم آثار القائد العظيم والمربّي الجليل، فلما قُدِّر لي أن أزور مصر سنة ١٣٧٨هـ (١٩٥١م) كانت رحمة الله قد استأثرت به، ولم يجاوز عمره الثانية والأربعين، إثر حادث استشهاده الذي أدمىٰ نفوس ملايين المسلمين وحَرَمَ العالم الإسلامي هذه الشخصية التاريخية الفريدة، ولا أزال أتحسَّر علىٰ هذه الخسارة التي كتبت لي، ولكني اتصلت بتلاميذه اتصالاً وثيقاً، وعشت فيهم كعضو من أعضاء أسرة واحدة، وزرت والده العظيم ــ رحمه الله ــ واستقيت منه معلومات وأخباراً سجّلتها في مذكراتي[1] وقابلت زملاءه وأبناءه، واجتمع لي من كل هذه الآثار والأخبار ملامح الصورة العظيمة لصاحب هذه الدعوة ومؤسِّس هذه المدرسة، وأنا واثق بأنها صورة صادقة مطابقة.

وفي تلك الرحلة حصلت على كتابه «مذكرات الدعوة والداعية» فألفيته كتاباً أساسياً، ومفتاحاً رئيسياً، لفهم دعوته وشخصيته، وفيه يجد القارىء منابعَ قوته ومصادرَ عظمته، وأسبابَ نجاحه، واستحواذه على النفوس، وهي: سلامة الفطرة، وصفاء النفس، وإشراق الروح، والغيرة على الدين،

---

(١) وقد صدرت للكتاب ثلاث طبعات من القاهرة وبيروت باسم «مذكرات سائح في الشرق العربي».

والتحرّق للإسلام، والتوجّع من استشراء الفساد، والاتصال الوثيق بالله تعالى، والحرص على العبادة وشحن «بطارية القلب» بالذكر والدعاء والاستغفار، والخلوة في الأسحار، والاتصال المباشر بالشعب وعامة الناس في مواضع اجتماعهم ومراكز شغلهم وهواياتهم، والتدرج ومراعاة الحكمة في الدعوة والتربية، والنشاط الدائم والعمل الدائب.

وهذه الخلال كلها هي أركان دعوة إسلامية ربانية، وحركة دينية تهدف إلى أن تحدث في المجتمع ثورة إصلاحية بنَّاءة، وتغيِّر مجرى الحوادث والتاريخ، لذلك كان أصحاب دعوة الإسلام وحملة أمانتها، بل والعاملون في مختلف حقول الإصلاح، بحاجة دائمة إلى هذا الكتاب وإعادة التأمل العميق فيه الفَيْنة بعد الفينة.

أما بعد: فقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الدعوة التي أعادت إلى الجيل الجديد في العالم العربي الثقة بصلاحية الإسلام وخلود رسالته، وأنشأت في نفوسه وقلوبه إيماناً جديداً، وقاومت (مركب النقص) في نفوسهم، والهزيمة الداخلية التي لا هزيمة أشنع منها وأكبر خطراً، والميوعة وضعف النفوس والانسياق تحت ربقة الشهوات والطغيان، وخلقت ــ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ــ: (في جسم الحمام الرخو الرقيق، قلب الصقور والأسود)، حتى استطاع هذا الجيل أن يصنع عجائب في الشجاعة والبسالة والاستقامة والثبات.

لقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الحركة وطمس معالمها، وتعذيب جنودها، وتشريد رجالها، جريمةً لا يغتفرها التاريخ الإسلامي، ومأساةً لا ينساها العالم الإسلامي، وإساءةً إلى العالم العربي لا تعدلها إساءة، ولا تكفِّر عنها أيُّ خدمة للبلاد، وأيُّ اعتبار من الاعتبارات السياسية.

إنها جريمة لا يوجد لها نظير إلّا في تاريخ التتار الوحشي، وفي تاريخ الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش في العالم المسيحي القديم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

سماحة المفتي السيد أمين الحسيني

إن حادثةَ وفاة سماحةِ المفتي الأكبر الحاج السيد أمين الحسيني(١)، حادثةٌ عَمَّت العالم الإسلامي كله وهزَّته، وحُقَّ للمسلمين جميعاً أن يتبادلوا التعازي كأفراد أسرة فُجِعَت في أحد آبائها أو مربيها، وقد فقدَ العالمُ الإسلاميُّ في شخصه أقدم زعيم وأكبر مجاهد، وأعظم بطل من أبطال قضية المسجد الأقصى، والقدس الشريف.

وأوثر هذا التعبير قصداً وإرادةً، عادلاً به عن عنوان «قضية فلسطين»، لأنَّ الدافع الحقيقي في جهاد سماحة المفتي والفكرة التي كانت تسيطر عليه، هو دفاعه عن المسجد الأقصى، بصفته القِبلة الأولى وثالث المساجد التي يُشَدُّ إليها الرحال، ومسرى الرسول الأعظم ﷺ، وهذا الذي قد أصبح شعاراً له وسمة بارزة عن أبطال القضية الآخرين.

وقد كانت صلته بهذه القضية صلةً أعمق وأقوى من صلة زملائه والذين تبنوا هذه القضية واحتضنوها، فإن كان الزعماء العرب الآخرون ـ ولكل فضل ـ مهتمين بهذه القضية معنيين بها، وهم لها كالأبناء والإخوة الأشقاء، فقد كان سماحة المفتي رحمه الله أبا القضية، وهي له بمنزلة الأولاد وأفلاذ الأكباد، والفرق واضح ما يحتاج إلى شرح، وهذا الذي ميَّزه عن جميع أقرانه والمناضلين عن القضية.

---

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى في بيروت في ١٤ من جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ.

لقد خُتم بوفاته كتابٌ في الجهاد والإخلاص للعقيدة والفكرة، والوفاء للمبدأ والغاية، يحتوي على قصة طويلة، وروائع من الكفاح والبطولة والمغامرة والإيمان الصادق، والنزاهة التي لا ترتقي إليها شبهة، والحياة التي لا مغمز فيها، تدور حول بطل واحد وهو الحاج السيد أمين الحسيني، وانتهى به عهد يمتد أكثر من ستين سنة، لم يهدأ له فيه بال، ولم يقر له قرار، ولم يضع فيه السلاح، ولم ينسحب فيه عن ميدان الكفاح، ولا أعرف أحداً من بين زعماء المسلمين والعرب ارتبط بقضايا الوطن الإسلامي الكبير، ووهب لها من نفسه وعقله مثل ما ارتبط بها الراحل العظيم، ووهب لها مما أكرمه الله به من مواهب وطاقات، وكان كدوامة لا تستقر ولا تنقطع عن الحركة من بين الرباط إلى جاكرتا، ومن ضفاف دجلة إلى نهر كابل ونهر السند.

وقد شعرت حين بلغني نعيه، كأني فقدت أحد أفراد أسرتي الكبار وركناً من أركانها الذين تعتز بهم هذه الأسرة، وشعرت بأنها حادثةٌ عائلية شخصية، فكان دائماً يعطف عليَّ عطف الآباء على الأبناء، أو عطف الإخوة الكبار على الإخوة الصغار، وقد كان في صف أساتذتنا وشيوخنا وزملائهم وأترابهم، وقد سمعت به وأنا في ريعان الشباب وأيام الطلب، كأنّي أسمع عن شخصيات الجيل الماضي، أو كأني أنظر إلى نجم متألق في الأفق البعيد، حتى جمعني الله به على غير ميعاد في مدينة لكهنؤ في ندوة العلماء، حين زار الهند مع زميله الكبير الأستاذ محمد علي علوبه باشا سنة (١٩٣٣م)، في جولة دعائية للجامعة الإسلامية التي كان قد أراد إنشاءها في القدس، وكانت زيارته للكهنؤ ضمن هذه الجولة، فكأنه حلم تحقّق، ودعوناه إلى دار العلوم لندوة العلماء، وكان يعرفها عن طريق الكتب والصحف، وعن طريق صديقه أستاذنا العلامة «السيد سليمان الندوي»، ولبَّى هذه الدعوة ورحَّب بها، كأنه كان ينتظرها ويتوقعها.

ولا أنسىٰ ذلك الحفل الزاهر المشرق الذي تحدَّث فيه سماحة المفتي، وقد طلع عليه بطلعته البهية الوقور، التي يلتقي فيها الجمال الصُّوري بالجمال المعنوي، والوسامة الظاهرة بالوقار والرزانة والتواضع، وأخلاق العلماء بالأناقة وحسن الهندام، فكأنه ملك نزل من السماء، أو ملك من الملوك المسلمين القدامى عاش من جديد، وأكبر الظن أنه كان في العقد الرابع من عمره، ولا أزال أذكر إنشاده للبيت العربي المعروف، وهو يذكر زيارته لهذه الدار، وأنه قد سمع عنها كثيراً، وقرأ عنها كثيراً.

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ··· أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأول البيتين:

كانت محادثة الركبان تخبرنا ··· عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

ثم طالت الفترة في اللقاء حتى لقيته بعد ثماني عشرة سنة في القاهرة، وكان ما يزال يذكر هذه الزيارة بتفاصيلها، وتتابعت اللقاءات في حفلات عامة ومجالس خاصة، ثم حدثت فترة أخرى، هي أقصر من الأولى، فالتقينا به على صعيد رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، والمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وتشرَّفت بالزمالة على تفاوت في السن، وفرقٍ كبير في التجارب والحصافة، وحسن البلاء والعمل الإسلامي، ولكنه كان دائماً يملأ هذه الفجوة الواسعة بين زميلين كأنَّهما من جيلَيْن مختلفَيْن، بأخلاقه العالية، وكان يغمرني بعطفه الأبوي وحنانه الأخوي، وقلبه الكبير، وعقله المنير، وكان يجعلني لا أشعر بحداثة السن، وضآلة الشخصية، وقلة البضاعة في ميدان الكفاح والعمل الإسلامي، وكان له دائماً الفضل والسبق في التحية واللقاء، والترحيب والاحتفاء، وكان في ذلك على قدم السلف الصالحين، والسادة الهاشميين، والشيء من معدنه لا يستغرب.

رحمـة الله عليك: يـا أبا صـلاح الدين! ويـا مجاهـد فلسطين، رحمـةَ الأبرار الصالحين، الأوفياء الصادقين، والمجاهدين المستميتين.

وصدق الله العظيم: ﴿من المؤمنين رجالٌ صَدَقـوا ما عـاهدوا اللَّهَ عليـه فمنهم من قضى نحبَهُ ومنهم مَن يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلُوا تَبْديلاً﴾(١).

فقـد فارقت هـذه الحياة، وفي نفس يعقـوب حاجـة ما قضـاها، وأمنيـة لم تقر عينه بتحققها، بل انتقلت إلى جـوار ربك مفجـوعاً بمـا رأيت في آخر أيام حياتـك، من تواني العـرب في قضيتهم التي هي قضية الحيـاة والشرف، والعقيدة والكرامـة، وذهبت إلى ربك جـريـحَ الفؤاد، حزينَ القلب، محـطَّم الأعصـاب، غيرَ راضي النفس، ولا قـريرَ العين، بمـا اتَّفق عليـه قـومـك من وضـع السـلاح، والاكتفـاء من الغنيمـة بـالإيــاب، وتـرك المسجــد الأقصى والقدس الشريف على ما كانا عليه، وأنت الآن في كنف رحمة الله تثاب على عملك وجهادك، ولا تُسأَل عن عمل غيرك.

ونختم هذا المقال القصير الذي لا يفي بحق الـراحل العـظيم بمقتطف من كتابنا «مذكرات سائـح في الشرق العربـي» يحكي لقاءاً تاريخياً، ويسجل حديثاً دسماً لسماحة المفتي، فيه معلومـات قيمة، وآراء حصيفـة، «ولا ينبئك مثل خبير».

يوم الأحد ٧/٨/١٣٨٠هـ ـ ١٣/٥/١٩٥١م

حديث مـع المفتي

(ذهبنـا لمقـابلة سمــاحـة المفتي أمين الحسيني في مكتبــه في شـارع رمسيس بمصر الجديدة، وكانت هذه المقابلة من أمتـع المقابلات التي جرت

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

بمصر، وإن كانت قد جرحت الفؤاد، وأثارت الأحزان، وبعثت الأسى على حالة المسلمين، تحدَّث عن تاريخ جهاد فلسطين ومطامع اليهود السافرة حتى أطماعهم في احتلال المدينة المنورة وخيْبَر ومستعمرات اليهود القديمة، ومطالبتهم بذلك بكل صراحة والتهيؤ والاستعداد له، ونفاق الإنجليز وكيدهم للمسلمين، والروح الصليبية الكامنة في نفوسهم، بل البادية في أحاديثهم وأعمالهم: ﴿قَدْ بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم وَمَا تُخفِي صدورُهم أكبر﴾ وسذاجة الشعوب الإسلامية وسرعة انخداعها، وأخطاء الدول العربية وغفلتها عن مصيرها، والأخطار الصهيونية التي تهدِّد كيانها، واشتغال ملوك العرب بنفوسهم، وترفهم،وجناية الجامعة العربية على قضية فلسطين بتكفلها بهذه القضية، ثم تقاعدها عنها، وعزل الشعب الفلسطيني المجاهد عن السلاح، وتسليم المناطق العربية إلى اليهود، فلا تركت الشعبَ الفلسطينيَ الغيورَ الباسل يواصل جهادَهُ، ولا أغْنَت عنهم شيئاً وحلَّت محلهم.

وذكر اضطهادَهُ وكيف طوَّقه المستعمرون الإنجليز بواسطة المسلمين، وجعلوه في شبه جزيرة منعزلةٍ لا يستطيع أن يقوم بدوره في قضية فلسطين حُراً مطلقاً، وكيف كتَّفوا يديه وكيف حالوا بينه وبين إخوانه الفلسطينيين، حتى أبوا عليهِ بطُرقٍ غير مباشرة أن يتَّصل بهم في مصر وفي غزة، وكيف سافر خلسة مرة إلى غزة فاستعادوه إلى مصر، وكيف أصبح اللاجئون في غزة فريسة الجوع القاتل والتبشير النصراني والدعايات الشيوعية، وكيف رفضوا أن يتصل بهم ويقوم بنشاط دعوة إسلامية، وكيف يمنعون بريده من أن يصل إليهم بواسطة وكلاء الصهيونية في دوائر البريد، وكيف نسجوا حوله نسائج من شائعات وأراجيف ليشوِّهوا سمعته ويسقطوا مكانَتَهُ، ويفقد الفلسطينيون ثقتهم به.

قال: ولكنا مع ذلك مصمّمون على مواصلة الجهاد مهما كان، ولا نيأس من روح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلاّ القوم الكافرون.

وكان حديث سماحة المفتي مشجياً، وكان يتجلَّد ويكف الدموع، فإنه معروفٌ بعصاميته وجلادته، وقد لمحت في حديثه إليّ أي مدىً وصل انحطاط المسلمين، وجهلهم بالحقائق ونكرانهم لرجالهم، وإلى أيِّ حدٍ نجحت سياسة المستعمرين، وكيف طمست البصائر، واشترت الذمم والضمائر، وعبثت بالأفكار والعقول، فالله المستعان، وقد رجعت من عند سماحة المفتي حزيناً منكسرَ الخاطر، وعرفته أنه لم يخطئه حظه، حظ زعماء المسلمين والمصلحين.

وقد أثنى المفتي على الشهيد حسن البنا رحمه الله، وأثنى على الإخوان المسلمين المجاهدين في فلسطين، وأثنى على رجولتهم وقوة إيمانهم وحماستهم، وقال: كان الواحد منهم يقاتل عشرات من اليهود)[١].

* * *

(١) «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ٢١٤ ــ ٢١٥.

الأستاذ سيِّد قطب

قد كانت معرفتي للأستاذ سيد قطب في مهد الإسلام ومهبط الوحي، ولم تكن معرفة زيارة ولقاء، إنما كانت معرفةً علمية فكرية، كانت عن طريق كتابه القيم «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وقد تأخرت هذه المعرفة إلى سنة (١٩٥٠م) وكان من المعقول المتوقع أن تبكر وتتقدم على هذه السنة بسنين، فقد كنت متَّصلاً بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي، أحرص على أن أسايره ولا أتخلّف عنه، وكنت نهماً لكل ما تنشره المطابع، وتصدره المكتبات في مصر من غثٍّ وسمين، فقرأت للدكتور محمد حسين، والأستاذ العقاد، والدكتور أحمد أمين، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ أحمد حسن الزيات، وقبلهم للمنفلوطي والرافعي، وكنت ملتزماً بمطالعة «الرسالة» و«الثقافة» الأسبوعيتين، وهما مدرستان أدبيتان تختلفان في الأسلوب والمنهج، وتتوزعان أدباء مصر الكاتبين، وحملة الأقلام الناشئين، وتعرفت على كتّاب هاتين المجلتين الذين كانوا ينضمون إلى أحد هذين اللوائين الأدبيين، وكانت تمرّ بي مقالات في الرسالة، لكاتب اسمه سيد قطب يكتب كثيراً في النقد الأدبي وفي مناقشة الآراء الأدبية، ونقد الآثار والأساليب العربية، فكنت أعرف أنه تلميذٌ لامع من تلاميذ مدرسة العقاد وأحد المدافعين عنه والناقدين لخصومه.

وأراد الله أن تكون أول معرفتي به، معرفةً عميقةً في رحاب البيت

وظلال الكعبة، فيكون نبتاً كريماً في منبتٍ كريم ﴿والبلدُ الطيبُ يَخْـرُجُ نباتُـهُ بإذن ربِّه﴾[1].

وكان من خبر هـذه المعرفـة أنَّ صديقي الأستـاذ أديب الحجاز (أحمـد عبـد الغفور عـطار) كان من كبـار المعجبين بالأستـاذ العقـاد، والأستـاذ سيـد قطب، وكان معجباً بالأستاذ سيد قطب الأديب والإنسان، وكان كثير الحـديث عنهمـا شأنَ المحب، وجمعتنـا رحلة إلى الـطائف وذلـك في أول شتـاء عـام (١٩٥٠م)، وكنّـا زملاء في هـذه الرحلة الممتعـة المسلية نتحـدّث ونتـذكـر، وقضينا في هذا المصيف اللطيف، عدة أيام.

وكـان الأستاذ قـد قدّم إليَّ كتـابَ «العدالـةِ الاجتماعيـة في الإسلام»، وعكفتُ على مـطالعته في هـذا الجو الهـادىء اللطيف، فوجـدت فيه أسلوبـاً جديداً من الكتابةِ والبحثِ والعرض لم أجده في كتابات الكُتَّـاب الإسلاميين، وخـاصـة في الكتَّاب العرب، وذلك يحتاج إلى شيء من التفصيل.

إنَّ الذي يقرأ بحوث الكُتَّاب المسلمين ـ في لغـات الشرق وفي بعض اللغـات الغربيـة ـ الذين نبغـوا واشتهروا بعـد منتصف القـرن التـاسـع عشـر المسيحي، سـواءٌ أكانـوا في مصر أو في الهنـد، أو في تركيـا، أو في إيـران، يشعر بأنهم واقفون في «قفص الاتهام» يدافعون عن قضيةٍ أو شخصيةٍ يكتنفهـا الشيء الكثير من الغموض والالتواء، وتكثر حولها الريب والتهم، وفي موقفها ضعف وفي حججهـا وهن وانثـلام، فغـايـة تـوفيقهم ونجـاحهم أن يتغـاضىٰ الخصـوم عن بعض الهنـات وعن بعض الحلقـات المفقـودة في البحث، فيـلاحـظوا في حكمهم الـذي سيصـدرونـه اختـلاف الـزمـان والمكـان، والمشكـلات التي كانت تعـانيها هـذه الدعـوة أو الشخصية، وأنـه كان أقصى ما كان يمكن الوصول إليه في تلك الملابسات والأجواء. هـذا الأسلوب الذي

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٨.

يصح أن يسمى «الأسلوب الاعتذاري» (Apologetic) أو «الأسلوب الدفاعي» (Defensive).

وقد كان من زعماء هذا الأسلوب في مصر الشيخ محمد عبده ـ سامحه الله ـ ورفاعة بك الطهطاوي، وقاسم أمين، على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم، ومن زعمائه في الهند سر سيد أحمد خان، والسيد أمير علي، وصلاح الدين خدابخش، ومنشي جراغ علي، وغيرهم، وقد نهج نهجهم الأستاذ محمد علي اللاهوري، وخواجه كمال الدين في قليل أو كثير.

وكان هؤلاء السادة ـ بحكم ثقافتهم ونشأتهم، وبقوة نفوذ الحكومة الإنجليزية السياسي، وكون الحضارة الغربية في نظرهم قضية بديهية لا تقبل نظراً ولا جدلاً، وكونها آخر ما وصل إليه العلم البشري والعقل البشري ـ لا يفكرون في نقد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها ومناقشتها، فضلاً عن أن يفكروا في هجوم أو تحدٍّ، أو تناول الأسس التي قامت عليها ببحث أو تمحيص. وهذا المنهج مخالفٌ للمنهج العلمي القوي «الهجومي» الذي آثره حجَّةُ الإسلام الغزالي في «تهافت الفلاسفة» في نقد الفلسفة اليونانية، وشيخ الإسلام ابن تيمية في «الرد على المنطق» في نقد المنطق اليوناني وفلسفة أرسطو، ثم هُجِرَ هذا الأسلوب قروناً طويلة حتى جاء دور نهضة الغرب، وران سحره على العقول والنفوس.

كان من لطفِ اللَّهِ بكاتبِ هذه السطور ومن حكمته، أنه نشأ في بيئةٍ تمرَّدَت على الحضارة الغربية وإغراءاتها، واستقامت على الفكرة الإسلامية النقيَّة البعيدة عن الإفراط والتفريط، وفي عصر بدأ فيه سحر الحضارة الغربية يضعف ويزول ـ بتأثير حركات تحريرية وثورات سياسية في البلاد ـ وفي حضانة مربٍّ[1] أخذ من الثقافتين القديمة والحديثة رحيقهما واحتفظ بأفضل

---

(١) هو أخ الكاتب الأكبر ومربيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة العلماء سابقاً، وقد مر التعريف به.

ما عندهما، ونبذَ القشورَ والفضولَ، وكان من كبار الناقدينَ المنصفينَ لهذه الحضارة وزعمائها، ثم سعد بالتلمذة على أساتذةٍ كلهم يتّصفون بالحرية الفكرية، والشجاعة الأدبية، والنقد الجريء، فكان بحكم هذه البيئة والتربية يعاف الأدبَ الضعيفَ الخجول، والكتاباتِ المتراجعة المنسحبة، المعتمدة على وقاية النفس، المفضِّلة للسلامة على الغنيمة، والنجاة على الغلبة والفتح، فكان إذا قرأ شيئاً من هذا الأدب المنهزم شعر بامتعاض، وكان ذوقُه لا يسيغه، كان مدفوعاً إلى حب الطموح وحب الكرامة، والاعتزاز بالعقيدة والدين، قد امتزجت كراهة الشعوب التي حاربت الإسلام، وساقت الإنسانية كلها إلى الشهوات والشبهات وعبادة المادة والقوة، وتولت كبر الدجل والتلبيس، بروحه وعقله، فعاد لا يحتمل تمجيداً لها، أو دفاعاً عنها، أو ركوناً إليها، مهما كان الكاتب عظيماً أو الكتاب جليلاً.

وكان أول من وجد في أدبه ما يرضي ضميره ويشحن نفسه بشحنة جديدة من الثقة والاعتزاز وكبر النفس وسمو النظر وقوة العاطفة، فيشعر بدبيب كدبيب النمل، في عروقه وفي أعصابه، وبحركة في شعوره وأفكاره، ويقظة في أمانيه وآماله، هو شعر الدكتور «محمد إقبال» الذي آمن بخلود الرسالة المحمدية، وقيادة صاحبها لكل زمان، وكفر بالحضارة الغربية وتحدى زعماءها.

وظل يطالع كتب المعاصرين وكتاباتهم، فوجد هذا اللون يغلب عليه الطابع العلمي في كتابات مسلم جديد، هو الأستاذ محمد أسد، ومسلم قديم، هو الأستاذ «أبو الأعلى المودودي» قرأت للأول في الإنجليزية كتابه المشهور «الإسلام على مفترق الطرق» وقرأت للثاني مقالاته في مجلة «ترجمان القرآن» في نقد الحضارة الغربية وأسسها، ثم جمعت في كتاب سماه «تنقيحات» فرأيتهما يتناولان الحضارة الغربية كقضية علمية تصلح للنقاش والبحث، أو كجثّةٍ تُعرض للتشريح في كلية الطب والجراحة،

ويتكلمان في القضايا العلمية والاجتماعية والحضارية، وفي الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات والنظريات والفلسفات، عن ثقة واعتماد، وبقوة واعتزاز.

وكنت أتلمَّس هذا العنصرَ القويَّ وهذه الروح العالية في كُتَّاب مصر، والأقطار العربية، فلا أجدها في كتابات الكتاب المصريين إلا لمعات أو لمحات في كتابة الأستاذ العقاد والذي يبدو فيها باحثاً حراً وناقداً عميق النظر.

وأشعر بأن مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني قد أثَّرت في أساليب الكتاب العرب، ومناهج تفكيرهم، فهم إذا خاضوا في السياسة وانتقدوا الاستعمار كانوا شجعاناً مغامرين، ونقَّاداً مهاجمين، لا يخافون سجناً ولا تشريداً، ولا عقوبةً ولا تهديداً، ولكنهم إذا تناولوا موضوعَ الحضارة الغربية، والنظم السياسية، والفلسفاتِ الاقتصادية، والعلومِ العمرانية، كَلَّت أقلامُهم، وتَلَجْلَجَت ألسنتهم، وضَعُفَ أسلوبهم، حتى يظهر من خلال كتاباتهم، أنَّ الغرب هو المثلُ الأعلى في كل شيء، وأنَّ المقاييس للنهضة والسعادة هو الدنوُّ من هذه الغاية، والتشبّه بها، وجاء كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لكاتب العربية الأكبر الأشهر الدكتور طه حسين في قمة هذه الفكرة وذروتها، وكان كل ما أقرأ من شعر وأدب وبحث علمي، أو عرض تاريخي أجده يغنّي على وتر واحد.

وكان هذا الكتاب الذي أُتحفت به في البلد الأمين مفاجأةً لي فيما يختصُّ بالمكتبة العربية الحديثة، وكأنما وجدت ضالَّتي واكتشفت شيئاً مجهولاً أو مفقوداً. إنَّ مؤلفه تحرَّر من هذا الأسلوب الاعتذاري، الذي أصبح شعاراً للكتَّاب الإسلاميين منذ مدة طويلة، وفضَّل أسلوب الهجوم، أو مواجهة الفكرة الغربية ــ بمعناها الواسع ــ وجهاً لوجه، وتكلَّم عن مستوى النقَّاد الأحرار الذين لا سلطان عليهم لمجتمع أو ثقافة أو سياسة أو مصلحة، الذين يبحثون

في العلم للعلم، وفي الحقيقة كحقيقة، والذين عرفوا هذه الحضارة عن كتب لا عن كتب، وعن تحقيق لا عن تقليد، وعن تجربة لا عن سماع، وتوسَّع في دراسة النصرانية والحضارة اليونانية والرومانية، واستطاع تحليلَ الحضارة الغربية وتجربتها، وتعمَّق في دراسة النظم الاقتصادية والاجتماعية.

وأكثر ما أعجبني في هذا الكتاب، هو ثقة المؤلف بصلاحية رسالته التي يؤمن بها، وخلودها وتفوّقها، وأنها هي الرسالة الوحيدة التي تسعد بها البشرية، وإن كنت وجدت في هذا الكتاب ما لم أستطع أن أوافق مؤلفه عليه وتمنّيت لو خلا هذا الكتاب من هذه المآخذ القليلة، وأكثر المؤلف الفاضل من تمحيص هذه الآراء، وكان أرقَّ وألطف مع هذه الشخصيات التي أكرمها الله بصحبة رسوله[1] ﷺ، والكمال لله وحده والعصمة لرسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ثم أراد الله أن يكرمني بمعرفة المؤلف الشخصية والجلوس معه ساعاتٍ طوالاً ومراتٍ عديدةً، والحديث إليه في حرية وانطلاق، فلما وصلت إلى القاهرة في مستهل سنة (١٩٥١م)، كنت مصمِّماً على زيارته وانتهاز أول فرصة للقائه، وأراد الله أن يكون له الفضل في هذه الحسنة كما كان له في كثير من الحسنات، فقد طلب من صديقنا المشْتَرك الحاج حلمي المنياوي صاحب المطابع العربية في القاهرة، والرجل المؤمن الصالح الذي عاش غريباً مُطارَداً في سبيل العقيدة والمبدأ، ومات غريباً رحمه الله، أن يجمعني به في منزله بحلوان، فكان أول لقاء يوم الجمعة ١٣٧٠/٥/١٧هـ (١٩٥١/٢/٢٣م)، وكانت جلسة لا تُنسى، فقد تفتَّح قلبه لي، وكان قد قرأ كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، وهو كتاب ينسجم مع

---

(١) وقد شعر الأستاذ سيد قطب نفسه بهذه الضرورة فأحدث تعديلاً فيما كتبه عن سيدنا عثمان وظهر في الطبعات الأولى في كتابه، وحذف بعض العبارات كما يظهر من المقارنة بين الطبعات الأولى والأخيرة.

نفسيته ويتجاوبُ مع تفسيره وأسلوبه، لأنه حديثٌ عن الإسلام كرسالةٍ عالميةٍ خالدةٍ، خُلِقَت لتبقى وتزدهر، وتسودُ وتقود، ولها وحدها حق التوجيه والقيادة، ولأصحابها وحدهم العزة والغلبة والعلوّ، أما غيرها من الديانات فقد أفل نجمها ومضى عهدها، وأما ما قام على أساسها من الحضارات، فقد نفد زيتها، واحترقت ذبالتها، لذلك كان من الطبيعي أن يأنس كلانا بصاحبه، ويفضي إليه بذات صدره، ولو كان أنْسُ صغيرٍ بكبير، ومتطفل بأصيل، وقد تحدَّث (سيد) في هذا المجلس كثيراً عن حياته وتجاربه ونقط التحول فيها والعوامل التي صاغت حياته الحديثة، وجعلت منه كاتباً إسلامياً من الدرجة الأولى، وداعيةً مربياً لجيل جديد، ومدرسة من المدارس الفكرية والأدبية زاهيةً زاهرةً، تُؤتي أكُلَها حتى بعد موت صاحبها، وكان هذا الحديث ذا قيمة علمية وتاريخية فيما يختص بمعرفة سيد قطب، يستنير به كل كاتب في حياته وآثاره[١].

وتكررت الزيارات، وجمعتنا مناسبات إسلامية ومحاضرات في جمعية الشبان المسلمين، وفي بيته بحلوان، ودفعتني هذه الثقة والتجاوب إلى أن أطلب منه أن يقدِّم لكتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي أُعجب به، وكان موضوع استعراض ومناقشة في الندوة العلمية التي كانت تعقد كل جمعة في منزله، ويحضرها عددٌ كبير من الشباب والمثقفين والفضلاء الجامعيين، وقد حضرت هذه المناقشة[٢]، وعرفت اهتمام الأستاذ بهذا الكتاب، وكنت أشعر كما كان يشعر كثير من قرَّاء هذا الكتاب، أنَّ مقدمة الدكتور أحمد أمين ــ رحمه الله ــ أضعفت من قيمة هذا الكتاب، فلم تكتب عن اندفاع وحماس، إنما كتبت أداءً للواجب، أو إجابةً للطلب، وكان

(١) سُجِّلَ هذا الحديث في كتابي «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ٨٨ ــ ٩٠. راجع لمعرفة أخباره ومراحل حياته: الصفحات ١٤٩ ــ ١٥٠، ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٢) راجع «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ١٨٤.

صاحبها لا يؤمن بفكرة الكتاب الأساسية، أو على الأقل لا يتحمَّس لها، وقد علَّق عليها المرحوم الملك عبد الله بن حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية حين قرأ هذا الكتاب بقوله: «إنَّ هذه المقدمة قد أساءت إلى هذا الكتاب»، ولا ذنبَ على الدكتور أحمد أمين، رحمه الله، فإن له منهجاً خاصاً في التفكير والكتابة، وليس في استطاعة كل أديب أو باحث أن يتذوَّق موضوعَ كتاب يقدِّم له وأن يتحمَّس له، وقد سَاوَرَتْني هذه الفكرة حتى لم أستطع لها قهراً ولا دفعاً، وكان في ذلك خير كثير، فقد جاءت هذه المقدمة بقلم الأستاذ سيد قطب والتي حَلَّى بها جِيدَ الكتاب في الطبعة الثانية وما تليها من طبعات، مقالة مستقلة، في عرض وجهة نظر صاحبها في التاريخ، كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية وفهمه للنهضة الإسلامية ودعائمها وأسسها، وقد كتبها عن عاطفةٍ وإخلاصٍ للغاية التي يدعو إليها هذا الكتاب، وفي قوةٍ وحماسةٍ هي من أبرز سمات كتابات سيد قطب.

ولم يقتصر الأستاذ سيد قطب على هذا الإكرام والتشريف لمؤلف هذا الكتاب، بل إنه تكرَّم وقدَّم لكتابٍ ألَّفه المؤلف لأطفال المسلمين في قصص الأنبياء، فقدَّم للجزء الثالث من هذه السلسلة التي تسمى «قصص النبيين للأطفال» وصدر عنه اعتراف لا يصدر إلّا عن نفس كبيرة وصدر واسع وقلب مؤمن، فقال: (لقد قرأتُ الكثيرَ من كتب الأطفال ـ بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ـ وشاركت في تأليف مجموعة «القصص الديني للأطفال» في مصر مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة أنَّ عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي، جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقرُّ في قلوب الصغار أو الكبار).

ولم يكن شيء في تلك الفترة يدل على أن الأستاذ سيد قطب يتخطى حدود الكاتب والمؤلف والباحث والمفكر، ويدخل في ميدان الكفاح العملي، والقيادة للكتيبة المؤمنة المجاهدة، ويشاهد العالم منه تلك البطولةَ النادرةَ، والصمود الرائعَ أمام الوحشية التي تقشعر منها الأبدان، ويشمئز منها الوجدان، بل كان كل شيء يدل على أنه يقضي حياته منحصراً في مجال التأليف والكتابة وعرضِ الفكرةِ الإسلامية فحسب، مخلِّفاً تَبِعَتها على المغامرين من المؤمنين في الأجيال القادمة كمافعل كثير من السابقين والمعاصرين، وقد فوجئت في أول لقائي معه بوجود الفجوة الواسعة بين حالته الصحية وجسمه الضعيف، وبين أسلوبه القوي المتحدّي المسعور الذي يشعر الإنسان بلهيبه ووهجه، وقلمه المتدفِّق الذي يتطاير منه الشَّرَر كأنه جذوة من نار، وقد سجلت هذا الانطباع وهذا الشعور الذي هزني في «مذكراتي»[(١)].

وقد كان هو نفسه لا يعرف هذه القوة الكامنة التي تحركها الحوادث والتحديات، وتفاجىء صاحبها كما تفاجىء غيره، ولا يعرف المستقبل الذي كان ما يزال في ضمير الغيب، بل كان يستصغرُ نفسه ويراها بعيدةً عن النهوض بأعباء القيادة للدعوة الإسلامية.

فقد جاء في مذكراتي ما يستحق أن يلفت الأنظار ويقرأ من جديد، ويدل على إيمان هذا الكاتب الإسلامي الكبير وتواضعه وشعوره المرهف بضخامة المسؤولية، وقدسية القيادة، وأنقله هنا حرفياً فقد أصبحت وثيقة تاريخية لها قيمتها وأهميتها: (ثم جرى الكلام عن الفرد الأول الذي يتعهد هذا العمل، فأشار إليه بعض الحاضرين وأثنوا عليه، وقالوا: إنَّ الكتب العظيمة التي ألفها لا تصدر إلا عن قلب مؤمن وعقيدة متينة، وخلق مستقيم، وهنالك تكلم الأستاذ وشهد على نفسه بكل صراحة وجسارة وقال: «أنا

---

(١) راجع «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ٨٩ ـ ٩٠.

لا أعتقد أني أستحق هذا الثناء والأمل، وليس صدور الكتاب دليلاً على أن المؤلف اجتازَ المراحل الأولى في التربية الإسلامية وإعداد النفس، وأنا أعرف معركةً قائمةً بين بيئتي وما أنا فيه من راحة ورخاء وفرص، وبين ما يطلبه الإيمان والجهاد من التضحية والإيثار، والزهد والقوة الروحية، وأعرف أن المرحلة النهائية لا تزال بعيدة، وأن الميزان ما ذكره القرآن: ﴿قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُم وأبناؤكُم وإخوانُكُم...﴾[1] الآية، فما لم أرَ هذا المنزل الذي أسكنه والخُصّ، والوظيفة والعطلة، وأسباب الغنى والفقر سواء، فإني لا أزالُ بعيداً عن حقيقة الإيمان والتربية الإسلامية، فلا أريد أن أخدع نفسي ولا غيري»)[2].

ولكن الذي ظهر من استقامته وشجاعته من حين اعتقل وسجن وحوكمَ وعُذِّب إلى أن أكرمه الله بالشهادة عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٦م)، قد بَهَرَ الجميع، وأثبتَ أنه آمن بفكرته قبل أن يؤمن بها غيره، ودفع ثمنَها من دمه وحشاشة نفسه وروحه الزكية، وأنه قد باع نفسه وتمَّت الصفقة بينه وبين الله، وكتب الصك وشهد قبل أن يطلع عليه آلاف المعجبين به وبأدبه، والذين يعيشون في فكرته وكتاباته، وأنه قد انتهت هذه المعركة التي كان يتهيبها ويستعظمها ـ كما مر آنفاً ـ في قرارة نفسه، وقد انتصر فيه اليقين على الشك، والسكينة على التردّد، والعزم على ضعف الإرادة، فما كان الاعتقال والتنكيل والشهادة، إلا نتيجة حتمية، وصورة صادقة لهذه المعركة التي خاضها في أعماق نفسه وقرارة بيته، قبل أن يخوضها في الزنزانة وعلى المشانق.

وسيزداد اعتناء الناس بآثاره، وشغفهم بكتبه ومؤلفاته، وحرصهم على إحياءِ تراثه الفكري والعلمي، وتخليد اسمه ومآثره، ويبدو لي أن هذا كله من

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

(٢) راجع «مذكرات سائح»: ص ١٨٥.

مقتضيات معاني الحياة التي يكرم بها الشهيد، وأنَّ كلمة ﴿أحياء﴾ في قوله تعالى: ﴿بل أحياءٌ عند ربهم﴾ أوسع مما فهمها الناس وفسرها المفسِّرون، فتشمل بقاء الآثار وانتشارها، ولهجَ الناسِ باسم الشهيد وأخباره، وغرامهم بحديثه وذكره، واعتراف وإعجاب المعاصرين ولسان صدق الآخرين، يأبون إلا الموتَ فيأبى الله إلا الحياة، ويريد الأعداء طمسَ الآثار فيأبى الله لها إلا الانتشار والازدهار.

* * *

الدكتور مصطفى السباعي

(مات مصطفى السباعي)، بهذه الكلمات فوجئنا أمس إثر إحدى جلسات مجلس إدارة المركز الإسلامي في جنيف[1].

ما أسهلَ النطقَ بهذه الكلمات القصيرة البسيطة التي يمكن أن تُقال عن كل حي، وعن كل عظيم، وعن كل خالد ــ بأعماله ومآثره وآثاره ــ حتى عن الرسل والأنبياء الذين كتب الله عليهم الموت وقدَّر لهم الآجال، فقال عن سيدهم وخاتمهم ﷺ: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرسل﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت﴾[3].

ولكن هل درىٰ الناعي وهل شعر الناس بما وراء هذا الحادث من معانٍ وتأثير في المجتمع الإسلامي، وفي آفاق العلم، والدعوة والجهاد؟.

وهل شعر الجميع بمقدار خسارة الأمة ورزيئة الدعوة، ونكبة العلم، وعظيم مصاب المسلمين في هذا الحادث (البسيط) الذي ذكرته الصحف وحملته الأنباء إلى الآفاق، في مثل هذه الكلمات السهلة القصار.

هل عرفوا ماذا حرمه المسلمون وماذا فقدوه في شخص هذا الرجل الذي توارى في التراب؟.

---

(١) كانت وفاته رحمه الله في ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٣٤، ٣٥.

إنه إخلاص ووفاء للعقيدة لا تعرفهما السياسة المتقلّبة ولا يعرفهما الزعماء (المحترفون)... ومع الأسف، ولا كثيرٌ من أهل العلم في هذا الزمان.

إنه ثباتٌ واستقامة، وجهادٌ طويل متواصل في مجالات مختلفة: من معركة فلسطين إلى البرلمان السوري، إلى مكتب المراقب العام، إلى محيط التأليف والكتابة والصحافة، إلى منصَّة الخطابة والدعوة، إلى كرسي تدريس الفقه الإسلامي في جامعة دمشق، إلى فكرة تأسيس كلية الشريعة في الجامعة السورية، إلى معركة الانتخابات، إلى مناقشة المستشرقين الملحدين، إلى تربية الشباب وتوجيههم... جهادٌ لم ينقطع يوماً، واستمرَّ إلى آخر يوم من أيام حياته.

إنه علمٌ جم وعقيدةٌ راسخةٌ، فقلَّما يوجد في قادتنا من يستطيع أن يؤلِّف مثل كتاب «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ومن يضع مثل كتاب «شرح قانون الأحوال الشخصية» و«المرأة بين الفقه والقانون» و«من روائع حضارتنا».

إنه اطلاع واسعٌ وبصرٌ نافذ، وقلمٌ مترسِّل، وأدبٌ رفيع، وأسلوبٌ مطبوع. وهذه الافتتاحيات العامرة الكثيرة التي كان يحلِّي بها صدر مجلة «حضارة الإسلام» يجد فيها القارىء غذاء الفكرة والإيمان.

إنه نموذج العالم الديني والداعية الإسلامي في هذا العصر المتعقد القلق الذي أصبح لا يتحمّل ولا يطيق جفاف الفقه وخشونة الدعوة وجمود الثقافة وضيق الأفق والأسلوب القديم الخشيب، ولا يخضع له.

إنه عالم ديني دَرَسَ على النمط القديم في الأزهر في مصر، وفي حلقات العلماء والأساتذة الراسخين في الشام، وأخذ خير ما عندهم من القديم الأصيل، وعرف الجديد، وزار أوروبا «العالم الجديد» ودرسَ مناهج التعليم والنظم الاجتماعية والسياسية فيها، واتصل حبله بمربي الجيل

الإسلامي الجديد في الشرق العربي، وإمام الدعوة الإسلامية فيه، الإمام الشهيد حسن البنا، وقاد الإخوان المسلمين في بلد إسلامي كبير كسورية، واكتوىٰ بنار السياسة، وقاد الكتيبة المؤمنة المجاهدة إلى فلسطين، وساهم في وضع الدستور السوري ومَثَّل حزباً وفكرةً في البرلمان، ودَرَّس، وكتبَ وألَّفَ، وباشرَ الإدارةَ والتنظيم، وأسهمَ في نشاطاتٍ شتَّىٰ في العالم الإسلامي، وكان خطيباً مِصْقَعاً في الطليعة من خطباء العالم العربي.

وكان في كل ذلك مؤمناً صاحب دعوة ومبدأ وغاية، مخلصاً محتسباً، موضع ثقة وتقدير في بلده وفي غير بلده، وقليل من معاصريه من يجمع بين هذه الفضائل والمواقف المتنوعة في خدمة الإسلام والمسلمين، ثم لم يمنعه مرضه المضني المرهق من أن يواصل جهادَه ويستمرَ في كفاحه، من تدريسٍ وكتابةٍ ودعوةٍ، فكان أكبر دليل على قوة إيمانه وإخلاصه، وعلى أن الدعوة قد ملكته وتغلغلت في أحشائه.

فتح في مجلته «حضارة الإسلام» الغرَّاء باب (رجل فقدناه)، يتناولُه كاتب إسلامي كل شهر، وينعي فيه عظيماً من عظماء المسلمين، وقد قُدِّر لكاتب هذه السطور أن يسهم فيه ويكتب عن شخصيات إسلامية راحلة.

وقد آن للمسلمين جميعاً في كل بلد إسلامي أن يعرفوا فضل هذا الراحل الجديد، ويذكروا مآثِرَه الكثيرة، ويشعروا بخسارتهم الفادحة فيه ويدعوا له بأعماق القلب، فهو رجل قد فقدناه جميعاً، ففي ذمَّة الله أيها الراحل العزيز.

وإلى القرَّاء مقتطفان من ذكريات ولقاءات وانطباعات عن الراحل العزيز، من كتابي «مذكرات سائح في الشرق العربي»:

الأحد ١١/١٠/١٣٧٠هـ ــ ١٥/٧/١٩٥١م

(سمعنا أن الأستاذ سعيد رمضان في فندق أمية، فذهبنا نزوره، ووجدناه محفوفاً بالشباب وأبناء الجامعة، تقابلنا كإخوان يتلاقون بعد فراق،

وجاء الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين، فرأيته لأول مرة، وقابلني بحرارة ومحبة، وذكر اطلاعه على بعض المحاضرات للداعي في رحلته إلى باكستان، أهداها إليه أحد إخواننا في باكستان، ثم اطلاعه أخيراً على كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وتشوقه لصاحبه، وذكر كل منا اتصاله الروحي والفكري بصاحبه والتقاء الأفكار)[1].

يوم الجمعة ٢٣ / ١٠ / ١٣٧٠ هـ ـ ٢٧ / ٧ / ١٩٥١م

(أخذنا الشيخُ السباعي اليوم إلى مصيف (الأشرفية) الذي يصطاف فيه، ورافقنا الأستاذ محمد المبارك وبعض الإخوان، وقد أقامَ الأستاذُ السباعي عريشاً على النهر، وهو محلٌ ظريف طابَ لنا الجلوس فيه، والحديث مع الأستاذَيْن: السباعي والمبارك، وذكر الأستاذ السباعي بعضَ تجارب الدعوة، وكيف يقبل الناسُ على حركتها إقبالاً عظيماً، ويتهافتون عليها كالفراش، حتى يغترَّ الإنسان بهذا الإقبال الرائع، ثم ينفضون لأدنى سبب، تنتشر هذه الجموع، ويبقى المخلصون الذين قد هضموا الدعوة، وحكى ما وقع للأستاذ المرشد في مصر، فقد أقبلت عليه وعلى دعوته الدنيا، وشايعته الأحزاب، وكانت حفلات الإخوان مشهورة رائعة، بينما كان الوفديون يجلبون الناس إلى اجتماعاتهم بالأجرة، ولكن لما حاربت الحكومة دعوةَ الإخوان انفضَّ الناسُ من حولهم، ونـدَّدت بهم الصحافة المصرية، وخذَلَهم المتظاهرون بصداقتهم، وكان فضيلةُ المرشد العام ـ رحمه الله ـ قد شعر بهذا التحوّل، وقرَّر في نفسه بعد الرجوع من الحج الاعتماد على التربية وتهيئة النفوس وعدم التوسّع، ولكن سبقته الحوادث في مصر، وأُفلت الزمام، واعتُقِلَ الإخوان، وحُورِبَت الدعوةُ، فَشُغِلَ بمواجهة هذه الحوادث وحلِّ هذه الأزمة، واستأثرت به رحمة الله.

---

(١) راجع «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ٣٠٣.

وكذلك حصل إقبال عظيم على العلماء ورجال الدين في دمشق، حتى حضر شكري بك القوتلي في الجمعية الغَرَّاء، وأعلن بأسماء المرشَّحين، واغترَّ العلماء بهذا الإقبال، وأدلوا به، وصاروا يدخلون على الرئيس، ويشيرون عليه، ويتدخلون في الأمور، ولم تقبل نفوس الحاكمين هذا التدخّل وهذه السلطة من العلماء، ووقع حادثٌ صغير، فانتهز رجال الحكم الفرصة، وحَرَّشوا عليهم الصحف، وانصرف الناسُ عن العلماء، وتجنَّبُوهم، واجترأ عليهم الناس حتى كان الإنسان يخجل أن يخرج في السوق في زيّ العلماء)[1].

قد كانت بلاد الشام مركزاً رئيسياً من مراكز العلوم الدينية والثقافة الإسلامية، وبصفة خاصة فيّ الفقه والحديث، وقد اشتهر من رجال القرن الثالث عشر الهجري العلامة سيد محمد أمين المعروف بابن عابدين (١١٩٨ ـ ١٢٥٢هـ) المشهور في الديار الهندية بالعلامة الشامي، صاحب «رد المحتار» شرح «الدر المختار»، وكان الاعتماد على هذا الكتاب في الفقه الحنفي والإفتاء كالاعتماد على المعاجم والموسوعات في الموضوعات العلمية، ونبغ فيها علماء كبار انبثقت منهم وانتسبت إليهم مدارس فقهية وحديثية وأدبية، كالعلامة المحدِّث السيد بدر الدين الحَسَني، والعلامة عبد الرزاق البيطار، والشيخ زين العابدين التونسي، والسيد محمد جعفر الكتاني، والعلامة جمال الدين القاسمي، والعلامة عبد القادر المبارك الجزائري (والد صديقنا الحبيب الأستاذ محمد المبارك رحمه الله)، والشيخ أبو الخير الميداني، أفادوا وخرجوا، وأنتجوا وأنجبوا، وبقي لهم خلفاء وتلاميذ معدودون.

وقد فترت حركة التعليم والتخريج، وحلَّت مكان المدارس الحرة الشعبية، الكليات الرسمية والمدارس الحكومية، وقد عرف أهل البصر،

(١) راجع «مذكرات سائح في الشرق العربي»: ص ٣٢٠.

فضلاً عن أهل البصيرة، أنه قد حان دور الجامعات المدنية والكليات التابعة لها في تعليم الشباب، ونقل التراث الإسلامي إلى الأجيال الصاعدة، على علاتها وتأثيراتها الخاصة ورواسبها في عقلية الشباب، ولكن لا بد من الاستفادة منها ومن إمكانياتها الواسعة.

وكان الأستاذ السباعي في مقدمة من تفرَّس لهذا التطور، واحتضن فكرة إنشاء كلية الشريعة في الجامعة السورية بدمشق، وتبنَّاها وتحمَّس لها، وقد استطاع ــ بحول الله تعالى ــ أن يُقنع بذلك ولاة الأمر ورؤساء الجامعة، ووافقت إدارة الجامعة على إنشاء هذه الكلية، ووافق عليها رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي، واختير الأستاذ السباعي عميداً لها.

وقد أخبرني بذلك الأستاذ السباعي في رسالته التي كتبها إلي في ٢٢ من شوال ١٣٧٤هـ (١٢ حزيران ١٩٥٥م) يقول فيها: (وبعد: فلعله قد بلغكم إنشاء كلية الشريعة الإسلامية في الجامعة السورية بدمشق، وهو عمل طَرِبَتْ له قلوب المسلمين وأنصار الحق والخير، وقد بدأت الدراسة هذا العام بإنشاء صفٍّ واحد للسنة الأولى، وسينشأ في مَطْلَع العام الدراسي المقبل صف السنة الثانية إن شاء الله.

وقد رغبت إليَّ لجنة الكلية في أن أكتب إلى سماحتكم رجاءها بالموافقة على طلبها في أن تتعاقد الكلية معكم للتدريس فيها، لمدة سنتين أو سنة كما تحبُّون، يستفيد طلاب الكلية من علمكم وفهمكم العميق للإسلام ورسالته فأرجو أن تتكرموا بالموافقة على هذا الطلب، مع ما تحبون إبداءه من رغبات وشروط)[1].

وقد اعتذرت ــ بلطف واحترام لوجاهة الاقتراح وصاحبه ــ عن الارتباط الرتيب بهذه الكلية العزيزة، التي كنت ولا أزال أقدِّر قدرَها وأعرف قيمتَها،

---

(١) راجع «رسائل الأعلام»: ص ٩٣ ــ ٩٤.

واقترحت أن يكتفى بكوني أستاذاً زائراً لمدة شهور، ألقي فيها محاضرات في موضوع مفيد مثير توجيهي تربوي، وعيَّنت لذلك موضوع (جهود الإصلاح والتجديد وأصحابها الكبار في تاريخ الإسلام)[1]، وَقَبِلَ الاقتراح الأستاذ السباعي، وجاءت الموافقة من رئيس الجمهورية ووزير التربية.

وسافرت في آخر شعبان ١٣٧٥هـ وأول إبريل ١٩٥٦م إلى دمشق. وكلي أمل بأنها ستكون فرصة الاجتماع بالأستاذ السباعي، وتبادل الأفكار والتجارب معه لمدة طويلة، ولكنني فوجئت بأنه قد سبق وصولي إلى دمشق برنامج زيارته للجامعات والمؤسسات العلمية في أوروبا، وأنه مسافر بعد وصولي إلى دمشق بيومين، ولكنه أنهى الإجراءات الرسمية والإدارية، وقام بكل ما يضمن لي الراحة والهدوء والقيام بالمهمة التي سافرت لأجلها[2].

وهنا أنقل رسالة كتذكار عزيز أرسلها الأستاذ السباعي إليّ من لندن رداً على اعتذاري من عدم وصولي إلى المطار لتوديعه، ويُبْدي فيها مشاعره الأخوية، وما جُبِل عليه من سماحةِ خُلق وكرمِ نفسٍ ورَحَابة صدر:

«فضيلة الأخ الكبير الداعية إلى الله العالم المؤمن الأستاذ أبي الحسن الندوي ــ أمتع الله المسلمين بحياته ــ.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وأبقاكم الله للإسلام ذخراً، ولشباب الإسلام سراجاً ومرشداً.

أشكركم على جميل شعوركم، وإنَّ ما بيننا من الحب في الله، وما في نفسي من الإعجاب والإكبار لكم ولفضلكم وعلمكم يجعل أمر الوداع عند السفر أمراً شكلياً، لا ينبغي أن يكون له فيما بيننا حساب، إني لأشعر بالأسف

---

(١) تكونت منها مجموعة أسميناها «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وتلتها أجزاؤها الثلاثة، فجاءت في أربعة أجزاء، طبع دار القلم الكويتية.

(٢) اقرأ التفاصيل في كتابنا «في مسيرة الحياة» (السفر إلى دمشق).

يملأ قلبي لحرماني بالاستمتاع بأحاديثكم، والاستفادة من فضلكم وعلمكم خلال إقامتكم في بلاد الشام، ولكنَّ إرادةَ الله تغلب إرادتنا، وحسبي أن يصلني وأنا في مكاني النائي صدى أحاديثكم ومحاضراتكم وتوجيهاتكم لشباب الدعوة وجنودِها، وهو صدىً تنشرح له نفس كل مؤمن يعمل للإسلام، ويبذل جهده في تثبيت دعائمه في القلوب، فجزاكم الله خيراً، وبارك في حياتكم وجهودكم، وأرجو ألا تحرموا إخواني في الشام من زيارتهم في مراكزهم، فإنهم في أشد الحاجة إلى ومضةٍ من وَمَضات قلبكم الكبير، وإلى لمسة روحانية مشرقة من روحكم المشرقة المؤمنة.

أسأل الله أن يجعلنا دائماً على ما يحب ويرضى.

والسلام عليك من أخيك المقدِّر لفضلك.

لندن ٩ من شوال ١٣٧٥هـ، ٢٠ مايو ١٩٥٦م

ولمّا قررت الجامعة السورية إصدار هذه المجموعة من المحاضرات ترجّيت من الأستاذ السباعي تقديم هذا الكتاب، فقَبِله مسروراً، وكتب له مقدمةً لطيفةً قال فيها:

(وإني ـ وإن لم يسعدني الحظ بالاستماع إلى هذه المحاضرات حين ألقاها الأستاذ الندوي في المدرَّج الكبير للجامعة السورية بدمشق، إذ كنت في رحلة علمية إلى جامعات أوروبا ـ قد لمست آثارها العميقة في نفوس الذين استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة وغيرهم من طلبة الجامعة، كما سمعت الثناءَ الكثيرَ عنها في الأوساط العلمية والإصلاحية، ثم أتيح لي أن أقرأها قبل تقديمها إلى المطبعة، فاستفدت منها كثيراً، وسألت الله أن يمدَّ في عمر الأستاذ الندوي لإكمال هذا البحث القيم الذي بدأه، حتى يصل بنا إلى الحديث عن زعماء الإصلاح في العصر الحاضر، وخاصة في الهند التي لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإسلاميين إلّا النزر اليسير،

وإنها لأمانة لا ينهض بعبئها إلّا مثل الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته وإشراق روحه وواسع علمه وجميل مثابرته)[1].

وأحمد الله ــ تبارك وتعالى ــ على أنه وفقني لتحقيق رغبته واقتراحه الوجيه عن رجال الفكر والدعوة البارزين في الهند، وإضافة هذه الحلقة الذهبية في سلسلة تاريخ الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي، فصدر الجزء الثالث الخاص بالإمام السَّرهندي، والجزء الرابع الخاص بالإمام الدهلوي، ولكن إرادة الله غالبة، والآجال محدَّدة، فقد كان ذلك بعد وفاته ــ رحمه الله ــ ولا شك أنه لو قُدِّر ذلك في حياته لكان من أكبر المرحِّبين المقدِّرين له.

وأخيراً أدعو الله ــ تعالى ــ أن يجزل مثوبته، ويطيِّب مثواه، والأمل وطيد في أن كتابه «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» الذي دافع فيه عن السنّة المطهرة دفاعاً مجيداً، وهو أفضل ما كتب في الباب، وهو الخطيب في المحراب، تقبله الله بقَبولٍ حسن، وجعله وسيلةً للمغفرة والرحمة عنده، ثم الرضا عند رسوله ﷺ، والله لا يضيع أجر المحسنين.

* * *

(١) تقديم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»: ١/٧.

كتبٌ عشتُ فيهَا

كتبٌ عشتُ فيها

تمهيد:

إنَّ الكتب التي يقرأها الناس كثيرةٌ، وإن الكتب التي قرأتها لكثيرة أيضاً، ولي نهامةٌ موروثة وشغفٌ زائد بالكتب، انتقل إليَّ من أبويَّ، فكنت أقرأ من صغري كل ما يقع في يدي من مطبوع.

ولكن الكتب التي يعيش فيها الإنسان، ويعيش مع مؤلفيها مدة من الزمان، وتمتزج بنفسه وروحه، وتؤثّر في عقله وحياته، لقليلة نادرةٌ في كل زمان ومكان، وما هذه الكتب المعدودة إلاّ كما قال المتنبي:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة　　　وإن كثرت في عين من لا يجرب

فما هذه الكتب التي عشت فيها ومع مؤلفيها زماناً صالحاً، وسيطرت على مشاعري وتفكيري مدة طويلة، ولا يزال لها سلطان عليَّ من حيث أشعر ومن حيث لا أشعر، والتي أَدين لها في كثير من عواطفي وأهوائي وموازيني وأدبي وثقافتي وكتابتي؟

إنها كتب معدودة يلذُّ لي الحديث عنها، لأنه حديث يعود بي إلى عهد عزيز حبيب، عهد الطفولة الباسمة البريئة، وعهد الشباب الغض الناعم، ولأنه حديث فيه قضاء بعض حقوق هؤلاء المؤلفين الذين أتحفونا بهذه الكتب الجميلة الغالية، واعترافٌ بجميلهم ومعروفهم، ولأنه حديث عن كتب أنشطت النفس والفكر مدة طويلة وبعثت في النفس الأماني اللذيذة

والمطامح البعيدة، وإنها كالأماني المعسولة إذا لم تتحقق، فقد أدخلت السرور على النفس وطابت بها الأيام.

مُنىً إن تكن حقاً تكن أحسن المنى   وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رَغْدا

وُلدت في أسرةٍ قد عرفت من الزمن القديم بصحة العقيدة، والتمسك بالتوحيد والسنة، ونزعتها إلى الجهاد، وقد نهض منها أئمة مرشدون ودعاة مجاهدون، كان أشهرهم وأكبرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان شهيد بالاكوت (١٢٤٦هـ)، وكانت لدعوته بقايا صالحة احتفظت بها الأسرة على مر الأيام.

أدركت أسرتي وهي في طور الانتقال من عصر إلى عصر، وطور الانتقال شديدٌ دائماً في حياة الأُسر والشعوب، وقد أثَّرت فيها الملاكية التي ابتليت بها هذه الأسرة في الزمن الأخير، فكان بعض بيوتها، ومنها بيت خؤولتي وأعمامي، تملك قرى وأقطاعاً واسعة، وهكذا تسرب إليها بعض خصائص الملاكية وأخلاقها وأثَّر فيها كذلك التعليم الغربي، فقد أقبل عليه أفرادها إقبالاً عظيماً، وكان لهذين العاملين، الملاكية والتعليم الغربي، نتائجهما الطبعية في حياة الأسرة، فكان الشيوخ أشد تمسكاً بالدين من الشباب، وكانت السيدات أرغب في الآخرة وما يتصل بها من الرجال، وهذا شأن الأسر والبيوتات التي ورثت تراثاً دينياً، ثم امتحنت بحضارة قوية جارفة كالحضارة الغربية، وبحكومة عاقلة داهية كالحكومة البريطانية.

* * *

فتـوح الشّـام

للـواقـدي

أدركت أسـرتي، وهي علىٰ مـا أصابهـا من الـوهن في الـدين والتـأثـر بالتعليم العصري، لا تزال محتفظة ببعض العادات التي كان لهـا أثرٌ طيب في حياتها، وكان العاصم لهـا من كثير من الانحـراف والانجراف، منهـا الحرص على إنشـاد بعض الملاحم الإسـلامية وقصص الجهـاد الإسـلامي، وقـد وفق أحـد أفرادهـا وهو السيـد عبد الـرزاق الحسني عم والـدي، وصـاحب الصلة الوثيقة بإمام الجهاد الإسلامي الأخيـر السيد أحمـد بن عرفـان الشهيد، فنـظم فتوح الشام للواقـدي في شعر «أردو»، وقـد فاضت قـريحته واشتعلت مـواهبه الـوراثية في هـذه المنظومـة الطويلة التي تشتمـل على خمسـة وعشـرين ألف بيت، فجاءت في غايةِ القوة والعذوبة وصدق التصوير وبراعـة التعبير، بحيث إذا سمعها الإنسان امتلأ إيماناً وحماسة، وتحركت فيه الحمية الدينية والتهبت العاطفة الإسلامية.

لقد فاتني العهـدُ الذي كـانت هذه المنـظومة أو مثلهـا تنشد في نـوادي الـرجال، ولكنني أدركت تلك الفتـرة المباركـة التي كـان هـذا الكتـاب عمـدة النساء في الدراسة والتلاوة والإنشاد، وكنَّ يجتمعن عليه وتنشـد إحداهنَّ هـذا الكتـاب، وسيـدات الأسـرة مستمعـات مُصْغِيـات، ومعهنَّ أبنـاؤهن الصغـار يشاركون أمهاتهم في هذا المجلس الذي يغشاه الوقار والسكينـة، ويَرْوون كل ذلك في شيء من الحيرة، وفي شيء من التـأثر، وفي شيء من الـوعي، وقد يـدبُّ إلى نفـوسهم الصغيـرة الملل، فيـذهبـون إلى أتـرابهم ويلعبـون معهم

ساعة، ثم يرجعون إلى أمهاتهم تدفعهم حاجة أو رغبة ـ وحاجاتهم كثيرة ورغباتهم متنوعة ـ وهي مربوطة بأمهاتهم.

كنت أرافق أمي وأحضر معها هذه المجالس، وكانت خالتي الكبرى، السيدة صالحة بنت العارف الكبير السيد ضياء النبي الحسني ـ وهي حافظة للقرآن ـ تتصدَّر هذا المجلس، وتتلو هذه المنظومة في صوت عَذْب رنَّان، ترفعه الحماسة ويرققه الإيمان، وتمضي في الإنشاد في هدوء واعتدال، حتى إذا دخل خالد بن الوليد المعركة، أو حضر ضرار بن الأزور وهزأا بالأعداء وخاضا غمار الموت، تغيَّر صوتها وارتفع وأشرقت وجوه المؤمنات، وكنَّ أشد ما يكنَّ إيماناً وحماسة وتأثراً إذا حضرت خولة بنت الأزور شقيقة ضرار الحرب، فكادت تقع في أَسْر الأعداء، أو خرجت من الساحة ظافرة منتصرة ساخرة بالعدو، هنالك يملكهن الإعجاب والاغتباط بها ـ وهي من الإناث ـ وتدمع عيونهن فرحاً، حتى إذا استشهد أحد المجاهدين بعدما أبلىٰ في الحرب بلاءاً حسناً، فاضت عيونهن بدا الحزن والتوجع على وجوههن، كأنما فجعن بعزيز أو قريب، وكأن الرزيئة جديدة والحادثة شخصية.

كل ذلك كنت أشاهده وأعيه وأشارك في المسرَّات والأحزان، وكانت هذه المناظر تؤثر في قلبي أكثر من ألف كتاب، وقد أَحْبَبْتُ هذه المجالس وقد حَبَّبَ هذا الكتاب شخصيات الصحابة والمجاهدين إلى نفسي، ورفعت منزلة الجهاد في سبيل الله في عيني، حتى لم يستطع كل ما قرأته بعد ذلك من بحث ومناقشات وشبهات، وكل ما قرأته للمستشرقين والمستغربين أن يقلل قيمة الجهاد، ولم تحم حوله شبهة، وكان كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكنا

كان من حسناتِ هذا الكتاب تلك الثقافة الدينية والتاريخية التي حصلت لي بفضله، فقد عرفت كثيراً من الصحابة وأبطال الجهاد الإسلامي،

وكثيراً من المدن والبلدان الإسلامية والوقائع التاريخية في سن مبكـرة، حين لم يعرفها كثير من أترابـي ممن حرموا هذه الفرص في سن عـالية، وارتسمت هذه الذكريات وهذه الحوادث في خاطري، حتى لما قدَّر الله لي الـرحلة إلى سـورية عـام (١٩٥١م)، وتمثلت هذه المنـاظر لعيني وهـاجت الذكـرى، ولما دخلت حمص بـادرت إلى زيارة سيف الله خـالد بن الـوليد، رضي الله عنـه، ووقفت أمام قبره وقفةً طويلةً أستحضر مواقفَه في الجهاد، وبلاءَهُ في الحرب، واستهانته بحياته، واستخفافَه بالعدو، وانتصارَه في كل معركة، وأترحَّم عليه، وقد طاب لي المقام وهاج البكاء.

وكان من حسنات هذا الكتاب أيضاً أني أصبحت أنظر إلى الأوروبيين، وهم خلفـاء الروم الـذين قاومـوا المسلمين في الشـام وفلسـطين، كمنـافسين لـلإسلام، ولا ينشـرح لهم صـدري، بـل وأجـدهم أحق بـالعـداء من الـروم والفرس الذين انقرضت دولتهم وزالت أيامهم وتقلَّص ظلهم، أمـا الأوروبيون فقد اكتسحوا العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه واستعبدوا أممه وشعـوبه، ونشروا الفساد في البر والبحر، وملأوا أرض الله جوراً وظلماً وفساداً وشراً.

إن لهذا الكتاب فضلاً عليَّ لا أنساه فقد غرس في قلبـي حبَّ أصحاب رسـول الله ﷺ وحب المجـاهـدين الأولين، وإجـلال الجهـاد وبـذل النفـوس والأرواح في سبيل الله، وأوغر صدري على أعداء الإسلام وأعداء الإنسـانية، فجـزى الله مؤلفه كـل خير، وسقى الله ذلـك العهـد، وتقبـل تلك المجـالس العـطرة التي تعرفت فيهـا بهذا الكتـاب وتأثـرت به، ومـا أحوج بيـوتنا اليـوم، ومـا أحـوج المجتمـع الإسـلامي إلى مثـل هـذه المجـالس، وإلى مثـل هـذه الكتب.

* * *

مـدُّ الإسـلام وجـزره

ويجيء بعد ذلك كتابٌ آخر يملك عليّ تفكيري ومشاعري ويحل من قلبي وعقلي محلاً رفيعاً، وهو كتاب منظوم أيضاً ــ والشعر أكثر تصرفاً في نفوس الصغار والأحداث وأملك لإعجابهم من النثر ــ إنه كتاب «مسدس حالي»[1]، اسم يعرفه ويألفه كل من نشأ في مثل عهدي، وأنا واثقٌ بأنَّ ألوفاً من المسلمين المثقفين في الهند يشاركونني في هذا الشعور والاعتراف بأنَّ «مسدس حالي» ظل زمناً طويلاً يملك إعجابهم، إنني لا أنسىٰ ذلك العهد الذي كان فيه هذا الديوان الإسلامي نشيد الحفلات، وفاتحة المقالات، وتكأة الخطيب، وعدة الأديب.

نظمه الشاعر في ثورةٍ فكرية قد عمَّت الهند وعمت العالم الإسلامي، وكل ما ينظم في حال ثورة خليق بأن يبقى ويؤثر، لقد فشلت ثورة سنة (١٨٥٧م) الكبرى التي قامت للتخلص من نفوذ الإنجليز وحكم الشركة الشرقية الهندية، وفقد المسلمون الثقة بأنفسهم، وأصيبوا بالجمود واليأس والفرار من معترك الحياة، والانطواء على أنفسهم، والمقت الشديد لكل جديد نافع مصدره الفاتح الأجنبي، فكانت الحاجة شديدة إلى أن تعاد

---

(١) اسم الكتاب «مد الإسلام وجزره» ولكنه اشتهر باسم «مسدس حالى» وحالى لقب صاحبه ألطاف حسين على عادة الشعراء بالهند، ولد عام ١٢٥٣ وتوفي ١٣٢٢، والمسدس معناه السداسيات، وهو ضرب من الشعر تشتمل كل قطعة على ثلاثة أبيات وستة أسطر.

الثقة إلى أنفسهم ويبعث فيهم الاعتداد بماضيهم، والاعتزاز بما يملكونه من تاريخ مجيد، وتراثٍ عتيد، وأن يحملوا على مواجهة الحقائق والاقتطاف من ثمرات النهضة الجديدة، ودراسة العلوم العصرية وتعلم لغة الحكومة.

اقترح السيد أحمد خان ـ رائد التعليم الإنجليزي في المسلمين وإمام دعوة التجدد والتطور في القرن التاسع عشر ـ على صديقه ألطاف حسين، أن ينظم ديواناً للمسلمين في هذا المعنىٰ، وصادفت هذه الدعوة هوى في قلب الشاعر ـ وكان مرهف الحس شديد التألم بما أصاب المسلمين من الوهن والجمود ـ، فنظم هذا الديوان ملبياً ضميره ودعوة صديقه الذي كان يجله كثيراً، ويعتقد فيه الإخلاص والتفاني في مصالح المسلمين.

افتتح الشاعرُ هذا الديوان بوصف حالة المسلمين في الهند من العصيان للأطباء المخلصين، والزهد في العمل بقول الناصح الحكيم، وصوَّر حَرَج موقفهم، والأخطار المحدقة بهم، ثم وصفَ الجاهلية العربية وصفاً رائعاً، وذكر ما كانت تمتاز به جزيرة العرب من بين البلاد والأقطار من الانحطاط الخلقي، والإفلاس المادي والروحي، والعادات الفاتكة، والأخلاق الشائنة.

ثم ذكر طلوع شمس الإسلام في هذا الظلام الحالك وذكر بعثة النبي ﷺ في أسلوب رائع ونظم ساحر، ونعت النبيَّ ﷺ نعتاً يعدُّ مع إيجازه من غرر المدائح النبوية، وطالما هَزَّ مشاعر المسلمين وعواطفهم، وأثارَ فيهم الإيمان والحنان.

ثم ذكر مبادىء الإسلام وتعاليم الرسالة المحمدية، ووصف التوحيد الإسلامي في قوة ووضوح، ووصف الصحابة الذين حملوا مشعل الإسلام وصفاً جميلاً، يحببهم إلى كل من يقرأ هذا الوصف، ويعظمهم في عينه، ويجعله يعتقد أنهم هم المثل الكامل للإسلام والطراز الرفيع من الإنسانية.

ثم ذكر تأثير البعثة المحمدية في تلك البيئة، وقلبها للأوضاع العالمية، وبعثها لحياة جديدة، وذكر كيف عمَّ برُّ الإسلام الشرقَ والغربَ والسهلَ والجبلَ، وكيف انتفع العالم برفده، وانتعشت الإنسانية بطبه، وكيف قامت حضارة الإسلام بجمالها وروعتها، وكيف نشط العرب في نشر الفضيلة والسعادة، وكيف هبت نفحةُ الإسلام على ربوع العالم الماحلة الجديبة فأعادت إليها الحياة والنشاط والزرع والنبات، ومنحتها الهدوء والسلام والمدنية والنظام، وذكر ما كان يمتاز به حملة الإسلام الأولون من علو الهمة، ومضاء العزيمة والطموح، وكيف انتشروا في العالم يقيمون دولة الإسلام العادلة، وحضارة الإسلام الزاهية، وسوق العلوم النافعة ودور العلم العامرة.

يذكر الشاعر طبقات العلماء وروَّاد العلم في دولة الإسلام الأولى، فيذكر المؤرخين، ويذكر المحدثين وعلماء أسماء الرجال، وتجولهم في العالم في البحث عن العلم، وأمانتهم في النقل، ونزاهتهم في الجرح والتعديل، ويذكر الأدباء الساحرين والشعراء المفلقين، والأطباء البارعين في عصور الإسلام الأولى، وكيف سارت أوروبا في ضوئهم وعاشت على فضل علمهم زماناً. ويذكر فضل الأندلس الإسلامية على أوروبا الجاهلية المفلسة، وكيف أنّ العالم لا يزال يفتقد العرب، ويرد كل فضل ومأثرة إليهم، وأنهم هم الحلقة الواصلة بين الجيل الجديد والتراث العلمي القديم.

وبعدما يفيض الشاعر ويسترسل في وصف ظهور الإسلام، ووصف المسلمين الأولين، وتعديد مآثرهم، وتسجيل مفاخرهم حتى تتحرك النخوة الإسلامية في صدور الناشئة الجديدة وذلك ما أراده الشاعر، ينتقل فجأة فيذكر كيف بدأ المسلمون ينحرفون عن الجادة، ويبتعدون عن الإسلام وتعاليمه التي نبعت منها حياتهم، وقام عليها صرح شرفهم، وكيف سقطت هممهم، وصغرت نفوسهم، وضاقت عقولهم، وانصرفوا ــ على مر الأيام ــ في

الأخلاق والعلوم والآداب والمروءة والبطولة، وكيف غيروا ما بأنفسهم حتى غيَّر الله ما بهم وأزال عنهم نعمته.

وهناك يصف الشاعرُ المجتمعَ الإسلامي الهندي ـ وهو مجتمع كان يعيش في فجر هذا القرن، وأعتقد أنه لا يختلف كثيراً عن المجتمع الإسلامي في كل بقعة ـ يصفه بدقة وأمانة وشجاعة، ويصوّره تصويراً بارعاً، كأنه تصويرٌ شمسيٌ يعرض مخائله وقسمات وجهه، وهنالك تبدو براعة الشاعر في التصوير، وعلمه الدقيق بالمجتمع الذي كان يعيش فيه، فيصف مختلف الطبقات بمزاياها وخصائصها وأخلاقها ونفسيتها.

يذكر الأشراف وأبناء البيوت الرفيعة، فيذكر تبذلهم وسقوط همتهم وبطالتهم وعيشهم على الأماني والأحلام، وعلى ما ورثوه من آبائهم من فتات ورفات، ويذكر الأغنياء فيذكر استرسالهم في شهواتهم وتخطِّيَهم في ذلك حدودَ العقل والدين، وحبهم للتملق والإطراء، وعيشهم في عزلة عن العالم وعن الشعب، ويشير إلى ما كان عليه الأغنياء في عصره من الترف الفاحش والبذخ المجنون.

ويعرض لطبقة العلماء فيذكر غلظتهم في القول والتحرير، ومبادرتهم إلى التضليل والتكفير، ويسمهم بضيق التفكير وشدة التمسك بالتقليد، والمغالاة في الفقه والجزئيات، والزهد في الحديث والروايات، وحرصهم على العجائب والشوارد، وينتقد عليهم التعصُّب العلمي وكثرة الشقاق والخصام في غير اقتصاد وحدود.

ويذكر الأوساط العلمية والمدارس والمعاهد في عصره، فيذمّ تشبثها بالعلوم العتيقة التي لا غناء فيها ولا صلة لها بالإسلام وعضها على الفلسفة اليونانية البالية بالنواجذ، وأنهم قد أصبحوا كثور الرحا يدور حولها ولا يعرف غيرها، وصَوَّر ما كان عليه المنتسبون للعلم في ذلك الزمان من التدقيق الذي

لا طائل تحته، وبراعتهم في إثبات ما لا حقيقة له، وأنهم لا يستطيعون أن يقيموا دلائل جديدة على صدق الإسلام ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى إعجاز القرآن، إنهم يرددون الدلائل التي تلقفوها من بطون كتب الكلام العتيقة فهم كحملة السيف في دولة المدافع، إنَّ شأنهم مع كتب الفلسفة والمنطق التي يعتكفون عليها دراسةً وتلاوةً وشرحاً وحفظاً، شأن القرد الذي وجد يراعة فوضعها في كومة من حطب وحشيش وصار ينفخ فيها من غير جدوى.

ثم يتناول الشاعر بريشته البارعة تصويرَ طبقة الشعراء، وهم زملاؤه وأصدقاؤه، فيصورهم تصويراً صادقاً مطابقاً على عادته، إنه يصرِّح بأنَّ الشعر في عصره وبيئته المنحطة قد فسد وتعفن، وأنه المسؤول الأول عن فساد الأخلاق في المجتمع، وأنه أصبح لا يؤدي رسالته الشريفة العظيمة، بل صار يلهب الشهوات ويزيّن الآثام والمعاصي، وينشر الخلاعة والمجون في طبقات الأمة ويفسد على الناس أخلاقهم وأذواقهم، وأن من الشعر المعاصر ما يحمرُّ له وجه الأدب ويتندى له جبينُ الحياء وتبرأ منه الملائكة ويتعوذ منه الأشراف، وتأخذه الغيرة على الشرف الذي امتهنه الشعراء وعلى الأخلاق التي عبث بها المتغزلون، فيقول: أخاف أن ينجو المجرمون الكبار وتسعهم رحمة الله، ولا يفلت هؤلاء الشعراء الذين عبثوا بالعقول والنفوس ونشروا الجريمةَ في المجتمع من عقاب الله.

ويقول: إنهم لا يسدون عوزاً في المجتمع ولا يخدمون مصلحةً إنسانية، وأنَّ الأمة في غنى عنهم.

ويذكر فضل الشعر العربي ومكانته في الحياة وثقافة الأمة، فيوازن بين ذلك الشعر البليغ الرفيع وبين هذا الشعر المتساقط الوضيع الذي اتسم به هذا العصر المنحط.

ويقبل الشاعر الاجتماعي إلى الطبقة الوسطى من الأمة . وهي عماد الأمة وصلبها ، فيصوّر ما كانت عليه هذه الطبقة من المشاكل والمآسي، يصف الشباب فيها بالعادات القبيحة والهوايات الفاسدة، والأخلاق المنحطة، وعزوفهم عن العلم والتعلم، وحرصهم على صحبة البطالين الماجنين، وقد شدَّد عليهم الآباء والمربون في طفولتهم وحصروهم في حصار ضيق وحالوا بينهم وبين الحياة والترويح المباح، حتى إذا شبوا انطلقوا من القيود، وثاروا على الأوضاع والحدود، ويذكر في مرارة وألم، ما كان يعانيه الآباء والأمهات من بطالة هؤلاء الشباب، الذين لا يحسنون شيئاً من أمور الدين والدنيا، ولا يتجمّلون بشيء من الفضائل ومكارم الأخلاق، وأنَّ الرجل الشريف لا يجد كفؤاً لكريمته لانتشار الفساد في الشباب والنشء، وإنهم عيال على آبائهم وأمهاتهم.

بعدما يصف الشاعر المجتمع الإسلامي الهندي وصفاً محيطاً مستوعباً، ويثير الشعور في المسلمين، ويضرب على وترهم الحسّاس، ينذرهم بالمصير المظلم الذي ينتظرهم في هذه البلاد، إنْ لم ينتبهوا ويأخذوا للعهد الجديد عدته، ويحرضهم على انتهاز الفرص التي أتاحتها لهم الحكومة الإنجليزية للتعليم العصري، واقتباس العلوم الجديدة حتى يزاحموا جيرانهم الهنادك، الذين سبقوهم في ميدان العلم واحتلوا مراكز كبيرة، وينصحهم بنبذ التعصب الذميم ضد العلم والتعليم، وهنا يذكر ــ في إسهاب وحماسة ــ ما تمتاز به الحكومة الإنجليزية من نشوء المعارف، وبسط الأمن وتذليل العقبات، والمساواة بين طبقات الشعب، وحسن الإدارة[١].

لقد تأثرت بهذه المنظومة «مسدس حالي» تأثراً كبيراً كآلاف ممن كانوا في سنّي، ونشأوا في مثل بيئتي، وكنت أسمع أختيَّ الكبيرتين تنشدان أبياتاً

(١) وهي النقطة التي لم يوافقه عليها كثير من المسلمين الغيارى الذين اكتووا بنار الحقد الإنجليزي المستعمر، وذاقوا الهوان على يديه.

كثيرة منها، وأسمع أترابي ومن كان أكبر مني من أبناء أخوالي يحفظون منها شيئاً كثيراً، فحفظت بطبيعة الحال كثيراً من أبياتها ـ على ضعف ذاكرتي ـ ونقلت منها كثيراً، في مقالاتي الصغيرة، وبعض المحاضرات التي كنت ألقيها في نادي الأطفال في قريتي.

ولما كبرت سني وتقدمت في الدراسة والتفكير، انتبهت لمواضع الضعف والنقد فيها، ولا بد من إشارة إلى ذلك.

١ ـ مما يؤخذ على هذا الكتاب ـ على كثرة محاسنه وقوة تأثيره ـ أنَّ الصورة التي يقدمها لنا لهذا المجتمع الهندي الذي كان يعيش في عصر المؤلف، هي صورة قاتمةٌ سوداء، وأنه لا يذكر ما كان يتصف به هذا المجتمع من فضائل ومحاسن قد تجرد عنها مجتمعنا الحاضر بتأثير الحكومة الإنجليزية الطويل وفعل الحضارة الغربية، وقد يقال: إنه نظر إلى الحياة والمجتمع في عصره بالمنظار الأسود، وإنه شاعر متشائم.

ويعتذر عنه بأنه يريد أن يبعث القلقَ والتذمر في المسلمين لهذه الحياة المنحطة التي كانوا يعيشونها، ولهذا المجتمع المنحل، ويبعث فيهم الرغبة والبحث عن حياة أشرف من هذه الحياة، وعن مجتمع أفضل من هذا المجتمع، ويحثهم على الجهاد والكفاح في سبيل الحياة.

٢ ـ ويؤخذ عليه إكباره للإنجليز وللحكومة الإنجليزية وشدة إعجابه بها وعدم تعرضه لنقدها، مع أن الإنجليز هم أكبر المجرمين السياسيين في العالم، وهم الذين تولوا كِبْر الاحتلال والاستعمار في الشرق، وقد فتحوا الهند بدهائهم ومكرهم، وسلبوها نعمة الرفاهة والكرامة والأخلاق، وبقوا يمتصون دمها ويحلبون درَّها ويجُزُّون صوفها قرناً كاملاً.

ولا عذر للمؤلف في ذلك إلا أن يقال إن كل رجل هو أسير عصره وبيئته، ومن يحلِّق فوق عصره ويسبق زمانه قليل نادر، وهذه هي الفكرة التي

كانت تسيطر على أكثر المؤلفين والشعراء ورجال الإصلاح في تلك الفترة التاريخية، وإنَّ المنتبهين لعيوب هذه الأمم الحرة وجناياتهم على الشعوب المستعبدة قليل، والمنكرون عليهم في ذلك أقل، كالسيد جمال الدين الأفغاني والسيد عبد الرحمن الكواكبي، وجل من لا عيب فيه.

٣ ــ ويؤخذ عليه أيضاً أنه يدعو المسلمين بحماسة وإخلاص إلى تعلم اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية، ولا بأس بذلك فهي دعوة عاقلة مخلصة، ولكن الغاية التي يهدفها الشاعر في هذه الدعوة غاية نازلة لا تليق بالأمة الإسلامية، إنه لا يقصد بذلك أن يمثل المسلمون دورهم في التاريخ، ويحتلوا بذلك مركزهم العالمي، وهو مركز الدعوة إلى الله والوصاية على العالم، إنه يدعو إلى ذلك لأنه وسيلة للوظائف التي أُقصيَ عنها المسلمون بجهلهم وإضرابهم عن التعليم الحكومي، واحتكرها الهنادك، الذين كانوا بالأمس محكومين لهم بتعلمهم، فلا بد أن يتعلم المسلمون اللغة الإنجليزية ويدرسوا العلوم العصرية ليأخذوا نصيبهم من الوظائف والمعائش تحت سيادة الإنجليز، ويأخذوا مكانهم في الجهاز الإداري للبلاد، الذي يسيره الإنجليز وفق رغبتهم ومصالحهم.

إنه ضعف في التفكير، وضعف في الهمة، تمنيت لو ارتفع الشاعر العظيم عنه، وهدف غاية أسمى من ذلك وأجدر بالمسلمين، ولكن لكل زمان حكمه ولكل جيل مقياسه.

وعلى هذه المآخذ ومواضع الضعف، وقد يكون فيها أكثر من هذا، لا ينكر فضل هذا الكتاب وتأثيره في عقول الجيل المسلم الهندي المعاصر، وثقافته، وشعوره الديني، فقد ألهب في كثير من أفراده الغيرة الإسلامية، وغذى تلك البذرة الصالحة التي يحملها كل مسلم في صدره، وهي أعزُّ عليه من كل شيء في الحياة، وهي حبُّ النبي ﷺ، وتوقير أصحابه والدين الذي جاء به.

ومن حسناته وأياديه عليَّ شخصياً، أني احتفظت بصورة الجاهلية التي تلقيتها من هذا الكتاب، وهي صورة ترينا أنَّ الأمةَ العربية كانت فقيرةً في كل شيء، ضعيفةً في كل شيء، تعيش في عزلة عن العالم وفي ظلمات خلقية وروحية ومادية، فهبت عليها نفحةٌ من البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، فكانت كل شيء، وكانت كما عرفها التاريخ وعرفها العالم، فكل فضل في سعادتها وسيادتها، يرجع إلى النبوة المحمدية.

لقد احتفظت بهذه الصورة، وبهذه العقيدة في رحلتي الطويلة بين الكتب والصحف، والمقالات والمباحثات، فلم تتزعزع ولم تضطرب، ولم تغلب عليها كتابات المستشرقين الأوروبيين، والمؤرخين الغربيين الذين ينظرون إلى الجاهلية العربية بالمكبرة، ويحاولون أن يقنعوا قرَّاءهم بأنَّ الجزيرة العربية كانت في مؤهلاتها واستعدادها كالبركان يريد أن يتفجر، وقد جاء محمد ﷺ في أوانه فتناوله بجمرة فانفجر، ولا فضل ـ يزعمون ـ للنبيِّ العربي إلّا أنه عرف الساعة المواتية، والفرصةَ السانحةَ لهذا الانقلاب الهائل فبدأ عمله في خير أوان وأحسن مكان.

هذه مؤامرة علمية كان كثيرٌ من الدارسين فريستها، وقد قاومها أولاً ما اعتقدته وآمنت به من انحطاط العرب وسوء حالهم وبعدهم عن العلياء التي وصلوا إليها بفضل الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية، ثم قاومتها الدراسات العلمية الحرة والدلائل التاريخية التي لا تدع في ذلك شكاً، ولذلك أدين لهذا الكتاب وأحمل له في عنقي مِنَّةً كبيرةً وفضلاً جسيماً.

* * *

سيرة رحمة العالمين

وأتحدث عن كتاب ثالث كانت منّته عليَّ أعظم، وإني دائم الترحّم على صاحبه العظيم الذي أتحفني عن طريق هذا الكتاب بمنحة هي أغلىٰ الأشياء عندي بعد الإيمان، بل هو جزء من أجزاء الإيمان، وهو كتاب «سيرة رحمة للعالمين» لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصور فوري رحمة الله عليه، ولهذا الكتاب قصة عجيبة!

لقد كان أخي الأكبر ــ وهو الذي تولىٰ تربيتي وتثقيفي بعد وفاة أبي، وقد توفي وأنا في التاسعة من عمري ــ موفقاً كل التوفيق في اختيار الكتب التي كان يحب أن أطالعها في صغري، فقد قدم إليَّ في أول ما قدّم كتاب «سيرة خير البشر» لمؤلف هندي، وكان رحمه الله حريصاً عليَّ أن أكثر من مطالعة كتب السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، لأنه يعرف أنها المؤثّر الأكبر في تكوين السيرة والعقيدة والخلق وغرس الإيمان، وقد نشأت لذلك على حب كتب السير والحرص على اقتنائها ومطالعتها.

وقع بصري مرةً على اسم كتاب «رحمة للعالمين»، وكنت كثير النظر في الفهارس وإعلانات الكتب، وأرسلت طلباً لهذا الكتاب، وكان قد طبع منه جزآن، تقصر ميزانيتي الصغيرة، وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري، عن شرائه، ولكن الصغار، خصوصاً في العصر الذي أتحدث عنه، لا يخضعون لقوانين الميزانيات وعلم الاقتصاد، إنما ينساقون مع الغرائز والعواطف.

وجاء ساعي البريد وهو يحملُ هذا الكتاب فيما يحمله من بريد قريتنا الصغيرة، ورأيتُ أني أملك ما أتسلَّم به هذا الكتاب وأدفع ثمنه، واعتذرت أمي رحمها الله مع حرصها على إرضاء طفلها اليتيم عن دفع النقود، لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين.

ورأيت فلم أرَ لي مساعداً وشفيعاً في هذه المهمة إلّا الشفيع الذي طالما لجأ إليه الأطفال وعرفوا أن شفاعته لا ترد، ذلك الشفيع الذي لجأ إليه سيدنا عمير بن أبي وقاص الصغير فَقَبِلَ رسول الله ﷺ شفاعتَه وأجازه للقتال في بدر، ذلك شفيعُ الدموع والبكاء البريء الذي لم يزل وجيهاً مسموعاً عند الله وعند عباده الصالحين.

وكذلك كان، فقد رقَّ لذلك قلبُ أمي الحنون، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب والحصول عليه، وأخذت الكتاب!

بدأت أقرأ الكتاب، وبدأ الكتاب يهزُّ قلبي، وليست بهزّةٍ عنيفةٍ مزعجة، إنما هي هَزّةٌ رقيقة رفيقة، وبدأ قلبي يهتزُّ له ويطرب.

كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب

وهذا هو الفارق بين هزّة الكتب التي أُلِّفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار، وبين هزة الكتب التي أُلفت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فالأولىٰ هزة تُغير على القلب وتزعجه، والثانية هَزَّةٌ تنبعث من النفس وتريحها.

وبدأت نفسي تتجاوب لهذا الكتاب وتسيغه كأنما كانت منه علىٰ ميعاد، وشعرت في أثناء قراءتي لهذا الكتاب بلذة غريبة، إنها لذةٌ تختلف عن جميع اللذات التي عرفتها في صغري ـ ولم أزل مرهف الحس قوي الشعور ـ فلا هي لذة الطعام الشهي في الجوع، ولا هي لذة اللباس الجديد في يوم العيد، ولا هي لذة اللعب في حين الشوق إليها، ولا هي لذة العطلة والفراغ بعد الدراسة المضنية والاشتغال المرهق، ولا هي لذة الانتصار والظفر في

المباراة، ولا هي لذة زيارة صديق قديم أو زائر كريم، إنها لا تشبه لذةً من هذه اللذات، إنها لذةٌ أعرف طعمها ولا أستطيع وصفها، وأعترفُ أني لا أستطيع حتىٰ اليوم أن أصفها بدقة وأعبر عنها بكلمة.

إنَّ غاية ما أستطيع أن أقول: إنها لذة الروح، وهل الأطفال لا يحملون الأرواح؟ ولا يشعرون باللذة الروحية؟ بلى والله! بل إنَّ الأطفال أشفُّ روحاً وأصحُّ شعوراً، وإن عجزوا عن التعبير.

كنت أقرأ في هذا الكتاب المعجب المطرب خبر من كان يسلم من قريش فتنهال عليه أنواع العذاب، فكان يحتمل كل ذلك في ثبات وصبر، بل في لذة وسرور، فكنت أشعر بأنَّ هناك لذةً لا يعرفها كثير من الأغنياء والأقوياء، وكثير ممن يعدون في الحياة سعداء، وهو أن تُضرب على الحق، وتضطهد في عقيدة، وتهان في سبيل الدعوة، إنَّ هذه اللذة لا تعدلها لذة القوة والظفر والحكم، ورأيت أن نفسي تتمنىٰ بأن تسعد بهذه اللذة وبهذه الكرامة ولو مرة في العمر.

وقرأت قصة مصعب بن عمير، وكان مثالَ الترف والأناقة في الناس والبذخ في المعيشة، وهو فتى قريش الناعم يخرج بمكة وعليه ثياب تقوَّم بمئات ويتبعه الغلمان ويصبح حديث النوادي، ثم يضع يده في يد رسول الله ﷺ فيخرج من كل هذا النعيم والترف ويتخشن في اللباس ويتقشف في المعيشة، وقد يضطر إلى أن يمسك رداءه بشوك السمر، ويدمع هذا المنظر عين رسول الله ﷺ ويذكر ما كان عليه مصعب من رقة المعيشة ونعومة الحياة، ويُقتل فتى الفتيان في أحد فلا يخلف إلّا كساءاً إذا غُطيَ رأسُه به انكشفت رجلاه، وإذا غُطيت رجلاه انكشف رأسه، فيقول رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه وضعوا على رجليه الإذخر».

* * *

قرأت هذه القصة فملكت قلبي وأسرت نفسي، وعرفت أن وراء العيش الناعم واللباس الفاخر والطعام الأنيق والقصر الشامخ حاجة تقاصرت عنها همم الأثرياء والملوك، ولذة جهلها أصحاب الشهوات والمعدات، ورجعت إلى نفسي فوجدتها تطمح إلى هذه الحاجة وترغب في هذه اللذة، ووجدتها أكثر إجلالاً لهذه الحقيقة منها لملابس الأغنياء والمظاهر الجوفاء.

وقرأت قصة الهجرة النبوية، قصةً لا أعرف أني قرأت قصةً أكثر تأثيراً وأجمل تصويراً من هذه القصة التي يحكيها المؤلف في صدق وبساطة، يدخل رسول الله ﷺ المدينة، وقد تعلقت به القلوب وطمحت إليه الأبصار، وتتقدم قبيلة قبيلة وتقول في صدقٍ وإخلاص: يا رسول الله هَلُمَّ إلينا! إلى العدد والعُدة والمَنَعة، فيقول ـ فداهُ أبي وأمي ـ: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ثم تبرك على باب مسجده اليوم وتأبىٰ أن تقوم، ويأبىٰ الله أن يكون هذا الشرف الذي ليس فوقه شرف إلّا لأبي أيوب الأنصاري، فيحتمل أبو أيوب رحله فيضعه في بيته، وأقرأ سرور أبي أيوب بهذه الكرامة التي ساقها الله إليه وإخلاصه في ضيافته، أقرأ كل هذا، وأجد قلبي قد تركني ورافق ناقة رسول الله، فيدخل في ركابه المدينة، وأجد كأني أشاهد كل ذلك بعيني، وأجد أنَّ كل ما قرأت أو سمعت من دخول الملوك والفاتحين والعظماء والأغنياء قد تضاءل واضمحل، وإنَّ كل ما عرفته من حبٍ وإخلاص عن رجل لرجل قد ذاب وغاب، وارتسم هذا المنظر في نفسي وفي ذاكرتي.

وقرأت قصة أُحد، قصة لم يعرف التاريخ قصة أعظم منها وأغرب منها وأجمل منها في الوفاء والإخلاص والبطولة، وفي الإيمان واليقين والخلق الكريم، وقد هزَّ قلبي قول أنس بن النضر للذين جلسوا وألقوا بأيديهم وقالوا: قُتِل رسول الله ﷺ! قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، وقول القائل: «إني لأجد ريح الجنة من دون أحد»، والذي كانت أمنيته الأخيرة أن يصل إلى رسول الله ﷺ وهو في آخر

عهده بالدنيا، فحملوه إليه وهو يجود بنفسه، ولفظ نفسه الأخير بين قدمي رسول الله ﷺ، وكيف ترَّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقع النَّبْل في ظهره، وهو منحنٍ عليه، إلى غير ذلك من أحاديث الحب والتفاني، وهكذا أتابع قراءتي لهذا الكتاب، وقد يغلبني البكاء فأبكي، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب.

إنَّ الحسنة التي لا أنساها لهذا الكتاب وصاحبه المخلص، أنه أثار في قلبي كامنَ الحب الذي لا لذة في الحياة بغيره، ولا قيمة للحياة بغيره، وقد صدق الشاعر الفارسي[1]، حيث قال: (قاتل الله ذلك اليوم الذي مضىٰ ولم أذق فيه لذة الحب، وسحقاً للحياة إذا قضيتها كلها في تحكيم للعقل والخضوع للمنطق).

بل إنَّ الحب هو محصول الحياة ولب اللباب، وقد أجاد القائل الذي يقول: «نظرت في هذا العالم فإذا هو بيدر[2] واسع ونظرت فيه فإذا (الحب) هو الحب الوحيد، وكل ما عداه فهو تبن وحشيش، وهشيم وحصيد».

هذا هو (الحب) الذي امتاز به من امتاز من الأبطال ونوابغ الرجال والعبقريين بين أقرانهم وأمثالهم، وعاش به من عاش من الضعفاء وأوساط الناس، وخلَّف آثاراً عجز عن إنتاجها أقوىٰ الرجال وأغناهم، وملكه الرجال فقهروا الأمم، وملكته الأمة فقهرت العالم.

هذا هو (الحب) الذي أفلست فيه هذه الأمة في العهد الأخير فملكت مالاً طائلاً وعلماً واسعاً، وجاهاً عريضاً ودولاً كثيرة، ولكنها أفلست في (إكسير الحياة) فأصبحت جسداً ميتاً تحمله الحياة على أكتافها.

هذا هو(الحب)الذي كان أعظم الطبقات إفلاساً فيه الطبقة العصرية

---

(١) هو شاعر الفارسية البارع الهندي الأمير خسرو من رجال القرن الثامن الهجري.

(٢) البيدر الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس.

المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أخواها روحاً، وأضعفها مقاومةً، وأخفها وزناً، وأكدرها حياةً، وأضلها عملاً.

وشكراً لهذا الكتاب وصاحبه لأنه أثار في نفسي كامن الحب وحرَّكه، وشكراً على أنه وجَّه هذا الحب المنبعث المتحرك إلى من يستحقه بما فُطِرَ عليه من معاني الحسن والإحسان، ومعجزات الجمال والكمال، الذي لم يخلق الله في هذا الكون ـ وهو الخلّاق المبدع ـ أجمل منه سيرةً وصورة، وأقوم منها خَلقاً وخُلقاً، ﷺ.

إنَّ مصيبة هذه الأمة البائسة أنها قطعت صلتها عن القلب وحرمت لذة الحب، وقد صدق شاعر الإسلام محمد إقبال إذ قال: «إنَّ كارثة المسلمين في هذا العصر أنهم يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب، إنهم يملكون مادة الحب ولا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه».

سلامُ الله عليك يا سليمان[1]، لقد وجدت في كتابك نعمتين لا أعدل بهما نعمة بعد نعمة الإسلام، إنما هما نعمة الحب الطاهر، ونعمة هدفه الصحيح ويا لهما من نعمة.

* * *

(١) هو محمد سليمان المنصور فوري مؤلف كتاب «سيرة رحمة للعالمين» الذي يتحدث المؤلف عن تأثير كتابه في تكوينه العلمي والعملي.

تحـدثت عن الكتب التي كـان لهـا ــ ولا يـزال ــ فضـل كبيـر عليَّ في ما أدين به من عقائد وآراء، وما أتَّسم به من ميول ونزعات، وما أعيش فيـه من آمال وأحلام، وهي في الموضـع الأول في المكتبة الإسلامية بمـوضوعـاتها، تدور حول السيرة النبوية وعصر الصحـابة ــ رضي الله عنهم ــ فـلا غرابـة إذا كان تأثيرها كبيراً وعميقاً في عقلي ونفسي.

ولكن حيـاة الإنسان وانـطباعـاته ليست خـاضعة لنـظام علمي مرسـوم، فلا يقرأ إلّا الأقـدم فالأقـدم، والأهم فالأهم، فكثيـراً ما يقـع إليـه كتاب كـان محله في آخـر الكتب التي يقرأهـا، لو سـار على نظام مـرسوم وطـالـع تحت إشـراف عالم كبيـر، ودارسٍ خبير، ولكن يقفـز إليه هـذا الكتـاب على حين غفلة من مـراقبيه أو من غيـر إرادة منه، فيعمـل عمله ويتبين بعد ذلـك أن هذا الكتاب قد جاء على قدر، وأنه هو الكتاب المطلوب في ذلك الوقت.

* * *

إرشـاد رحمـاني

وقـع إليَّ كتـابٌ صغير في أردو، اسمـه «إرشاد رحمـاني»، من تـأليف العالم الرباني الشيـخ محمد علي المونكيري مؤسس «ندوة العلماء»، ذكر فيه في أسلوب طبعي مؤثر، مقابلاته مـع بعض كبار المخلصين والعلماء الربانيين في عصره، وخصَّ بالذكر شيخه مولانا فضل الرحمن الكنـج مراد آبـادي عليه رحمـة الله، وكيف تعرَّف بـه، وكيف كانت زيـارته الأولى في كـانفور، وكـان يومئذ طالباً يدرس الفلسفة والمنطق شأن طلبـة العلم في عصره، وكيف قـابله الشيـخ كأنه كان منه على ميعاد، وقال: «هذا ولدي»، وسأله عن الكتب التي يقرأها، ولما ذكر كتب الفلسفة والمنطق امتعض الشيـخ وقـال: «نفرض أنـك قرأت هذه الكتب وبـرعت في هذه العلوم «اليـونانيـة» فماذا بعـد؟ وأيُّ فائـدة تجتنيهـا؟ امش معي إلى قبر رجـل لم يعرف من هـذه العلوم قليـلاً ولا كثيـراً، ولكن عـرف الله وكان لـه معـه شأن، ثم امش معي إلى قبـر فـلان من أئمـة المنطق ومن كبار المؤلفين في هـذا الموضـوع، ترَ عجباً وترَ فَـرقاً واضحـاً، وذكر كيف تملَّكه حب الشيـخ، وكيف كانت له معه محادثات ومقابلات حتى استأثر به الشيـخ، وكان من أخص أصحابه، وذكر سيرتـه وتجرُّده من أسبـاب الدنيا، وإقباله إلى الله بقلبه وقالبه، واطراحـه على عتبة عبـوديته، وشـدته في اتبـاع السنّـة والتمسـك بمـا ثبت منهـا وصـحَّ في الأذكـار والأدعيـة والأفعـال والأحوال، كنت أقرأ ذلك ويسيغه عقلي الصغيـر ويلتذُّ بـه شعوري، وأعجبني بصفة خاصة أبيات كان ينشدهـا الشيـخ، تدل على أنـه كان صـاحب عاطفـة

قـوية، ويغلي في قلبه مـرجـل الحب والحنـان، فيتسلىٰ بهـذه الأبيـات التي ينشدها في بساطة، وكأنه يعتذر إلى من يعد ذلك نكراً ويقول:

سقـوني وقالـوا: لا تُغَنِّ ولـو سقـوا ... جبـال سليمى مـا سُـقيـت لغَـنَّت

وقريباً من تلك الأيام صادفت ورقات مطبوعة لـوالدي السيـد عبد الحي الحسني رحمـه الله سمـاهـا «استفـادة» قصَّ فيهـا قصـة رحـلاتـه إلى الشيـخ فضل الرحمن عليه رحمة الله، كان يومئذ طالبـاً في لكهنؤ، بَلَغَتْهُ وفـاة الشيـخ فتأسف على ذلك أسفاً شديداً ثم بَلَغَه نفي هذه الشائعـة، وأنَّ الشيـخ لا يزال حياً، فشدَّ الـرحل إلى كنـج مـراد آباد، وقـطـع مسافـةً طويلة لم يقـطعها في عمره من قبل راجـلاً وهو لا يشعـر بالكـلال والتعب في شدة الشـوق، ووصل إليه وهو مضطجـع وعنده أصحابه فسأله عن وطنه، فلما ذكر والدي رحمه الله أنـه من رائي بريلي من زاويـة العـارف بـالله الشيـخ علم الله الحسني، حَـوَّل الشيـخ جنبه وقال: «لقد كان عَلَماً».

يقول والدي رحمه الله: لا أذكر أني وجدت في قيام الليل لذة وجـدتها في تلك الليلة، وأخذ الشيـخ بيدي من غير طلب مني ولقنني كلمات التـوبة، وحثّني على قـراءة «الحصن الحصين» مجمـوع الأدعيـة والأذكـار المـأثـورة للجـزري، وقال: أعـرف مئات من النـاس أكرمهم الله بـالولايـة بقـراءة هـذا الكتاب والتزام الأدعية المأثورة.

وهنالك تملكته العاطفة وأنشأ ينشد الأبيات الرقيقة بـالفارسيـة والأردوية والهنـدية، منهـا بيت في الأردوية معنـاه: (لا تتعب نفسـك يـا من يبحث عن القلب في صدري، إنما هي جثوة من رماد فيهـا النار كـامنة)، وبيت للحكيم السنائي الشاعر الفارسي المعروف معناه: (أسخن الله عين السنـائي، إذا أراد أن يعيش ويقضي أيـاماً غيـر متبـع سنة الـرسول)، وبيت بـالهنديـة لغة الهنـد

القروية معناه: (إنَّ عيناً حَلَّ فيها المحبوب ووقع منها كل موقع، لم تبصر الجمال في غيره).

وكان من عادة الشيخ رحمه الله أنه كان يقرىء الجامع الصحيح للبخاري كل يوم، وكان له شغفٌ زائد بالحديث وغرام لا يكاد يعدل به ــ بعد القرآن ــ شيئاً، وكان إذا قرأ الدرس ترنحت أعطافه وفاض خاطره، وكان كبير الإعجاب بالجامع الصحيح بصفة خاصة، وكان يقرأ الدرسَ كل يوم مرة أو مرتين، وكان والدي سعيداً جداً إذا قرأ الشيخ له الدرس ثلاث مرات، وبقي الوالد يلتذ بهذا الدرس طول حياته ويذكره بلذة غريبة وسرور عظيم، ويقول: لا أستطيع أن أصف هذا الدرس وحلاوته وتأثيره في القلب، فليس الخبر كالمعاينة، وسمع منه الوالد الحديث المسلسل بالأولية، وهو قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» والمسلسل بالمحبة، وهو الحديث المشهور: «يا معاذ إني أحبك فقل: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وقال الشيخ: سمعته أذناي من شيخنا الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، وأنا أجيزك بروايته.

وقرأت بعد ذلك مقالة للسَّري الفاضل المؤلف البارع، الشيخ حبيب الرحمن الشرواني، رحمه الله، وزير الأمور الدينية في إمارة حيدر آباد، ومن أعظم الأغنياء والوجهاء في عصره «نواب خورشيد جاه بهادر»، وكانت زيارته الملوكية وما أنفق في طريقه إلى (كنج مراد آباد)، مقر الشيخ من نفقات عظيمة، حديث المجالس والنوادي، وكل من صادفه في الطريق حدثه عن هذه الرحلة العظيمة، وعن هذه الأريحية الكبيرة، وعن غنىٰ الزائر العظيم، وعن ركبه وخيامه وحشمه، ولكنه لما وصل إلى (كنج مراد آباد) لم يسمع له ذكراً، وكأنَّ هذا الأمير الذي دوَّت له الأرجاء وصفق له الجمهور وتحدّثت به المجالس لم يزر هذه القرية الصغيرة، ولم يسترعِ اهتمامَ أحد، لم يسمع

في هـذه القريـة خبراً عن ذي جـاه كبير ومـال وفير، إنمـا هو حـديث عن الله والرسول، كأنَّ هذه القرية لا شـأن لها بـالعالم، ولا صلة لهـا بالخـارج، إنما هي جزيرة منقـطعة يسـود فيها السلطان الـديني ويحكم فيها عبـد من عباد الله المخلصين تحرَّر من سلطان المادة فدانت له الدنيا، وأعرض عن الدنيا فأتتـه راغمة، قال: ولم أرَ نفسي أصغر في عيني منها ذلك اليوم.

وسمعت الشيـخ حبيب الـرحمن يتحـدّث كثيـراً عن شيخـه ويحكي حكاياتٍ في زهـده وكبر نفسـه وإخلاصـه واستخفافـه بأهـل الدنيـا وأصحاب الـوجاهـة والأموال، وقـرأتُ لغيره كـالشيـخ تجمل حسين البهـاري، والسيـد نور الحسن ابن المؤلف الشهير الأميـر السيد صـديق حسن خان والي بهـوبال كتباً ورسائل، وأكثر أعضـاء الندوة من تـلامذة الشيـخ ومـريديـه، فأمكنني أن أعـرف الشيء الكثير من سيـرته وأخبـاره، وكان كله معجباً مطربـاً يملأ القلب بالإيمان ويحقر المادة وعُبَّادها، ويعظِّم الدينَ وأهلَه.

فمن ذلك أنَّ حاكم الولاية الإنجليزي قصد زيارته مـرةً وشاع ذلـك في الناس، ووصل إلى (كنـج مراد آباد) فأهمَّ الناسَ وشغل خاطـرهم، وذلك لأنَّ الإنجليـز كـانت لهم صـولـة في البـلاد بعـد عــام (١٨٥٧م) لا تقـدر الآن، ولا يستـطيـع هذا الجيـل الذي نشـأ بعد حـركة التحـريـر أن يفهمهـا ويعـرف خـطرها، وكـانت زيارة حـاكم كبير يحكم ولايـة من كبرى الـولايـات الهنـدية ـ هي الـولايـات المتحـدة آكـره وأوده ـ حـادثـة ذات شــان، واهتم النـاس بـاستقبالـه، وقد عـرفوا أن الإنجليـز لا يجلسـون إلّا على الكـراسي، وزاويـة الشيـخ فقيرة ليس فيها كرسي ومقاعـد حديثـة، وعرف الشيـخ اهتمـام الناس واستخفَّ باهتمامهم بهذا الأمر التـافه الـذي لا ينبغي أن يشغل قلب المؤمن: فتساءل: ما يهمكم يا جماعة؟ قالـوا: حاكم الـولاية يـزور الشيـخ وليس ههنا مقعد لائق به.

وكـأنَّ الشيـخ أراد أن يلقي عليهم درسـاً في الإيمـان، ويـريهم منـزلـة

أربـاب الدنيـا في عين أهل الـدين، فقال: ويحكم أليست هنـا جَـرَّة نشـرب منهـا؟ قالـوا: بلى، قـال: فنقلبهـا، ويجلس عليهـا، وسكت النـاس، وجـاء الحـاكم فلم يكن من الشيـخ إلّا أن أشار إليـه بالجلوس، ولكنـه بقي واقفـاً، وحادثه الشيـخ كما يحادث من لا شأنَ له من الناس ولا خطر، وانتقد حكومته وقال: قد فشت الـرشوة في حكمكم فشـواً كبيراً، والحـاكم مُنْصِتٌ خاشـع، وقـرينته جـالسة تسمـع، وقـال: إنَّ فيكم وقاحـةً وقلةَ حياء ـ يشير إلى سفـور المرأة ـ، ثم انصرفا وانصرف الناس إلى أشغالهم وعادت القرية إلى هدوئها.

وحكىٰ لي الشيـخ حبيب الـرحمن أنـه أهـدى إليـه يـومـاً في المســاء خمس مائة روبية، وهو مقدار كبير من المال في عصر الشيـخ ــ فقد توفي في فجر هذا القـرن ــ فقال: عليَّ بـالحمالين والعملة فقـد أشرف جـداري على التهـدّم، وجاء الفقـراء وأهل الحـاجة، وهم يعـرفـون عـادة الشيـخ فـاشتغلوا بـالجـدار ومـا عليـه بـأس، إنمـا هي حيلة الشيـخ لتـوزيـع المـال على ذوي الحاجة والخصاصة المتعففين الذين لا يسألـون الناس ولا يفـطن بهم الناس، ثم وزَّع عليهم المـال كله ورجعـوا إلى بيـوتهم، وعـرض لـه بعض أصحـابـه وقال: إنا لم نرَ بجدار الشيـخ بأساً فما الداعي إلى هذه العجلة؟ فقال: كيف لـو سقط الجدار وتهـدَّم البيت؟ وعـرف الـرجـل أنـه حـرص الشيـخ على أن لا يبيت، وعنده درهم أو دينار وإنما هو اتباع النبـي ﷺ.

إنَّ مثـل هذه الحكـايات والأخبـار ــ وقـد رويت عن غيـره من الأوليـاء المتقدمين وعباد الله الصالحين ــ أفادتني كثيـراً، وكانت دراستي لهـذه الكتب والرحلات في ريعان الشباب ومقتبل العمر سعادة عظيمـة، فقد تعـرفت بطراز آخر من الرجال غير الطراز الذي عرفته ونشـأت معه، والـذي كنت أراه حولي في عصر قد طَغَت فيه المادية وقويت فيه الدعوة إلى المال والوظيفة، وأصبح النـاس يقاسـون بمقياس واحـد وهو مقيـاس (الرواتب والإيراد). كـان الشيخ فضل الرحمن يمثل هذا الطراز الذي يعيش بالإيمان ويعيش للإيمان، والـذي

صغرت في عينه المـادة وهان أهلهـا وجلَّ الـدينَ ورجالَـه، والذي كـان يمثل بأخلاقـه وحياتـه ذلك «اليقين» الـذي امتاز بـه عصر الصحـابة والمؤمنـون في القرون الأولى، وذلك (الحب) والعاطفة القوية التي نجد فيها لذة الحياة ولذة الإيمان، ويسهل معها علينا الاتباع الكامل للأحكام والتغلب على الشهوات، ومتابعة النبـي ﷺ واقتفاء آثاره.

وقـد أحسنت إليّ هذه الـدراسة من نـاحية أخـرى، فقد عـرفت بها أنَّ الـطبيعة الإيمـانية لا تـزال منتقلةً من جيل إلى جيـل، وأنَّ المصابيـح بعضهـا يشتعـل من بعض، وأنَّ الله قد تكفَّـل بحفظ هذه الخصـائص الإيمـانيـة كمـا تكفَّل بحفظ مصادر الدين.

لقـد نشأت بفضـل هـذه الـدراسـة على حب هـذا الـطراز الـرفيـع من الإيمان والإخلاص وإجلاله، وكـان العاصم لي من الانـدفاع إلى شخصيـات عظيمة في العلم، صغيرةٍ في المعاني الإنسانية، غنية في المظهـر، فقيرة في (الحقيقة)، تضاف الفضـائل إلى أصحـابها ـ من شهـادات يحملونها ورواتب يتقـاضونهـا، وقصور يسكنـون فيها وحكـومـات يتجمّلون بهـا ـ ولا تنبـع من نفـوسهم وقلوبهم ولا تتصل بشخصيتهم، فهم إذا تجـردوا منهـا أو سلبـوهـا، أفلسـوا إفلاسـاً كامـلاً وماتـوا قبل أن يمـوتوا، بـالعكس من أصحاب الإيمـان والإخـلاص والصدق والتقـوى والـزهـد والقنـاعـة وكبـر النفس وغنىٰ القلب، فلا يمكن تجريدهم من هذه الفضائل وحرمانهم ثروتهم.

لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على رغبـةٍ صادقـة في الاجتماع بـأمثال هؤلاء والبحث عنهم، انتهت بـي إلىٰ الوصول إلى بعضهم الـذين سأتحـدث عنهم، والذين كان لهم فضل كبير في منهـج الحياة الذي آثـرته أخيـراً وأحب البقاء عليه.

* * *

الــفــاروق

للعـلامة شبـلي النعـماني

صـادفت كتاب «الفـاروق»، للعلامـة شبلي النعمـاني الـذي صـدر من مطبعة نامي بكانفور ففتنت بالتصوير الصادق والعرض الساحر، وقرأته مرات، ولعل تأثير وصف حروب العـراق بويب وجسـر والقادسيـة بقلم العلامـة شبلي النعماني، بجمله الموجزة السلسة الأخَّـاذة، العفويـة غير المصـطنعة، تفـوق تأثير الأشعار المتتابعة المتسلسلة للفردوسي وألفاظه المنمقة المفخمة المبالـغ فيها.

إنَّ ألفـاظ «الفاروق» الفخمـة وحرارة جمله وعبـارته تنـزل كـالصـاعقـة وتمضي كالسيوف والأسِنَّة، إنَّ المجهود الذي بذلـه العلامـة للدفاع عن نـظام الخلافة كان فوق وعيـي واستعدادي في ذلك الوقت لإدراكه وفهمـه، ولم يعد يهمني اليوم علمياً، ولكن الجـزء الذي يشتمـل على عرض الـوقائـع وتصـوير الحوادث كان أثرها قد خلَّف تأثيراً عميقاً في نفسي في تلك الأيـام، ولم يزل يحمل بعض ذلك التأثير إلى اليوم.

* * *

تاريـخ كجـرات

استوحيت في الكتابة في اللغة الأردية من كتاب والدي رحمه الله: «تاريخ كجرات»، الذي كان نموذجاً رائعاً للأسلوب الرصين والكتابة الرشيقة، وقد جمع فيه جدية الأسلوب التاريخي مع رقة التعبير والطلاوة، والذي أعتقد أنه ميزة مشتركة لوالدي والشيخ حبيب الرحمن الشرواني، وأذكر أنّ أول مقال كتبته في هذا الأسلوب كان حول الأندلس.

* * *

زاد المعاد في هدي خير العباد

لابن قيم الجوزية

بـدأت أطالـع ـ وأنـا في سن المراهقـة الفكريـة ـ كتباً غيـر مـرتبـطة بـالمنهـج الدراسي، فـاستهللت مطالعتي بكتـاب «زاد المعاد في هـدي خيـر العباد» لابن قيم الجوزية، فحلَّ مني محلاً عظيماً، فكأنـه مكتبتي ورفيقي في السفـر، ومشرفي وأستـاذي، وبدا لي كممثـل بـارع عـظيم للمكتبـة الـدينيـة العامرة، يملأ الفراغ إذا حرمتُ من الاتصال بهذه المكتبة الزاخرة، إنه علمني طـريقة الصـلاة المـأثـورة عن النبي ﷺ ولقّنني الأدعيـةَ والأذكـارَ المـأثـورة، وهـداني إلى آداب السفـر، وبـه عـرفت كيف أقضي نهـاري وليلي في ضـوء السيرة النبوية.

* * *

قيــام الليــل

لمحمد بن نصر المروزي

ومن الكتب التي أفادتني كثيراً في مقتبل عمري، وكـانت لها مِنَّـةٌ عليَّ كتاب «قيام الليل» لمحمد بن نصـر المروزي البغـدادي، أحد تـلاميذ الإمـام أحمد بن حنبل، ومن خصائص هذا الكتـاب أنه لا يخـاطب العقل ولا يعتمـد على الـدليل فحسب، بـل يَضرب على أوتار القلب ويمس سـويـداء النفس، ويغير وجهة الهواية والشوق، وبهما العبرة. إنه أتى في كتـابه بقصص للسلف وتدبرهم في القرآن وفهمهم له، وجمـع فضائل قيام الليل بـطرق بديعـة مؤثرة إذا قُيِّض لشـاب في ريعـانـه أن يعكف على دراستـه، أصبـح هــذا الكتـاب كمربٍ ومرشدٍ كامل له.

* * *

تفسير سورة النور

لابن تيمية

والجواب الكافي عـن الدواء الشافي

لابن قيِّم الجوزية

وقد أرشدني أيضاً تفسير شيـخ الإسلام ابن تيمية لسورة النور، وأفادني في فترة المراهقة الدقيقة والبيئة المـوبوءة إفـادةً كثيرة، وكـذلك كتـاب تلميذه الأكبـر العلامـة ابن قيم الجوزيـة «الجواب الكـافي عن الدواء الشـافي» فكان لهما فضل كبير في الحضانة الخلقية والتماسك الديني الخلقي.

*   *   *

تعليـم المتعلـم

للـزرنـوجـي

إنَّ الكتـاب الـذي حضَّني على الاحتـرام للكتـاب والأستـاذ وعلى الاستفادة منهما، وأرسـخ فكرة التمسك بـآداب طلب العلم، هو كتـاب صغير لتلميذ صاحب الهداية «تعليم المتعلم».

*   *   *

مذكـرات والـدي

عثرت خلال البحث عن مؤلفـات والدي ــ رحمـه الله ــ على مذكـراته التي قيدها وهو في الثانية والعشرين من سنه، وهو برنامـج يـومي للرحلة التي قـام بها في أيـام الطلب سنـة ١٣١١هـ (١٨٩٤م) للاستفـادة من كبـار العلمـاء والمشـايخ، وزيارة الأمـاكن الأثريـة التـاريخيـة في دلهي، ومـا جـاورهـا من البلدان والمراكز الدينية والعلمية، وقد أثَّر في قلبـي تأثيـراً جذريـاً عميقاً رغم بساطة ألفاظها وسهولة تعبيرها، وتغلغل في أحشائي حب العلمـاء الربـانيين، وذقت حـلاوةً ما وجـدتها في كتب الأدب والشعـر والقصص والروايـات، وبها نشـأ في قلبـي حب الإمام أحمـد بن عـرفـان الشهيـد، وملك قلبـي وعقلي، فكلما ذكره الوالد ترنّحت أعطافي واهتـزّ قلبـي، وطربت نفسي، وذاق القلب لذة عجيبة.

* * *

الإسلام على مفترق الطرق

لمحمد أسد

واطلعت على نقائص الغرب الحقيقية، وأدركت طبيعة الثقافة الغـربية، واستحالة انسجامها بالثقافة الإسلامية، وعرفت التناقض الجذري المبدئي بين هاتين الثقافتين بصورة واضحة وضّـاءة، وبعمق وإمعان، من كتـاب (Islam at the Cross - Roads) (الإســلام على مفتــرق الطرق) لمؤلفــه محمــد أســد (Leopold Weiss) ســابقاً، فنـزلت هذه المحـاكمـة العـاقلة العـادلـة في قـرارة النفس، ومست شغاف القلب.

* * *

نـزهة الخواطـر
وبهجة المسامـع والنواظر[1]

إنَّ أكبـر ثـروة للتـاريـخ العلمي والـديني والإسـلامي في الهنـد كـانت موجودة في البيت، وكان ذلك كتاب والدي «نزهة الخـواطر وبهجـة المسامـع والنواظر» في ثمانية مجلدات[2] فقـرأتها أكثـر من مرة، وبـذلك تمثّـل تاريـخ الهند الإسلامي العلمي الإسلامي في شبه القارة الهنديـة منذ دخلهـا الإسلام في صورة حَيّة واقعية، واطّلعت على أوضاع الملوك والأمراء، وأرباب الكمال وحملة راية الإصلاح والتجديد، والمؤلفين الكبار والكتّاب البـارعين، وعثرت على نكتهم اللطيفـة وفـرائـدهم الـدقيقــة، ولم يكن من الممكن أن ألمَّ بهـا إلاّ بـالبحث الدقيق وبمتـابعة المؤلفـات والكتب التي تعـد بـالمئـات، وذلـك بمثابرةٍ مستمرة وجهد بـالـغ، إنما كـان هذا كنـزاً ثميناً للمعلومـات والثقافـة، لا يمكن لمن يبحث في مـوضوع يتصـل بالهنـد وعهدهـا الإسلامي أن يغضَّ البصرَ عنه، وقد وجدت في هذا الكتاب دائماً متعة روحية، ولذةً أدبية وفائـدةً علمية، وهو من الكتب المعدودة التي لا أملُّ قراءتها على كثرتها وتكرارها.

(وقد صبَّ المؤلف في هذا الكتاب مواهبـه وسجايـاه، فجاء قـطعة من نفسه، ونسخة من روحـه، صفاءَ حس، ورقـةَ شعور، وانـدفاعـاً إلى الجمال والكمال أينما وُجِدَا، واعترافاً بالفضل أينما حل واستقر، واقتصـاداً في المدح

---

(١) سيصدر هذا الكتاب عن دار القلم بدمشق بطبعة جـديدة إن شـاء الله، تحمل اسم: «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام».

(٢) يحتـوي هذا الكتـاب على أربعة آلاف وخمس مئة تـرجمـة لأعيـان الهنـد من كـل الطبقات والعصور، طبعته دائرة المعارف العثمانية في حيدرآباد الهند.

والنقد، وتنبيهاً لمواضـع الضعف ومما لا يخلو منه بشر، وعذوبةَ عبارة، وخفّةَ روح وتنوع مادة)[1].

كان من سوء حظي أني ما قدِّر لي أن أستفيد من والـدي مباشـرةً لصغر سني، ولكن رحم الله والـدي، وأغدق عليه شآبيب رحمتـه إذ ترك لنـا ثـروةً علمية زاخرة، سنحت ــ لفضلها ــ لنا فرصةً للاستفاد من علمه ومجهوده طيلة حياتي.

* * *

---

(١) القطعة بين الهلالين مقتبسة من تقديم الجزء الثامن للكتاب بقلم كاتب السطور.

الدين والعلوم العقلية

(وقع بصري خلال الدراسة والمطالعة على كتاب صغير للأستاذ عبد الباري الندوي أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية حيدر آباد، عنوانه «مذهب وعقليات»[1] وقد وقع مني موقعاً عظيماً، فقد عَيَّنَ المؤلف فيه حدودَ العقل والنقل ومجالات عملهما في دقة وإنصاف، ووضَّح قِصَر باع التجربة الإنسانية والعلم الإنساني وعدم استحكامهما، ووضَّح ما يمتاز به علم الأنبياء والمرسلين من القطعية والبعد عن كل ريب، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه﴾، فحالفتني هذه المعلومات في الدراسة والمطالعة، فقرأت بعدئذ كل ما عثرت عليه من كتب متعلقة بالفلسفة القديمة والجديدة وتاريخهما، ولكن لم تزلزل القواعد البدائية التي رسخت في التخيل، بل كلما توسعت في المطالعة والدراسة تجلىٰ لي صدق قوله تعالى: ﴿إنْ هم إلاّ يخرصون﴾، وقوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾، وأعانني على ذلك تفسير سورة الإخلاص لشيخ

---

(١) نقله الأستاذ واضح رشيد الندوي إلى العربية بعنوان «بين الدين والعقل» أصدرته مكتبة المختار الإسلامي في القاهرة، ثم صدر في طبعة جديدة متقنة بدار ابن حزم ببيروت بعنوان: «الدين والعلوم العقلية» وقدم له الأستاذ أبو الحسن الندوي حفظه الله.

الإسلام الحافظ ابن تيمية وكتاب «النبوءات» له بلطائفه وإشاراتـه، وقد أحكم هـذا الارتسام وأثبتـه رسـائـل المجـدد الكبيـر الشيـخ أحمـد بن عبـد الأحـد السَّرهندي)[1].

* * *

(١) القطعة بين القوسين من ترجمة السيد عبـد الله بن محمد الحسني، مقتبسـة من مقال المؤلف الذي جاء في كتاب «الكتب التي أفادتني» لكبار الكتاب والعلماء في أردو.

كتب قدّمتُ لها

إظهار الحق[1]

للإمام العلّامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي المدرِّس بالمسجد الحرام، ومؤسِّس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة

يُسعد كاتب هذه السطور أن يكتب في موضوع يتصل بعَلَم من أعلام هذه الأمة، قيَّضه الله للذبِّ عن حوزة الإسلام، وإظهار الحق، وإزالة الشكوك، وإزالةِ الأوهام[2]، حين كان الخوض في هذا الموضوع مجازفةً بالحياة ودعوة للموت الزؤام، وأتى في ذلك بحجج وبراهين لم يسبق إليها، ولقي خصومه على يده من الهزيمة والانتكاس ما لم يلقوه من قبل، وانتهت إليه الرئاسة في هذا الفن في القرن الرابع عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي)، وطبقت شهرته الآفاق وسلَّم له معاصروه وأقرانه وعلماء العالم الإسلامي بالإمامة والزعامة في هذا الموضوع، ألا وهو مولانا (رحمة الله الكيرانوي)، مؤلِّف هذا الكتاب «إظهار الحق»، ومؤسس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة، ودفين المعلاة (١٢٣٣هـ ـ ١٣٠٨هـ).

مأثرةٌ عظيمة تكفي للبلوغ به إلى درجة العلماء الخالدين والأبطال المجاهدين، أنه وقف في الدفاع عن الإسلام وتمحيص الحق والباطل

---

(١) طُبع الكتاب على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر بعناية سعادة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مدير الشؤون الدينية، ومراجعته، سنة ١٤٠١هـ (١٩٨٠م).

(٢) تلميح بأسماء مؤلفات العلامة الشيخ محمد رحمة الله الكيرانوي المكي الثلاثة الشهيرة وهي: «إظهار الحق»، و«إزالة الأوهام»، و«إزالة الشكوك»، وله كتاب رابع في نفس الموضوع وهو «أصح الأحاديث في إبطال التثليث».

ودحض الشبهات وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ورفع معنوياتهم، واعتزازهم بفضل دينهم على الأديان كلها، وإعجاز كتابهم وخلود رسالة نبيهم ﷺ في أحوال رهيبة وساعات عصيبة، ووقف في وجه خصوم[١] كانوا ينتمون إلى الفاتحين الذين يتمتعون بأكبر سلطة وقوة في ذلك العصر، وحكومات قوية ومملكة لا تغرب عنها الشمس، ومدنية زاهرة دافقة بالحياة والنشاط، وكان هو بالعكس ينتمي إلى شعب[٢] جريح القلب والجسم، متحطِّم الأعصاب، ضعيف الثقة بتراثه وأمجاده، يعيش في عزلة عن العالم، ينظر إليه الإنجليز كالمنافس الطبيعي الوحيد، والخطر الحقيقي على زحفهم وتقدمهم في آسيا وأفريقيا بصفة خاصة، وقد انتشر القسس ـ النصارى الأوروبيون والمتنصِّرون الهنود ـ، في مدن الهند وقراها، بحماس زائد ونشاط كبير، يدعون أنصاف المتعلمين والأميين إلى دين الفاتحين الأقوياء الأغنياء الذين حالفهم الجد، وواكبهم النصر في كل ميدان، وكفى بذلك دليلاً على صدق الدين الذي يدينون به في عيون الجهلاء الضعفاء.

وقد ضعفت معرفة علماء المسلمين ـ فضلاً عن عوامهم ودهمائهم ـ بالنصرانية ومصادرها ـ بما فيها العهد القديم والجديد وشروحهما وتفاسيرهما وتاريخهما ـ وتطورها وارتقائها، وما طرأ عليها من تغييرات وتحويلات، وما مرَّ بها من أحداث وما عبث بها من حكومات ومجامع، كانوا في شغل شاغل بما كانوا يدرسونه من علوم دينية شرعية، أو فنون عقلية يونانية[٣]،

---

(١) القساوسة الأوروبيون.

(٢) الشعب المسلم الهندي.

(٣) يستثنى من ذلك أفذاذٌ من أصحاب الاختصاص في دراسة الديانات الأجنبية والاطلاع على العهد القديم والجديد، من علماء أسرة حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي، الذين كانوا يدرسون التوراة والإنجيل مع ما يدرسونه من الكتب والصحف، والشواذ من علماء الهند المتبحرين أمثال العلامة السيد آل حسن =

وبحوث كلامية وفقهية، وتحقيقات تفسيرية وحديثية، فكان هذا الزحفُ العلميُّ والعقائدي مفاجأة لعلماء المسلمين، شبيهة بتبييت أو غارة في ظلام الليل، وكان الوقوف في وجهها ومقاومتها يحتاج إلى شجاعة معنوية، وحمية دينية متأججة، وصبر طويل، وهمة عالية، تحثُّ على دراسة المسيحية من ينابيعها الأصلية، واستعراض واسع لما كتب عنها، إثباتاً ونفياً، وتوثيقاً ومعارضةً، ونقداً وبحثاً، وكان الذي يبدأ بهذه الرحلة الطويلة المضنية يشعر بأنه سائرٌ في نفق طويل مظلم.

وكانت وسائل هذه الدراسة وموادها مفقودة أو نادرة ندوراً كبيراً، وقد وضع أكثرها في اللغات الأجنبية، وكان من أقربها إلى علماء هذه البلاد ــ شبه القارة الهندية ــ اللغة الإنجليزية، وكانوا حديثي العهد بها، وقد زهّدهم فيها وكرَّهَها إليهم أنها لغة الفاتحين المهينين لهم، ولايتوقع وجود هذه المصادر في هذه البلاد لأنَّ ذلك ينافي مصلحة الدعوة إلى النصرانية، ويضعف موقف الدعاة إليها، ويثير عليهم مشاكل جديدة، فكانوا على إقصائها من هذه البلاد أحرص منهم على جلبها أو تزويد المكتبات بها.

كل ذلك كان يعقّد مهمة الشيخ رحمة الله وزملائه، الذين وهبوا حياتهم للدفاع عن الإسلام، ودحض الشبهات حوله، والوقوف أمام القسس و (المبشرين) ــ كما كانوا يسمون أنفسهم ــ في موقف الدفاع بدل موقف الهجوم، وتلك هي الحكمة الحربية (والاستراتيجية) الجدلية التي ما زالت ولا تزال سياسة القادة المحنّكين، والحذاق العسكريين، ولكن ذلك لم يفت في عضد الشيخ الذي هَيَّأه الله ليخوض هذه المعركة الحاسمة التي لا بد أن

= الموهاني (١٢٨٧هـ) صاحب كتابي (الاستفسار والاستبشار)، والشيخ عنايت رسول الجرياكوتي (١٣٢٠هـ) صاحب كتاب (البشرى) الذي درس اللغة العبرانية وأتقنها.

يخوضها الشعب المسلم الهندي الذي واجه الدعوة المسيحية وجهاً لوجه، قبل أن يواجهها شعب آخر في قطر إسلامي أو عربي، فكان يتوقف عليه مصير الشعوب الإسلامية والشعوب العربية كلها، التي كانت هذه الدعوة في طريقها إليها، فإذا قدَّر الله أن يخرج هذا الشعب الأعزل المثخن بالجراح من هذه المعركة الجدلية الكلامية والعلمية الاستدلالية، فاتحاً مظفراً، مرفوعَ الرأس شامخاً بأنفه، تراجع هذا السيل على أعقابه أو ضعف مدُّه وطغيانه.

قام الشيخ رحمة الله وشمَّر عن ساق الجد والاجتهاد، ونذر لله أن لا يهدأ حتى يدرس مصادر النصرانية ومراجعها، دراسةً عميقة دقيقة، ويغوص فيها وينقّب. وقد شحذ عزمه على ذلك قدوم القس الطائر الصيت فندر (Funder) من إنكلترا، وقد قام بنشاط كبير وحماس زائد في مناظرة علماء الهند، وقد تحدّاهم تحدياً سافراً، وقام بجولةٍ في مديريات الهند يخطب في المجامع ويدعو إلى النصرانية، وكانت المشكلة مشكلة اللغة، وكان الشيخ لا يعرف اللغة الإنجليزية، ولتعلم اللغات الأجنبية سنٌّ طبيعية قد تخطَّاها الشيخ الذي ظلَّ زمناً طويلاً مشغولاً بالعلوم الدينية والعقلية، وكان (فندر) لا يعرف إلا اللغة الإنجليزية، فأين القنطرة التي تصل بينهما، وأين الرجل الذي يساعد الشيخ رحمة الله في الاطلاع على المصادر الأجنبية والوثائق المسيحية التاريخية؟.

هناك قَيَّضَ الله له مسلماً غيوراً ــ ولله جنود السموات والأرض ــ وهو الدكتور (محمد وزير خان الأكبر آبادي)، الذي سافر إلى لندن سنة (١٨٣٢م) يدرس الطب الجديد، وقد نال فيها شهادةً عاليةً وأتقنَ اللغة الإنجليزية، ودرس اللغة اليونانية، وعُني بدراسة المسيحية من مصادرها الأصلية واقتناء كتبها، واستصحب هذه المكتبة الثمينة[1] إلى الهند، وكان

---

(١) ساهم الدكتور في ثورة ١٨٥٧م وهاجر على إثرها إلى مكة المكرمة حيث لحق بالشيخ رحمة الله ومات ودفن بالبقيع.

عضد الشيخ الأيمن في هذا الجهاد العلمي الكبير الذي كان جهاد الساعة وواجب الوقت.

ولما أكمل الشيخ (رحمة الله) مهمته في الدراسة، وأخذ عدته وعتاده لخوض المعركة وقد استفحل أمر (فندر) ورأى أنَّ الجو قد خلا له فازداد جرأةً وتحدياً، ورأىٰ الشيخ (رحمة الله) أنه لا سبيل إلى الحد من نشاط هؤلاء القسس ــ وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس (فندر) ــ وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ومقاومة (مركب النقص) فيهم إلا مناظرة فندر في جمع حافل يحضره المسلمون والمواطنون، والحكام الأوروبيون والنصارى والمتنصِّرون، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه «ميزان الحق»[1] فخوراً متبجحاً به، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين.

حرص الشيخ رحمة الله على مناظرة القس (فندر) كل الحرص، فراسله في هذا الموضوع وألحَّ عليه بالظهور أمام الجمهور وعلماء المسلمين، واستعانَ في ذلك بكل من يرى فيه غناءاً أو تأثيراً، ولما رأى القس أنه لا مناص له من هذه المناظرة، قبلها راضياً أو مكرهاً، وهو لا يقدِّرُ نتائجها تقديراً صحيحاً، وتقرَّر عقد مجلس المناظرة في ١١ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠ من أبريل ١٨٥٤م)[2] في أكبر آباد ــ آكره، إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند، وفي حيٍّ من أحيائها المعروفة بحارة (عبد المسيح)[3].

بدأ الحفل في اليوم المعيَّن والساعة المحدَّدة، وقد حضرها ولاة

---

(١) صدرت له الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة ١٨٤٩م من آكره، والطبعة الثالثة باللغة الأردية سنة ١٨٥٠م.

(٢) قبل الثورة بثلاث سنوات.

(٣) منسوبة إلى أحد المتنصرين من أبناء البلد، ويظهر من ذلك نفوذ حركة التنصير في داخل البلد.

المديرية من حكام وقضاة وبعض كبار موظفي الثكنة الإنجليزية من الإنجليز، وحضر القس الشهير فنـدر (Funder) والقس وليم كلين (William Clean) وعدد كبير من أعيان البلد ووجهائه، ومن أبناء البلد المسلمين والمسيحيين والهنادك والسيـخ، وكـان الدكتـور محمد وزيـر خان بجـوار الشيـخ رحمة الله يسـاعده ويتعاون معه، وكانت خمس قضايا موضوع البحث والمناظرة وهي:

١ ــ التحريف في الكتاب المقدس «العهد القديم والجديد».
٢ ــ وقـوع النسخ.
٣ ــ الـتـثـليـث.
٤ ــ نبوّة محمد ﷺ.
٥ ــ صدق القرآن وصحته.

وقد تقرَّر أنه إذا انتصر الشيـخ رحمة الله في هذه المناظرة يـدخل فنـدر في الإسلام، وإن كان بالعكس يتنصَّر الشيـخ.

أسفرت هذه المناظرة ـ التي لفتت أنظار المعنيين بالقضية في داخل البلد وخارجه، وكـانت حديث النـوادي والشغل الشـاغل والمقيم المقعد في البلد ـ عن اعتراف القس (فندر) بوقوع التحـريف في ثمانيـة مواضـع من الإنجيـل، وقد أفزع ذلـك الولاة وأنصـار (فندر) وشيعتـه، ولكنه سهم أطلق من القـوس فلا رادَّ له.

وتـزايـد عـدد الحـاضـرين في الغـد، وازداد عـدد الحكـام الإنجليـز، والمسيحيين والهنـادك والسيـخ وحضـرهـا جمٌّ غفيـر من المسلمين، وأصـرَّ (فندر) على أنَّ الأخطاء التي وقعت في الإنجيل كانت من سهـو الكاتب، أمـا العبارات التي تتضمن عقيدة التثليث وألوهية المسيـح والفـداء والشفاعـة فهي من التحريف، وقد رد عليه الشيـخ بقولـه: (إنك مـا دمت قد اعتـرفت بوقـوع التحريف في الإنجيل فقـد أصبح هذا الكتـاب مشكوكـاً فيه بـرمته)، وانتهى

البحث عند ذلك، ولم يرجع القس إلى البحث والمناظرة في اليوم الثالث[1]، وكان من الواضح أنه انسحب من ميدان المناظرة، وكان انتصاراً رائعاً للجانب الإسلامي، قويت به معنوية المسلمين وتشجعوا على مواجهة القسس ورد دعاويهم، وفقدت الدعوة التبشيرية الكثيرَ من اعتبارها وقيمتها.

وبعد عامين قامت ثورة ١٨٥٧م التي كانت المحاولة الأخيرة اليائسة للتخلص من (الأخطبوط) الإنجليزي وطرح نيره، وعلى أثر إخفاقها تعرَّضَ المسلمون لرد فعلٍ عنيف من جهة الإنجليز الفاتحين الموتورين الذين كانوا يعتبرون المسلمين أصحاب الفكرة والقيادة في هذا النضال، والمواطنين تابعين لهم، فكان حنقهم شديداً على علماء المسلمين وأهل الخطر منهم، ومن له شأن في المجتمع الهندي، يعلقونهم على المشانق ويقتلونهم بتعذيب وإهانة، ويبحثون عن كل من كانت له كلمة مسموعة أو نفوذ في المجتمع، وكان من ضمنهم وفي مقدمتهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي انتصر عليهم في المعركة الدينية، وأسهم في الكفاح ضدهم، وقد اختفى مدة في قرية صغيرة، ولما دخلت الجيوش الإنجليزية في هذه القرية أخذ المنجل، ودخل في مزرعة، وتشاغل بحصاد الحقل كفلاح صغير مغمور.

واستطاع بذلك أن ينجو بنفسه ويصل إلى (سورت) ميناء الهند، ويهاجر منها إلى البلاد المقدسة، وكان ذلك في سنة (١٨٦٢م)، يعني بعد الثورة بخمس سنوات، وصودرت أملاكه التي كانت كبيرة وواسعة، وبيعت بالمزاد العلني، وكان ذلك في أيام خلافة السلطان عبد العزيز العثماني، وإمارة الشريف عبد الله بن عون، ولما عُرِفَت منزلته العلمية في مكة وبلاؤه

---

(١) راجع للتفصيل «البحث الشريف في مسألتي النسخ والتحريف» في حكاية هذه المناظرة وخبرها للشيخ رفاعي الخولي على هامش «إظهار الحق» طبع المطبعة العلمية باستنبول عام ١٣١٥هـ.

في الدفاع عن الإسلام سمح له بالتدريس في الحرم المكي، وتوثّقت بينه وبين عالم مكة الجليل الشيخ (أحمد بن زيني دحلان) الصداقة، وهو الذي كان له الفضل في التعريف به عند الشريف وعلماء مكة وأعيانها.

وصادف أنَّ القس (فندر) بعدما قضى فترةً في الأقطار الأوروبية كألمانيا وسويسرا وإنچلترا، أرسلته الإرسالية الكنسية في لندن إلى القسطنطينية ليقوم بالدعوة والتبشير في مقر الخلافة الإسلامية وقلب العالم الإسلامي، وقد قابل السلطان عبد العزيز، وحكى له قصة المناظرة في الهند، وذكر أنه كان للمسيحية فيها انتصار على الإسلام، وأهمَّ ذلك السلطان عبد العزيز خليفة المسلمين، وكتب إلى شريف مكة يأمره بالاتصال بأهل الخبرة من حجاج الهند، والحصول على المعلومات الصحيحة عن هذه المناظرة وثورة (١٨٥٧م)، وإحاطة الباب العالي بحقيقة الأمر، وكان الشريف قد اطلع على حقيقة الأمر عن طريق شيخ العلماء (السيد أحمد دحلان)، فكتب بذلك إلى الآستانة، وذكر أن العالم المسلم الذي كان بطل هذه القضية موجودٌ في مكة، فأنفذ السلطان بطلبه إلى الآستانة، وتوجه الشيخ إليها في سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م)، ولما علم القس (فندر) بتوجهه إلى القسطنطينية غادر العاصمة لساعته، وعقد السلطان مجلساً للعلماء والوزراء وحكى فيه الشيخ قصة المناظرة، وكيف انتصر فيها الإسلام على المسيحية، وقصَّ قصة ثورة (١٨٥٧م) وحينئذ فرض السلطان قيوداً على نشاط المبشِّرين والإرساليين في الدولة العثمانية وسَنَّ في ذلك قوانين صارمة، وكثيراً ما كان السلطان يجتمع بالشيخ بعد صلاة العشاء ويصغي إلى حديثه ويحضر هذا المجلس خير الدين باشا التونسي الصدر الأعظم، وكذلك شيخ الإسلام وغيره من كبار العلماء.

واقترح السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا على

الشيخ بعدما سمعا قصة المناظرة، وعرفا طولَ باعه وواسع اطلاعه في هذا الموضوع، وقوة عارضته واقتداره على نقد المسيحية ومصادرها، أن يؤلِّف كتاباً بالعربية يتناول فيه القضايا الخمس التي دار عليها البحث في مناظرة (أكره) بالتحقيق والتفصيل، وقبل الشيخ هذا الاقتراح، وبدأ في تأليف كتاب «إظهار الحق» وهو مقيمٌ في الآستانة في شهر رجب ١٢٨٠هـ وأكمله في ذي الحجة في نفس السنة يعني في ظرف ستة أشهر، وقدَّمه إلى السلطان، ولكنه ذكر في المقدمة أنَّ هذا التأليف كان تحقيقاً لرغبة شيخ العلماء «السيد أحمد بن زيني دحلان»، فكلَّمه في ذلك خير الدين باشا، وقال إنه كان امتثالاً لأمر أمير المؤمنين، فكان اللائق أن ينوِّه بذلك إكراماً لمركز الخلافة وإنصافاً للواقع، فاعتذر الشيخ وقال: إن هذا العمل كان واجباً أن يكون خالصاً لوجه الله لا يشوبه غرض دنيوي، أو تزلّف إلى أمير أو سلطان، وقد سبق أن شيخ العلماء رغب إلي في ذلك، وترجاني أن أقيِّد خبر هذه المناظرة، وكنت قد بدأت بجمع بعض المواد في مكة، وله فضل في تقديمي إلى شريف مكة، وهو الذي كان السبب في وصولي إلى سدَّة الخلافة، لذلك آثرته بالذكر والاعتراف بالفضل.

وهكذا ظهر هذا الكتاب إلى حيِّز الوجود ويمتاز بعدة ميزات:

١ ــ **الأولى**: أنَّ المؤلف آثر خطة الهجوم على خطة الدفاع التي لا تزال أقوى وأكثر تأثيراً في النفس، فإنها تلجىء الخصم إلى أن يتخذ موقف الدفاع، وأن يقف في قفص الاتهام ويدافع عن نفسه وينفي التهمة، وكان مما تورط فيه علماء المسلمين قديماً أنهم وضعوا التوراة والإنجيل والقرآن على مستوى واحد، وبذلك نالت هذه الصحف القديمة ما لم تكن تستحقه من الثقة والتقدير، مع أن أصحابها أنفسهم لا يدعون أنها كلها كلام الله، والوحي المنزل من السماء بنصه وفصِّه، كما هو الشأن مع القرآن الكريم

والمؤمنين به[1].

وقد كان شيخ الإسلام (تقي الدين أحمد بن تيمية) موفقاً كل التوفيق في إيثار خطة الهجوم في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»[2]، مع أنَّ قيمة الصحف الأربعة للإنجيل لا تعدو عند المحققين قيمة كتب السيرة والحديث من الطبقة الثانية والثالثة، ليس لها سند متصل صحيح، وقد ألفت بعد رفع المسيح في فترات مختلفة، وفيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته[3].

وقد تفطَّن الشيخ (رحمة الله) بدقة دراسته وأصالتها وأصاب المِحَزَّ، فغيَّر ذلك وجه البحث والجو الذي تقوم فيه المناظرة، وأفقد الخصومَ الموقف المشرف الذي تمتعوا به واستغلوه زمناً طويلاً.

٢ ـ **الميزة الثانية**: أنَّ المؤلف تجنَّب البحوث الدقيقة التي يتَّسع فيها الجدال ويكثر فيها القيل والقال، بل اعتمد في الكتاب على التناقضات الواضحة والبديهيات الجلية التي لا تقبل التأويل، واستخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان، فقد أثبت أنَّ التوراة والإنجيل مليئة بالاختلافات والتناقضات، وقد وقعت فيها أخطاء فاحشة عدَّ منها مائة وثمانية ١٠٨ خطأ، وبرهن بذلك على أنها كلها ليست إلهاماً من الله، وأنَّ التحريف قد وقع في «الكتاب المقدس» لا محالة، من زيادة ألفاظ، وحذف كلمات، وعبارات إلحاقية، وبذلك أصبح هذا الكتاب شديد الوطأة على من يؤمن بكونه صحفاً سماوية منزّلةً وصلت إلى البشر عن طريق الوحي والإلهام.

---

(١) راجع كتابنا «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»، فصل «الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ».

(٢) الكتاب في أربعة أجزاء، وتقع في ١٢٩٥ صفحة، طبع في مصر عام ١٣٢٢هـ.

(٣) راجع للتفصيل الجزء الثاني من «الجواب الصحيح»: ص ١٠.

٣ ــ تعرَّض المؤلف فيه لمغالطات النصارى وتمويههم، ورد عليها في أسلوب سائغ مقنع، وتعرَّض لإثبات النسخ ووقوعه في الديانتين السابقتين وصحفهما.

٤ ــ وضع المؤلف العلاَّمة حقيقة التثليث في النصرانية على محك العقل ونقدها نقداً علمياً، يستسيغه كل من رُزق العقل السليم والذوق الصحيح.

٥ ــ لم يكتف المؤلف بنقد المسيحية وعقائدها وصحفها، بل أضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم وإثبات أنه كلام الله لا شك في ذلك، وأجاب في هذا الصدد على كل ما عارضه به النصارى وما اعترضوا به على القرآن، وذكر في ذلك نبذةً من سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته، والبشارات التي وردت في شأنه، وقد ذكر ثماني عشرة (١٨) بشارة، وحقَّق صحة الأحاديث.

لذلك كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً، والعنايةُ به عظيمة، وقد ظهرت له الطبعة الأولى في عام (١٢٨١هـ) في استنبول، ونقله عالم تركي إلى اللغة التركية وسماه بـ «إبراز الحق»، وقامت الحكومة العثمانية بترجمة الكتاب إلى عدة لغات.

ونقله أحد الكتاب بالإنجليزية في الهند إلى اللغة الإنجليزية، ولا زالت هذه الترجمة موجودة في مكتبات الهند، والباكستان[1].

وترجمه الشيخ (غلام محمد الرانديري) إلى الكجراتية إحدى لغات الهند الإقليمية. وترجم أخيراً إلى اللغة الأردية «بائبل سي قرآن تك»، ومعناها «من العهدين القديم والجديد إلى القرآن»، وهذه الترجمة في ثلاثة مجلدات، قام بها الشيخ «أكبر علي السهارنفوري» أستاذ الحديث في دار

(١) مع الأسف لم ينزل هذا الكتاب إلى السوق ولا إلى المكتبات في الهند أو إنجلترا لأسباب سياسية وغيرها.

العلوم ـ كراتشي ـ وقدَّم له فضيلة الشيخ محمد تقي العثماني بمقال مسهب في تاريخ المسيحية وشرح عقائدها ومبادئها، ونقدها نقداً علمياً، وتستحق هذه المقدمة العلمية القيمة أن تنشر مفردة وتنقل إلى العربية والإنجليزية[1].

واشترى القسس كميات كبيرة من طبعات الكتاب وأتلفوها إحراقاً وإبادةً ليتغيّب الكتاب من السوق، وقد أعيد طبعه في مصر مراراً، وأخيراً قامت وزارة الأوقاف والأمور الدينية في المغرب، وأصدرت له طبعة ممتازة في ١٣٨٤هـ وأثنى على الكتاب وعلو مكانته كبار العلماء في الشرق العربي، منهم الشيخ (عبد الرحمن بك باجه جي زاده) في كتابه «الفارق بين المخلوق والخالق»، ومنهم الشيخ (عبد الرحمن الجزيري) عضو هيئة كبار العلماء في مصر في كتابه «أدلة اليقين»، والعلامة السيد (رشيد رضا) منشىء مجلة «المنار» في تقديمه لإنجيل برنابا ترجمة الدكتور (خليل سعادة المسيحي)، والأستاذ عمر الدسوقي في مقدمة كتاب «إظهار الحق».

أما الأوساط النصرانية الأوروبية فناهيك بما كتبته كبرى صحف إنجلترا تعليقاً على هذا الكتاب: (لو دام الناس يقرأون هذا الكتاب لوقف تقدُّم المسيحية في العالم).

* * *

(١) اقترح ذلك كاتب هذه السطور على صديقه الفاضل كاتب هذه المقدمة وناشرها، وقد تحققت هذه الرغبة، فطبع الكتاب باسم «ما هي النصرانية؟» وفي هذه المجموعة تقديم لهذا الكتاب بقلم صاحب هذه المجموعة.

الهند في العهد الإسلامي[1]

للعلاّمة السيد عبد الحي الحسني

إذا صحَّ أنَّ الوطن المألوف بمنزلة الأم، لها حق لا يضاع، وإليها حنين لا ينكر[2]، فقد سجل تاريخ العلم والأدب والكتابة والتأليف، أمثلة رائعة وآيات باهرة من هذا الوفاء الكريم، والبر السامي النزيه لأبناء البلاد البررة لأمهم الحنون التي ولدتهم وأرضعتهم، والتي قضوا في أحضانها أطيب أيام حياتهم وأصفاها، وعاش فيها ودفن آباؤهم الذين يحبونهم ويجلونهم، ولهم فيها آثار وذكريات، وتغنّىٰ بها الشعراء قديماً وحديثاً، فقال ابن الرومي:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعَّماً ... بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحُبِّب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقال الآخر:

بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي ... وأول أرض مسَّ جسمي ترابها

---

(١) صدر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الهند سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م)، ونقل إلى الإنجليزية والأردية، وكان المؤلف رحمه الله أسماه: «جنّة المشرق ومطلع النور المشرق»، ووضعنا له هذا الاسم لأنه أدل على موضوعه ومحتواه.

(٢) كلام مقتبس من مقدمة «جنة المشرق» لمؤلفها.

وقد كان المسلمون بفضل التعاليم الإنسانية الخلقية التي تلقوها في مدرسة الرسالة المحمدية، من أوفىٰ الأمم والشعوب للبلاد التي ولدتهم وأنشأتهم أو آوتهم واحتضنتهم، ومن أبرِّ الأبناء لتلك الأمهات المعنوية، ومن أحرص عباد الله على شكر النعمة ومعرفة الحق والفضل، وأحرصهم على تسجيل الأخبار وتخليد الآثار، وإثارة الدفائن وإيضاح المعالم، والكشف عن المجاهل والبحث عن الحقيقة، وتحرِّي الصدق والدقة والأمانة في الحكاية والرواية، ساعدهم في ذلك ذوقهم التاريخي الذي رافقهم من أول رحلتهم وفجر نشأتهم، وطبيعة التحقيق التي اقترنت بحياتهم وأخلاقهم منذ عنوا بفن الحديث والرواية، ودونوا علم الأصول وفن أسماء الرجال، فكانوا رائد البحث العلمي وحامل فن التاريخ الأمين في كثير من البلاد التي وردوا فيها.

وإذا أراد الله ببلد خيراً، وأراد أن يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الخفاء إلى الظهور، ومن حياة العزلة والخمول والقناعة بالنزر اليسير والانطواء على النفس، إلى حياة الشهرة والاتصال ببقية الأسرة الإنسانية والعالم المترامي الواسع، وركب الحياة السيَّار، وأراد أن يسلِّط عليه أضواءاً قوية من العلم والتحقيق، ساق إليه المسلمين فاتخذوه وطناً وسكناً ومعاشاً ومدفناً، ولم يعتبروه بقرةً حلوباً أو ناقةً ركوباً يحلبون ضرعها ويركبون ظهرها، ويجزُّون صوفَها، ثم يتركونها هزيلة عجفاء أو منتوفة شوهاء، ولا يعتبرون نفوسهم كالإسفنج يتشرّب الثروة في مكان ويصبها في مكان[1]، بل وهبوا هذه البلاد أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة، وأخلاق وسجايا، ومقدرةٍ وكفاية، وتنظيمٍ وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ، والشعور الرقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الحاذقة الصناع، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض،

---

(١) كما كان شأن الإنجليز في الهند، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطاليا في طرابلس وبرقة.

وأمنت بعد خوف، واستقرّت بعد اضطراب، وأخذت الأرض زخرفها. وبلغت المدنية أوجها، وتحولت الصحاري الموحشة والأراضي القاحلة، إلى مدنٍ زاخرة وأراضٍ خصبة، وتحولت الغابات حدائق ذات بهجة، وأشجار البرية أشجاراً مثمرة مدنية، ونشأت علوم لا علم بها للأولين، وفنون وأساليب في الحضارة والحكم والفن لا عهد بها في الماضي، وانتشرت التجارة، وازدهرت الزراعة، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلاداً جديداً، ولبست ثوباً قشيباً.

هذه قصة إسبانيا التي سماها المسلمون بلاد الأندلس، فلم يكن العالم يعرف عنها إلّا الشيء القليل الذي لا يشرح الصدر ولا يبعث الآمال، فلما دخلت هذه البلاد في ولاية العرب المسلمين، وفي حضانة الإسلام بلفظ أصح، انتقلت من الظلام إلى النور، ولفظت الأرض خزائنها وصبّت خيراتها، فكانت أمنية الفاتحين، وأغنية الشعراء والمتغزلين، وموضوع المؤرخين والجغرافيين، وكانت جنة الدنيا وسوق العلم ومثابة العلماء، ومنتجع الشعراء، وكانت ذات مدرسة في الفقه والشعر والأدب، والفلسفة والفن المعماري، وكانت فيها مرسية، وبلنسية، وجيان، وشاطبة، وقرطبة، وأشبيلية، وغرناطة، وكانت فيها مدينة الزهراء وقصر الحمراء.

وهذه قصة مصر، والشام، والعراق، وإيران، وتركستان بعد الفتح الإسلامي، فكانت كماءٍ راكد قد أَسَن، وكانت مطيَّة للرومان والفرس، ينعمون بثرواتها وحاصلاتها، وبكدح عمّالها وفلاحيها، ولم تكن هذه البلاد قبل فتح المسلمين ذات طابع خاص في المدنية والآداب والفن، ولم ينبغ فيها علماء وشعراء، وفقهاء، ومشرِّعون، وحقوقيون، ومبدعون. وعمالقة الفكر، وعباقرة الفن، دوَّىٰ اسمهم في الآفاق، وسارت بمصنفاتهم الرفاق، وردَّد العالم صوتهم من أقصاه إلى أقصاه، وسمع صدى أفكارهم وتحقيقاتهم في الشرق والغرب، حتى جاء الإسلام فكانت البصرة والكوفة والموصل

وبغـداد في العـراق، ودمشق وحلب، وحمص ونـابلس والقـدس الإســلامي وطرابلس وحماة في الشام، والفسطاط والقطائـع والقاهرة وأسيوط والمنصـورة ودمياط في مصر وسمرقند وبخارى والشاش[١] وخـوارزم في تركستـان، والري وهمـدان ونيسابـور وشيراز وطـوس وأصفهان في إيـران[٢]، وظهر فيهـا نوابـغ لا يحصيهم إلّا من أحصى حصى البطحاء ورمال الدهناء.

وهذه قصة شمال أفريقيـا من ليبيا إلى مـراكش، فلم تعرف هـذه البلاد إلّا بالقسوة والفروسية وشـدة الشكيمة واستعصـاء أهلها على الفـاتحين، حتى ضُرب بأهلها البربر المثل في الوحشية والنخوة، وتشاغلها بالحروب الداخليـة وشدة تمسكها بالعادات القـديمة والتقـاليد القبليـة، لا لغة راقيـة، ولا حضارة رقيقة، ولا دين معقول، ولا مدنية مشهورة، حتى جاء الإسـلام، فكانت فيهـا مـدينة قيـروان وفاس ومكنـاس ومراكش وبـاجة وسـوسة وسَرَقُسْطَة وبجـايـة وتلمسـان وتونس، أنجبت أفذاذاً في الحديث والتفسيـر، والفقـه والتصـوف، والشعر والأدب، والنقد، والتـاريـخ، والفلسفة، يـطول استقصاؤهم، وكـانت فيهـا مدارس كجـامـع القرويين وجـامـع زيتونـة، تخرَّج فيهـا وعلَّم أئمـة في العلوم والفنون وخلفوا آثاراً باقيةً ما دامت اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وهـذه قصة الهنـد، فكانت تعيش في عـزلة عن العـالم، يحجزهـا عن العالم المتمدن البحـر في الجنوب والشـرق وسلسلة الجبال ـــ من أكثر جبال العـالم ارتفاعـاً وطـولاً ـــ في الشمـال والغـرب، لا يتمثلهـا العـالم المتمـدن ولا يراها إلّا في مـرآة العقائـد المتطرفـة، والأساطيـر الشائعـة عن الريـاضات المـرهقـة والـزهـد المتبتّـل وتعـذيب الجسم، والتغلّب على مـطالب النفس

---

(١) وتسمى الآن طاشقند.

(٢) وقـد اقتصرنـا على قليل من أسمـاء المدن التي لمعت في التـاريـخ الإسـلامي على سبيل المثال، وإلا فهي أكثر من أن تستقصى.

وقهرها، والتمسك بفلسفة وحدة الوجود، والبراعة في بعض العلوم الرياضية والفلك، واتساع المساحة، وخصب الأرض، ووفور الخيرات.

ولا تفتح نافذة ينظر منها العالم إلى هذه البلاد المطوية المغلقة إلاّ عن طريق بعض الفاتحين كالإسكندر المقدوني، أو عن طريق بعض المحققين الباحثين كأبي الريحان البيروني[1] (م ٤٤٠هـ)، وقد وقفت مدنيتها على ما كانت عليه قبل آلاف من السنين، ولم تشتغل اليد الحاذقة في زيادة الثروة وتسهيل الحياة وترقيق المدنية وتوسيع الثقافة، كما اشتغلت في بلاد مجاورة، فبقيت على ما كانت عليه[2] من مدنية وفن وزراعة وأساليب للحياة، حتى دخلها المسلمون فحملوا إليها أجمل ما عندهم من مدنية رقّت حواشيها وطالت ذيولها، وثقافة شارك في توسيعها عقيدة توحيد، ومساواة إنسانية، وحقوق عامة لجميع الطبقات، وتهذيبها عبقريات عدة شعوب وتجارب عدة أمم، وإدارة قد مارسوها وأتقنوها في ميادين شتى، فدخل معهم الهواء الطري النقي، ولقاح الأفكار المتباينة والفن الذي نضج واختمر، وتنظيم البلاد وسياسة الحكم التي طالت تجربتهم فيها، والتقت الفروسية التركية وقوة الإرادة المغولية، والنخوة الأفغانية مع الشريعة الإسلامية السمحة، والتقى الطموح العسكري الإداري الذي لا يخضع لصعوبة ولا يؤمن بخطر، مع طبيعة البلاد والشعوب التي اختلطوا بها، تلك الطبيعة الرقيقة الوادعة التي تتدفق برسالة الحب والرفق والغناء المطرب والشعر الرقيق والكرم الأصيل، وحب التعمق في كل علم وفن، التقى كل ذلك في إنشاء حضارة تستحق أن

---

(١) يرجع إلى كتابه «تحقيق ما للهند من مقال مقبولة في العقل أو مرذولة».

(٢) اقرأ صفة الهند وما كانت عليه من مدنية وإنتاج وصناعة وثمار وفواكه، وأدوات مدنية ومرافق الحياة في منتصف القرن العاشر الهجري، بقلم الملك بابر التيموري الرسّام المصور في كتابه الخالد «تزك بابري»، أو اقرأ ترجمته بالعربية في كتابنا «المسلمون في الهند»: ص ٢٦ ـ ٢٧.

تسمى «الحضارة الهندية الإسلامية»، وفي تجربة سياسية إدارية تجدر بأن تسمى «الحكم التركي الإسلامي الهندي»، أو «الحكم المغولي الإسلامي الهندي»، وفي تكوين فن معماري يستحق أن يسمى «الفن الإسلامي الهندي».

فإذا تجلت هذه العبقرية الممزوجة المركبة في أساليب الحكم والإدارة، والتنظيم، كانت عبقرية علاء الدين الخلجي (م ٧١٦هـ) في قوانين التجارة والمعاملة والتسعير ورخص المواد الغذائية، وصلاح أخلاق التجار وأهل الحرف.

وإذا كانت عبقرية تجلّت في الحب والحنان، والأنغام والألحان، كانت عبقرية الأمير التركي الهندي الأمير خسرو[١] أمير شعراء الهند (م ٧٢٥هـ)، فظهرت في شعره الرقيق الرائق، الذي كاد يسيل رقة وعذوبة ويضرب على أوتار القلب، وظهرت في تفننه في أغراض الشعر وضروبه واقتداره على عدة لغات.

وإذا كانت عبقرية تجلت في الإنسانية السامية والأخلاق الفاضلة، والحياة النافعة كانت عبقرية الشيخ نظام الدين محمد البدايوني الدهلوي (م ٧٢٥هـ) التي ظهرت في زهده وشفقته على الخلق وإيثارهم على النفس.

وإذا تجلَّت هذه العبقرية في طيب القلب وتأمين البلاد وخدمة العباد، كانت عبقرية فيروز تُغْلَق (م ٧٩٩هـ) التي تجلت في الأمن المنقطع النظير الذي لم تعرفه البلاد من قبل، وفي كثرة الأنهار وتنظيم الري، وتعايش أهل البلاد السلمي، وارتفاع المظالم وقلة نسبة الجنايات.

---

(١) هو من أصل تركي صميم وخؤولته من الهند، ولد في «بتيالي» في الولاية الشمالية، وكان إماماً في الشعر والموسيقى، وله اختراعات واجتهادات فيهما.

وكانت عبقرية شيرشاه السوري (م ٩٥٢هـ) في سَنِّ القوانين، وضبط البلاد وترفيه السكان، وتجلت في هذا الشارع الذي كان يبتدىء من ماء نيلاب في أقصى الشمال الغربي إلى سنار كاؤن في أقصى الشرق، وبناء الخانات وتهيئة أسباب الراحة والحفاوة للقوافل والسابلة، وفي وضع دستور الحكم العام الحكيم، وتحقّق كل ذلك في خمس سنوات.

وإن تجلّت هذه العبقرية في الجمع بين الفضائل العلمية والعملية، وبين السيف والقلم والقدرة الأدبية الشعرية في لغات متنوعة، كانت عبقرية الأمير عبدالرحيم خانخانان (م ١٠٠٥هـ) القائد العسكري الكبير، ومن أركان الدولة المغولية الذي جمع بين قيادة الجيوش وصدارة الأدب والشعر، وتربية الأدباء والشعراء، ويعتبر من الشعراء المفلقين في اللغات التركية والفارسية والهندية الوطنية[١].

وإذا تجلّت هذه العبقرية في الذوق الرقيق وحسن الاختيار وصفاء الحس ورقة الشعور، كانت عبقرية جهانكير (م ١٠٣٧هـ) في ترقية الثمار والفواكه، وفي تلقيح الأشجار، والتفنن في المأكل والمشرب.

وإذا تجلّت هذه العبقرية المزدوجة المركبة، الرقيقة المهذبة، في الفن المعماري والهندسة والبناء والآثار الجميلة الخالدة، كانت عبقرية شاهجهان التي تجلت في التاج محل، الدرة الفريدة المعمارية، وفي جامع شاهجهان في «دهلي»، والقلعة الحمراء.

---

(١) هو عبد الرحيم ابن بيرم خان (أحد مؤسسي الدولة المغولية) من أصل تركي أصيل وأمه هندية، ويعتبر من أئمة الشعر الهندي (غير الأردية)، كان يتقلب فيه بـ «رحيم» ويقر بفضله أدباء الهنادك ويعدونه من شعرائها المعدودين الذين نبغوا في المسلمين (اقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في الجزء الخامس).

وإذا تجلّت هذه العبقرية في قوة الإرادة وقدرة الإدارة وقيادة الجيوش، وإخضاع البلاد لحكم واحد وقانون واحد، والإشراف عليها في وقت واحد، تجلَّت في عبقرية «أورنك زيب» في إخضاع جنوب الهند الذي تمرد على الفاتحين الأولين، وبقي محافظاً على استقلاله وشخصيته أكثر الوقت، وفي ديانته وتقواه وأخذه بالعزائم، وظهرت في تدوين «الفتاوى الهندية»، وفي إحياء السنن النبوية، وإزالة العادات والشعائر الجاهلية التي تمسك بها أجداده وعضوا عليها بالنواجذ.

وإذا تجلت هذه العبقرية في ميدان العلم والفكر الإسلامي، والغوص في مقاصد الشريعة وأسرار الكتاب والسنّة، وتمحيص الحق والباطل والخالص والزائف، تجلّت في معارف الشيخ شرف الدين يحيى المنيري (م ٧٨٦هـ)، وحمية الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (م ١٠٣٤هـ)، وحكمة الشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ).

فكانت الهند عالماً مستقلاً لا بالمعنى القديم الذي كانت تعيش فيه قبل دخول الإسلام، ولكن بالمعنى الجديد الذي وصلت إليه بعد الفتح الإسلامي من تفوق في أساليب الحكم، وبراعة في كثير من العلوم الإسلامية، وقيادة لعدة حركات إصلاحية، وإبداع في كثير من فنون الحضارة والاجتماع، فكانت في حاجة إلى استعراض تاريخي شامل دقيق، ومقارنة أمينة بين الماضي والحاضر، وما كان للهند من تراث وبقايا وما حمل إليها المسلمون من طرف وهدايا، وكانت في حاجة إلى مؤرخ واسع الاطلاع، دقيق الإحصاء، واسع الصبر والأناة، قد نقب في المكتبة الإسلامية، وعاش فيها مدة طويلة لا يرى اللذة إلاّ في إحياء مآثر السلف وإيتائهم ما يستحقون من الاعتراف والشكر.

وقد كان من سعادة الأندلس الإسلامية أن قُيِّض لها مؤرِّخ وصَّاف،

وأديبٌ رسَّام مثل (محمد لسان الدين بن الخطيب) من وزراء دولة غرناطة[1]، فألف كتابه الفريد: «الإحاطة في أخبار غرناطة» في ثلاثة أجزاء، فكان موسوعة صغيرة في ما يتصل بعاصمة العرب المسلمين الأخيرة في الأندلس، وقد طرق في هذا التاريخ باباً قلَّ من سبقه إليه من مؤرخي العرب، وهو أنه افتتح الكتاب بقسم جغرافي خطَّط فيه ولاية غرناطة، وما يتبعها من القرى والجنات، وذكر فيه عوائد أهلها ومعايشهم وأزياءهم وجندهم وسلاحهم وكثيراً مما يتعلق بحالهم الاجتماعية لعهده[2].

وقد فاق هذا الأثرَ العلميَّ الخالد أثرٌ آخر لمؤلف مغربي جاء بعده يجدر أن يتطاول به المغرب على بلاد الشرق الإسلامية، الكتاب الطائر الصيت «نفح الطيب لغصن الأندلس الرطيب» للعلامة (أحمد المَقَّري) المغربي المالكي (م ١٠٤١هـ)، وهو دائرة معارف ومعجم مستقل في كل ما يتعلق بالأندلس، مشحون بالتاريخ والأدب، والشعر والمُلَح، في أسلوب أدبي وسجع، وفيه فوائد كثيرة، ومادةٌ غزيرة، وعلمٌ منثور، ونوادر وحكايات، ممزوج بأخبار غير الأندلسيين، وما لا صلة له بالموضوع، بأدنى مناسبة، ولكنه لا يخلو من الفائدة، وإن كان ينقصه التنقيح والتأليف المرتّب على النسق الجديد، والكتاب في أربعة أجزاء كبار، إلّا أنَّ الجزء الثالث والرابع في ترجمة لسان الدين بن الخطيب وحده، وقد أولع به هواة الأدب والإنشاء البليغ والنثر الفني قديماً وحديثاً، واعتنوا به اعتناءاً كبيراً.

وكانت سعادة مصر من هذا الوصف والتصوير وتخليد الآثار وحفظ الأخبار أوفى وأوفر من كل قطر زها في العهد الإسلامي، وذلك بفضل ابنها البار العلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف

---

(١) مات شهيداً ٧٠١هـ.

(٢) العبارة مقتبسة من تقديم الكتاب للأستاذ رفيق العظم.

بالمقريزي (م ٨٤٥هـ)، فقد ألَّف كتابه العظيم «كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» المشهور بـ «خطط مصر» (في جزئين كبيرين)، وقد استقصى فيه الدقيق والجليل، ولم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، ذكر فيه المدن والمسالك، والشوارع والحارات، والدروب والأزقّة، والخوخ والرحاب، والدور والقصور، والحمامات والمارستانات، والقياسرة والخانات، والفنادق والأسواق، والقناطر والجسور، والبرك والسجون، والمساجد والمدارس، والخانكاهات والرُّبَط، والمشاهد والجواسق، والمقابر والكنائس، وذكر الأعياد والمواسم، والدواوين، ورتب الأمراء والخزائن، ورتبة الوزارة وهيئة خلعهم، ومقدار جاريهم، وذكر فيه صلاة العيد وما يتعلق بها، وذكر المناظر والمنتزهات، والعوائد التي كانت بقصبة القاهرة، والمكوس، والصناعات، والنظر في المظالم والجيوش والحجبة، وأحكام السياسة، ومذاهب أهل مصر ونحلهم، ولكن الحديث أكثره منصرف إلى القاهرة ودائر حولها، وما كانت عليه القاهرة المعزّية في حياته من مدنية وعمارة، وعادات واجتماع وطراز للحياة وآثار باقية.

وقد مضى على وفاة المؤلف أكثر من خمسة قرون وما جاء بعده ــ على كثرة المؤلفين والمؤرخين في مصر ــ من يخلفه في تسجيل ما جدَّ وتغير، وفي وصل الحاضر بالغابر، وعلى كلٍ فالكتاب مأثرة علمية تأليفية تتباهىٰ بها مصر، وبرهانٌ ساطع على وفاء علماء المسلمين ومؤلفيهم لأوطانهم وهمتهم السامية في التأليف والتدوين وتخليد الآثار.

أما الشام فقد صنَّف ابن عساكر (م ٥٧١هـ) كتابه المشهور «تاريخ دمشق»[1]، الذي هو بمكتبة أو بدائرة معارف أشبه منه بكتاب مفرد، وأكثره

(١) قال العماد عن أجزاء «تاريخ دمشق»: وهو يحتوي على سبع مائة كراسة، كل كراسة عشرون ورقة، وقال: إنه في خمس مائة وسبعين جزءاً، والنسخة الجديدة في ثمان مائة جزء.

تراجم رجال، ثم مضت فترة طويلة لم يكتب فيها أحدُ في صفة الشام، وذكر أخباره وآثاره ومدنيته وحضارته، وما حباه الله من جمال وكمال، وسحر وشعر، وما طرأ عليه من تطورات، وحكومات وعادات، وصناعات وأوضاع، وتصوير ما عليه هذا البلد من حياة واجتماع، وحاصلات ومعايش، حتى قام أحد أبنائه الأوفياء وهو الأستاذ محمد كرد علي ــ رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق سابقاً ــ فألَّف كتابه القيم «خطط الشام» فسدَّ هذه الثغرة، وملأ هذا الفراغ، واستحق شكر أبناء وطنه، وكل مُعجَبٍ بالشام، معترفٍ بفضله في تاريخ الإسلام.

وقد كانت للهند[١] الإسلامية شخصية إسلامية ممتازة، ودور مستقل في توسيع الحضار الإسلامية، وتجارب الحكم ومجال العلوم الدينية، والتي لم يكن لها دور في إنشائها وتكوينها كما قدمنا في السطور الماضية، وهي حلقة ذهبية في سلسلة الذهب التي يتحلىٰ بها جِيدُ الإسلام، ويتجمَّلُ بها تاريخ المسلمين.

وقد نشطت حركة التأليف والتدوين منذ فجر الإسلام في هذه البلاد، ونبغ فيها مؤلفون ومؤرخون يعدون بالمئات، ولكن جل مؤلفاتهم وآثارهم العلمية إما تدور حول البلاد وشخصيات الملوك، وإما تدور حول الزوايا ومن كان فيها من الشيوخ الكبار، وأكبر همهم تدوين أخبار الفتوح وأخبار الشجاعة والكرم، وتسجيل الخوارق والكرامات والمجاهدات والرياضات، والقليل النادر منها ما يتحدث عن العلماء والأدباء ويسجل أخبارهم، وهذا القليل النادر يتجرّد عن ذكر التفاصيل التي تتكوّن بها سيرهم الحقيقية، وتتمثل بها صورتهم الواقعية.

---

(١) إذا أطلقنا كلمة الهند فإنما نعني بها شبه القارة الهندية والقطر الهندي كله قبل التقسيم.

أما ما كانت عليه البلاد في مختلف العهود من حضارة ومدنية ورقيّ وتقدم، وما كانت عليه سياسة البلاد وأساليب الحكم والتنظيم الإداري، وتحصيل المالية والجبايات، وقيادة الجيوش ونظام الحروب، وكيف كانت الحالة الاقتصادية، وإلى أين وصلت مجابي البلاد، ومواردها في حكومات مختلفة وعهود مختلفة، وكيف كانت طريقة الملوك الإسلاميين في القضاء والعدل، وفَصْل الخصومات، وما هي عاداتهم في الجلوس للناس والخروج في المدن والجولات في المملكة، وما هي عاداتهم وسننهم في الأعياد والمواسم، وما هي الأيام التي كانوا يحتفلون بها، وكيف كانوا يظهرون سرورهم في الأفراح، وعطفهم على الرعية، وما هي الرتب والمناصب الرئيسية في دور حكمهم، وكيف كانوا يقلِّدونها أهلها، وما هي جرايات أهل المناصب ومرتباتهم، وما هي الحقوق والتكريمات التي كانوا يتمتعون بها، ثم ما هي الأمور الخيرية التي وفق لها الملوك المسلمون في عهدهم الطويل، وما هي المآثر والمبرّات التي شادوها لترقيةِ البلاد، وترفيهِ العباد، وإطعامِ الجائع وإغاثة الملهوف، وتأمين السُّبُل، وما هي سوابقهم وأولياتهم، ومخترعاتهم في السياسة والحكم، وتنظيم البلاد وتحصيل الخراج، وترقية الزراعة والتجارة، وما هو طرازهم الخاص في الفن المعماري، وما هي التحسينات التي أدخلوها على المدنية، إلى غير ذلك مما تهم معرفته، فقد صورهم بعض المؤرخين المتحيِّزين إلى فئة، الخاضعين لأغراض سياسية أو طائفية، ملوكاً جبارين، غلاظاً شداداً، قساة جفاة، لا يحملون إلّا السيف، ولا يحسنون إلّا صناعة الحرب، ولا يعرفون إلّا لغة الدم والدرهم، لا ذوق عندهم ولا ذكاء، ولا أصالة في فنهم ولا اختراع.

وكان الذي يطالع مؤلفات مؤرخي الهند المسلمين ـ وجلها بالفارسية ـ لا يستطيع أن يقدِّم لهذا العهد صورةً مشرقة، أو يهتدي إلى مآثرهم في ضوء هذه الكتب، فإما أن يتجرد أكثرها من هذه المواد تجرداً

يمكِّن المؤرخين المتشائمين المغرضين من تأييد دعواهم، وإما أن يجدها القارىء مبعثرةً في هذه الكتب الكبيرة الضخمة، مطمورة تحت ركام أخبار الحروب والفتوح، وقصص السطوة والقسوة، والصلات السنية السخية، والجوائز المشدهة للعقول.

وكان القارىء يشعر في أثناء قراءته بأنه يمشي في نفق مظلم لا ضوء فيه ولا هواء، فلا يتبيّن من يمرُّ به في هذه الرحلة، ولا يرىٰ الأزياء، ولا يعرف النقود التي كانوا يتعاملون بها، والقواعد التي يلتزمونها وأسس الحكم التي يسيرون عليها، إلّا بعض اللمعات أو الأضواء التي يراها في تاريخ «فيروز شاهي» لضياء الدين البرني (مات بعد ٧٥٨هـ)، و «تحفة فيروز شاهي» لسراج عفيف، و «تاريخ كلزار إبراهيمي» المعروف بـ «تاريخ فرشته» لمحمد قاسم البيجابوري[1].

فكانت الهند في حاجة إلى مؤرِّخ للرجال كـ «ابن خَلِّكان» (م ٦٨١هـ)، ومستعرِضٍ للتاريخ العلمي كـ «حاجي خليفة جلبي زاده»، ووصّاف كالمقريزي (م ٨٤٥هـ)، حتى تُوفَّىٰ هذه البلاد ـ التي كَثُر فيها الرجال وازدهر فيها العلم واتّسعت فيها المدنية ـ حقها من التاريخ والتسجيل والتصوير.

وقد وفّق الله العلامة السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني (م ١٣٤١هـ)، ليمثِّل هؤلاء الثلاثة العظماء فيما يختص بالهند، ترجمةً وتاريخاً، واستعراضاً وتصويراً.

وطالما سمت همَّةُ أصحاب النفوس الكبيرة إلى تمثيل أشخاص

---

(١) ويستثنى من ذلك كتاب «آئين أكبرى»، و «أكبر نامة» لأبي الفضل الناكوري، وما ألف من الكتب بعدهما عن الملوك التيموريين كـ «بادشاه نامة»، و «مآثر عالمكيري»، إلا أنها كلها مختصة بشخصيات معينة وعهود خاصة.

مختلفين، وإلىٰ القيام بعمل ينوء بالعصبة أولي القوة، وقد أنتج بعض الأفراد في تاريخ الإسلام العلمي قديماً وحديثاً ما قد تعجز عنه المجامع العلمية في هذا الزمان، فـ «تاريخ دمشق» عمل رجل[1] واحد، و «لسان العرب»[2]، إنتاج رجل واحد، و «فتح الباري» في شرح صحيح البخاري[3] أثر رجلٍ واحد، و «تاج العروس في شرح القاموس»، و «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» تأليف رجل واحد[4]، و «معجم المصنفين» مأثرة رجل واحد[5].

ولقد ألَّف أولاً كتابه «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» ـ في تراجم أعيان الهند ـ من القرن الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري[6]، في ثمانية أجزاء، تشتمل على أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة ترجمة، وقد اقتدى فيه بابن خلِّكان في الدقة والاقتصاد، ووضع الرجال في منازلهم، وألَّف كتابَه «معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف»[7]، وهو دليل شامل لمؤلّفات علماء الهند، مع تاريخ دخول العلوم الإسلامية في هذا

---

(١) هو ابن عساكر (م ٥٧١هـ).

(٢) لابن منظور (م ٧١٤هـ)، وكتابه «لسان العرب» في ٢٠ جزءاً.

(٣) للمحدث الكبير ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٣هـ) وهو في ١٣ جزءاً.

(٤) هو العلامة السيد مرتضى بن محمد الزبيدي البلكرامي (م ١٢٠٥هـ)، وكتابه «تاج العروس» يقع في عشرة مجلدات كبار، و «إتحاف السادة المتقين» يقع في عشرين مجلداً.

(٥) للعلامة محمود حسن خان التونكي (م ١٣٦٦هـ)، وكتابه يقع في ستين مجلداً و ٢٠ ألف صفحة، وتحتوي على تراجم أربعين ألفاً من المصنفين.

(٦) قامت دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد ـ دكن ـ الهند بطبع هذه السلسلة، وقد ظهر الجزء الأخير، وهو الجزء الثامن في ١٩٧٠م. وصدرت الطبعة الثانية.

(٧) طبع هذا الكتاب باسم «الثقافة الإسلامية في الهند» في دمشق، طبعة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٥٨م. وظهرت له الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤هـ.

القطر وتطورها، وتاريخ مناهج الدرس فيه، والمراحل التي مرت بها.

ثم أقبل علىٰ هذا الموضوع الذي هو من أشدِّ الموضوعات العلمية في هذه البلاد غموضاً وخمولاً، ومواده كما قدمنا إما منثورة مبعثرة في ثنايا السطور في الأسفار الكبيرة، وهي إشارات لا تفي بالغرض، ولا تسمن ولا تغني من جوع، وإما مطمورة مغمورة، تحتاج إلى نفْض أتربة وإزالة أنقاض، ثم إن كثيراً منها يوجد في غير مظانها فلا يهتدي إليها، ولا يتفطن بها إلّا من عاش بين الكتب ـ بين مطبوع ومخطوط ـ مدةً طويلة، وأرهق عينه وأضنىٰ نفسه في مطالعة كل ما أُلِّف في التاريخ والأخبار والتصوف، وما لا يتصل بالتاريخ من قريب وبعيد، ويكون كالنحلة تدور بين الأشجار، وتجلس على الرياحين والأزهار، فتمتصُّ منها الرحيق فتحوِّله إلى عسل مُصَفًّى، فيه شفاءٌ للناس، ويرزُق صبرَ النحلة وحرصها وتلطفها وحكمتها في قضاء وطرها، وإخلاصها في عملها، وإيثارها في نفع غيرها.

فألَّف هذا الكتاب الذي أتشرَّف بتقديمه والذي أسماه «جنة المشرق ومطلع النور المشرق» فذكَر فيه جغرافية البلاد وموقعها من الأرض وما يتعلق بها، ثم ذكر حاصلات الهند (وهو باب يكاد هذا الكتاب ينفرد به في اللغة العربية)، وقد ساعدته على إكماله وتحقيقه صناعته الطبية، فذكر حاصلاتها، بين أشجار وفواكه وأزهار ورياحين وحشائش وعقاقير وأصناف النبات، ثم ذكر معادن البلاد وما تهم معرفته من أحوال الهند، من ديانات ولغات وغير ذلك، ثم تناول الجغرافية بالتفصيل، وأهم ما جاء فيه ذكر كور الهند، وأشهر مدنها وقراها في الدولة الإسلامية، وتوصَّل بذلك إلى ذكر ما كانت عليه الهند في العهد الإنجليزي، ثم استعرض تاريخ الحكومات الإسلامية في الهند، المركزية منها والإقليمية (ملوك الطوائف) في إجمال واختصار، ولكن في تحقيق ودقة إلى آخر ملوك الهند في دهلي، وذكر الثورة الهندية الشهيرة، وقيام الإمارات الإسلامية، وقد ألحقنا به تذييلاً وتكميلاً بقلم نجله الأكبر

الدكتور السيد عبد العلي الحسني، مع بعض الزيادات بقلمنا، إكمالاً للفائدة، كي يكون هذا الكتاب مطابقاً للأحداث الأخيرة.

ويلي كل ذلك القسم الذي هو قيمة هذا الكتاب العلمية والتاريخية وميزته بين الكتب، وهو الفن الثالث في الخططِ والآثار، فيرىٰ فيه القارىء صورةً واضحة القسمات، ظاهرة الملامح للعهد الإسلامي الزاهر، الذي كان هدفاً للظلم والقسوة من كثير من المؤرخين الأوروبيين والهنادك، وموضع الغفلة والاستهانة من كثير من مؤرخي المسلمين والمشتغلين بالعلم والدراسات في الجامعات والمجامع العلمية، واشتمل هذا الفن على خطط الملوك في الأحكام السياسية ونظام المملكة، وعاداتهم في الجباية وفي العدل والقضاء، ومآثرهم الإنسانية وآثارهم في الأمور النافعة، وذكر العساكر وترتيبها ونظامها، وقد نجح المؤلف في تقديم كمية العساكر الإسلامية والقوة البحرية، وذكر صفة القتال، وذكر المناصبَ وأهلها وفيها تفاصيل دقيقة، ثم ذكر ما أحدثه الملوك المختلفون في عهدهم في السياسة وفي الخروج للناس، إلىٰ غير ذلك، وتحدَّث عن الأعياد والمواسم والأيام المشهودة وآداب التحية.

ويلي ذلك فصلٌ من أهم فصول الكتاب وأكثرها قيمةً علمية، وهو فصل في ذكر السنين والشهور والساعات، وطريق المسلمين في الهند في التأريخ، والنقود والموازين وتقسيم الأرض بحسب المساحة وأصنافها، وأحكام العشر والخراج، ومالية الدولة الإسلامية، ولا يقدر قيمة هذا الفصل وما جاء فيه من معلومات قيمة، ومدى نجاح المؤلف في جمعها إلّا من اضطر إلى البحث في هذا الموضوع وطالع آلافاً من الصفحات.

ثم انتقل إلى الفصل الأخير، وهو المؤسَّسات الخيرية والأمور النافعة التي قام بها الملوك المسلمون، والآثار المعمارية والتحف الفنية التي خلفوها

وراءهم، وزيّنوا بها هذه البلاد، من شوارع عامة، وتنظيم البريد، وحياض وأنهار، وحدائق وبساتين، وجوامع، ومدارس ــ وقد استقصى منها استقصاءً كبيراً ــ ومارستانات (مستشفيات) وملاجىء للفقراء والعجزة (بلغور خانه)، واستطرد إلى ذكر المقابر العظيمة والمشاهد، وختم الكتاب بذكر نوادر ما صنع المسلمون في عهد حكمهم ونبوغهم ونشاطهم العقلي وحريتهم السياسية، وهي عصارة دراسة طويلة ومكتبة ضخمة.

لقد نزل مستوى الدراسة العلمية والبحث العلمي نزولاً كبيراً في هذا العصر، حتى قلّت قيمتها وهانت منزلتها، ففي كل شهر يطالعنا كتاب له اسم هائل وموضوعٌ ضخم، قد جمعت فيه معلومات والتقطت على عجل، ومن غير تمحيص وهضم من بعض كتب المتقدمين، ورصفت ترصيفاً على طراز المؤلفين الأوروبيين، ولكن تنقصها الأصالة العلمية والرسوخ في الموضوع والفقه العميق له، أما هذا الكتاب ــ الذي لم يتبجح به مؤلفه ولم تقم له دعاية في سوق العلم، بل بقي مغموراً ثلث قرن تقريباً بين ما خلّفه المؤلف من مخطوطات وأوراق ــ فإنَّ فصلاً واحداً منه يتضمَّن ما انتشر في مكتبة، وإنَّ صفحةً واحدةً منه تقوم بكتاب كبير، وهكذا أعمال السلف المخلصين التي أريد بها وجه الله ورضا الضمير وخدمة العلم وتحلّت بالإخلاص والتطوع وروح الاحتساب وتميزت بالخفاء والتواضع والخمول، حتى قدَّر الله ظهورها في أوانها، وبعد أن مضىٰ على وفاة المؤلف عقود من السنين.

وقد كانت لهذا الكتاب قصة: فقد تعرَّض للتلف مرتين، مرة في سنة (١٩٢٣م)، لما أخذه أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي، وهو تلميذ المؤلف، لينشره من دار المصنفين بأعظم كره (الهند) التي كان يرأسها ويديرها، فقدَّمه لمطبعة في دهلي وكانت الحروف العربية نادرة في الهند، فبقي الكتاب في ركام من الأوراق، حتى وصلت إليه الأرضة وخرمته، وقد طبع من الكتاب ٢٩٢ صفحة، ولما اطلع على ذلك ابن المؤلف الدكتور

عبد العلي الحسني، أنقذه من هـذا العدو الفـاتك، وأخـذه من هذه المـطبعة الغافلة، وصحَّـح هذا الكتاب وملأ فراغه في ضـوء مؤلفات المؤلف ومصـادر الكتـاب، حتى أكمل هـذه النسخة، ولم تتهيـأ الأسباب لنشـره، فهجم عليـه السوس مرةً ثانية وتلفت بعض صفحـاته، فجـاهدنـا فيه مـرة ثانيـة وبحثنا عن النسـخ الأخرى، فوجدنا نسخةً للجزء المطبوع بمكتبة دار المصنفين، فأكملنا به الناقص وصححنا به الغلط وجهَّزنا الكتاب للطباعة والنشر في شكـل نهائي لا نقدر على أحسن منه، وقد شاهدنا تيسير الله تبارك وتعالى ونصرته في حفظ هـذا التـراث الثمين، واستخـراج هـذا الكنـز الـدفين، إنَّ الله لا يضيـع أجـر المحسنين.

وكان هذا الأثر العلمي أمانـةً عند ورثـة المؤلف وأفراد الأسـرة، وأمانـةُ الأفراد عند الأفراد، والمخطوطات عرضة للحوادث والإهمـال والتلف، يشهد بذلك تاريـخ المكتبات الفردية والـذخائـر العلمية التي خلَّفهـا الآباء لـلأبناء، لـذلك عـزمت أسـرة المؤلـف على أن تتخلىٰ عن مسؤوليتهـا في أقـرب زمـان فيكون هذا الكتاب ملكاً للأمة التي كُتب لها، وزينةً لمكتبات العالم، فتبحث عن أفضل وسائل نشر هـذا الكتاب وإخـراجه للنـاس، والله الميسِّر والمعين، إنه لا يضيـع عمل العاملين.

* * *

حجة النبي ﷺ وعمراته[1]

للشيخ العلّامة محمد زكريا الكاندهلوي

مما أكرم الله به الأمة الإسلامية من بين أمم العالم وخصَّ به دينَ الإسلام من بين الأديان، هذا الحج الذي لم يعرف في تاريخ الديانات والنظم والشعوب والأمم نسك يضاهيه في التأثير والإصلاح، وربط القلوب بالله، وإثارةِ الحنان والأشواق، وتسليتها وتحقيقها بالطرق الأمثل، وتجديد الصلة بأصل الملة ومؤسِّسها، وشحن النفوس بالقوة الجديدة والإيمان الجديد، وإشعال مجامر القلوب بالحب والحنان، والتمرُّد على الأوضاع والعادات، والتحرر من ربقة الأعراف، والدعوة إلى التوحيد والدين الخالص، والتجرُّد من كل مظاهر الشِّرك والوثنية، والسمو على الحواجز المكانية، والفوارق الإنسانية، وفي تحقيق مقاصد التعليم والتربية، والتبليغ والدعوة، وفي عصمة هذا الدين من التحريف، وفي وقاية هذه الأمة من الانحراف العام، ومن وقوعها فريسةً لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وفي المحافظة على أصل واحد ونبع واحد، وفي توطين النفوس على المشاقِّ والمكاره، وأن تبقى هذه الأمة طوع إشارة، ورهينة أمر لا تتشبث بعادة، ولا تعبد مألوفاً[2]، ولا أبلغ من قوله تعالى:

---

(١) طبع هذا الكتاب سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧١م) بمطبعة ندوة العلماء لكهنئو الهند.

(٢) ليرجع في معرفة مقاصد الحج وأسراره إلى كتاب «حجة الله البالغة» لحكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدهلوي.

﴿ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسمَ الله في أيام معلومات﴾[1].

وقد كانت حِجَّة رسول الله ﷺ وهو خاتم النبيين، من الآيات البيِّنات والمعجزات الخالدات، فقد كانت فريدة من بين سير الأنبياء وعباداتهم ومناسكهم ـ فضلاً عن سائر الناس ـ وقد كانت فريدة من نواح كثيرة، كانت فريدة من الناحية التعليمية والبلاغية، فريدةً من الناحية الإصلاحية والتربوية، فريدة من الناحية الباطنية والروحية، فريدة في مدى اهتمام الناس الذين أكرمهم الله بالسير في ركابه، وحضور الموسم معه بتتبع آثاره وحفظ أخباره، ومراقبة حركاته وسكناته، وتسجيل غدواته وروحاته، وفي مدىٰ اعتناء طبقات الأمة من السلف إلى الخلف، بكل ما صدر عنه ﷺ في هذا السَّفَر من قول أو عمل، أو عادة أو عبادة، أو نفي أو إثباتٍ أو إنكار، فقهاً واستنباطاً للأحكام، واستخراجاً للجزئيات، وتفريعاً للفروع، وعلت في ذلك هممهم، ودقت فيه أفهامهم، ورقَّ فيه شعورهم، حتى عصروا في ذلك أذهانهم وعقولهم، وبلغوا في الدقة والتفصيل غاية ما وراءها غاية.

ولم يكن الفضل في ذلك للعلم وحده، وقد جربنا نشاط العلم والعقل، ومدىٰ وفائهما لموضوعهما في تدوين رحلات العظماء وتاريخ الزعماء، فقد فاتهم الشيء الكثير الذي له قيمة علمية، أو أهمية تاريخية، بل كان في ذلك نصيب كبير للحب الذي لا يغفل ولا يلهو، ولا يمل ولا يني، ولا يتخلى عن شعرة من الشعرات، ولا يتنازل عن ذرةٍ من الذرات، بل يتمسك بها كأنها أفضل بضاعة، ورأس مال، بل كأنها حشاشة نفس وحبة قلب.

وقد رافق الحبُّ العقلَ في هذه الرحلة الطويلة المباركة منذ أعلن رسول الله ﷺ الحج، وأقبل إليه المسلمون من كل صَوْب، وتهافتوا عليه

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٨.

تهافت الفراش على سراج منير، فلم يفترقا، حتى عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد راقبا سيره ووقوفه، وأقواله وأفعاله، فحفظا للأمةِ والأجيالِ القادمة سجلاً دقيقاً، وكتاباً ناطقاً، بل صورةً مشرِّفة لهذه الرحلة الكريمة، يرىٰ فيها المسلم مسيرَ رسولِ الله ﷺ، من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فمِنىٰ، فعرفات، ورجوعه ﷺ إلىٰ مكة ثم قفوله للمدينة، يراه يطوف ويسعى، ويسمعه يفتي ويعلِّم، ويخطب ويتكلم، ويشهد معه المشاهد كلها كأنه رأي عين وحديث أمس، فيعوض ذلك عن تخلفه عن هذا الركب الميمون، وعن إدراكه لهذه السعادة العظمى، ويمثل له الغائب، يعيد إليه الماضي فيتعزَّى بذلك ويحمد الله، ويعترف لأولئك العشاق المتيمين، والرواةِ الأمناء المدققين بالفضل والإحسان، ويدين لهم بالشكر والامتنان، فما صنعت أمة بنبيها مثلَ صنيع هذه الأمة، ولا حرصت على تخليدِ آثاره، ورواية أخباره، ونقل دقائقه وجلائله، مثل ما حرصت هذه الأمة، ولا اعتنى علماء دينٍ بدراسة عبادة من عبادات أنبيائهم، مثل ما اعتنى علماء هذه الأمة بهذه الحجة، ولا تعمقوا مثل تعمقهم في ذلك.

وقد دلَّت كل القرائن على أنَّ هذه الحجة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل، لم تكن فلتة من الفلتات، بل جاءت في وقتها المناسب ﴿وكلُّ شيء عنده بمقدار﴾[1].

وكان في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة ومصلحة راجحة، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب، وكثر المسلمون، وقويَ الإيمان، وشبَّ الحب، واستعدّت النفوس للتعلم والاستفادةِ، وهَفَت القلوب، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة، ودنَت ساعة الفراق، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة ليحج البيت، ويلقىٰ المسلمين،

---

(١) سورة الرعد: الآية ٨.

ويعلمهم دينهم ومناسكهم، ويؤدي الشهادة، ويبلِّغ الأمانة، ويوصي الوصايا الأخيرة، ويأخذ من المسلمين العهدَ والميثاق، ويمحو آثار الجاهلية ويطمسها ويضعها تحت قدميه.

فكانت هذه الحجة تقوم مقامَ ألفِ خطبةٍ وألفِ درس، وكانت مدرسةً متنقلةً، ومسجداً سياراً، وثكنةً جوالةً، يتعلَّم فيها الجاهل، وينتبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوىٰ فيها الضعيف، وكانت سحابة واحدة تغشاهم في الحِلِّ والترحال هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه، وتربيته وإشرافه.

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي، وقوة حبهم، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكل حادث من حوادثها الصغيرة، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء، والملوك والأمراء، والعلماء والنبغاء، وذلك شأن المحب الواثق، والعاشق الصادق الذي يرى كل شيء لمحبوبه حسناً، فيتلذَّذ بذكره، ويسترسل في حديثه، لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا يحصيها، ولا دقيقةً نادرةً إلا يستقصيها.

يتطيَّب رسول الله عند إحرامه فيذكرون من باشَرَ هذا التطييب، ويذكرون نوعَ هذا الطيب، فيقولون: (ثم طيبته عائشة، رضي الله عنها)[1] بذريرة، وطيب فيه مسك، حتى يرى وبيص المسك (أي لمعانه) في مفارقه ولحيته ﷺ، ويُشعِرُ رسول الله ﷺ هديَه، فيذكرون تفصيله وتحديده، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر، وكيف سال منها الدم، ويذكرون احتجامه،

(١) وقد أفاض الشرَّاح في وصف الذريرة وأنواعها، راجع الكتاب.

والاحتجام فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحج، فيحدّدون مكانه من الجسم، وموضعه من الطريق، فيقولون: (واحتجم بملل)، وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة، ويقولون: (واحتجم على رأسه بلحى جمل)، وهو موضع في طريق مكة، وتهدى له قطعة لحم وهي حادثةٌ عادية تتكرر، ولا تسترعي الاهتمام في عامة الأحوال، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل، فيقول الراوي: (حتى إذا كانوا بالأبواء أهدىٰ له (الصعب بن جثامة) عجز حمارٍ وحشي).

ويحددون المنازل بين المدينة ومكة ويعدُّون أيامه في السفر، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابةَ اليوميات وتدوين المذكرات، ولكن الحب يلهم ويخترع، فيقول الراوي: «ثم نهضَ إلى أن نزل بذى طوى فباتَ بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة»، ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحلة التي كثرت فيها الشواغل، وتعدّدت فيها المنازل، واشتد فيها الزحام، فلم يفتهم أن يقيدوا خروج حية في هذا المشهد الحافل، وإفلاتها من القتل، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة مِنى: (وخرجت حية وأرادوا قتلها فدخلت في جحرها)، ويذكرون كل من كان رديف[1] رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، ويذكرون اسم الحلاق وكيف قَسَّم شعره، ومن خصَّهم بالشق الأيمن، ومن خصَّهم بالشق الأيسر، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلاّ الحب العميق.

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة،

---

(١) وقد استوعب صاحب «نسيم الرياض» أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً، وزاد ابن منده على هذا العدد، راجع الكتاب.

وتاريخ المشاهير، وقد أخلَّت أممٌ كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم ومراحل حياتهم، وضيّعوا منها الشيء الكثير الذي لا تكمل حياتهم ولا يتمّ تاريخهم إلا به، ولم يحافظوا إلّا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم، فجلّ ما نعرف عن سيدنا المسيح ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ هو أخبار خمسين (٥٠) يوماً من سيرته وأخباره[١]، وهنالك أصحاب رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقة في العلم لم تبق إلا أسماؤهم ونتف من أخبارهم لا تشفي العليل ولا تروي الغليل، ولا تقود الأجيال ولا تنير السبيل.

وقد كان الحج بطبيعته ووضعه الخاص الذي يمتاز به عن سائر الأركان، وانتقاله من طور إلى طور، ومن فعل إلى فعل، ومن نسك إلى نسك، ومن مكان إلى مكان، وما يتعلق به من الأحكام والآداب والجزئيات، وتنوع أحوال الناس فيه، من أوسع أبواب الفقه، وأكثرها أحكاماً ومسائل، وأدقها، ولذلك عُنِيَ به العلماء قديماً وحديثاً، وانفرد بعلمه والإفتاء فيه علماء مختصون من التابعين وأتباع التابعين، ومن جاء بعدهم، وكان يشار إليهم بالبنان، وقد يعيِّنهم الخلفاء، ومن بيدهم الحل والعقد، فيعلن: «لا يفتِ في الموسم إلا فلان وفلان»، وجرت سنّة الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس بتعيين أمير الحج وإرساله للحج[٢].

وأكثَرَ علماء الإسلام وفقهاء الأمصار والمؤلفون الكبار البحث فيه، وتوسعوا فيه توسعاً لم يعرف لغيره من أبواب الفقه، ومنهم من أفرد له تأليفاً، وألف كتاباً خاصاً في المناسك، وإذا أفردت هذه الكتب التي ألفت في المناسك وأحكام الحج في عصور مختلفة، وفي بلاد مختلفة، وفي لغات مختلفة، كوّنت مكتبةً كبيرة، ومن المؤلفين من اختص بمذهبه، ومنهم من

---

(١) مقال جاء في دائرة معارف بريطانيا (١٣/١٧١).

(٢) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير وغيره من كتب التاريخ.

ذكر المذاهب الأخرى واستعرض دلائلها، وبحث بحثاً مقارناً، ومنهم من أفرد كتاباً بحجة الوداع.

وكلُّ ذلك يدل على مكانة الحج في الإسلام، ومدى عناية الأمة به، وقد كانت هذه الفريضة التي تفرض مرة في العمر وما ورد فيها من الفضائل، وما وعد الله عليه وأخبر به رسوله من الأجر العظيم والثواب الجزيل والمغفرة من الذنوب «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، وما يستتبع هذا السفر عادةً من الاهتمام الزائد وتحمل المشاق، وركوب البحار حيناً، وقطع البراري والقفار حيناً آخر، وتجشّم الأخطار والتعرض للمخاوف، وفراق الأهل والوطن، وقبول التزامات الإحرام ومحظوراته، والابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، كان كل ذلك كافلاً بأن تتوافر الدواعي، وتشحذ العزائم وتتوجه الهمم إلى معرفة فقهه وآدابه وسننه، وبذل أقصى الطاقة في إحسانه وإكماله، وأن تقتفى فيه آثارُ النبي ﷺ وتتبع سننه، ويقتدىٰ بهديه بقدر الإمكان، وإلى ما يبلغه جهد الإنسان، فكان كل ذلك باعثاً على العناية بحجة النبي ﷺ، التي كانت ولا تزال الحجة المثالية لكل مسلم في كل عصر ومصر، إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها.

ولما كان شيخنا العلّامة محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي من أحرص علماء عصره على خدمة الحديث الشريف، والاشتغال به تعليماً وتأليفاً، وشرحاً وتعليقاً ونشراً وإفاضة، وكانت لذته وطيبُ عيشه وقرةُ عينه ـ كما ذكرنا في تقديمنا لمقدمة «أوجز المسالك» ـ، في أن يقضيَ فيه نهارَه ويسهر فيه ليله، وكانت أمنيته أن يكون له في كل موضوع يتعلق بالحديث النبوي وبالسيرة النبوية نصيب، وكان يعرف ـ بحكم اشتغاله بالحديث وممارسته لهذه الصناعة الشريفة ـ مدىٰ عناية السلف بحجة الوداع، وما يتعرَّض لطالب علم الحديث ومن يطالع الشروح، والكتب المؤلفة في شرحها وبيانها، وكيف اختلفت المذاهب وتباينت الآراء في نوع حجة

النبي ﷺ وأفعاله وهديه في هذه الحجة، لكل ذلك سَمَت همته في عام (١٣٤٢هـ)، وهو في السابعة والعشرين من عمره[١]، إلى أن يفرد جزءاً في حجة الوداع، وكان إذ ذاك شاباً موفورَ الصحة، قويَّ الهمة، يهون عليه سهر الليالي وعناء النهار، فانصرف إلى تأليفه، وهو مستحضر لما كُتب في هذا الموضوع ولأحسن ما قيل فيه، وقد بارك الله في وقته وهمته، ففرغ من تأليفه في يوم وليلة ـ غير الحواشي التي أضافها في أوقاتٍ مختلفة ـ كما بيَّن ذلك في خاتمة هذه الرسالة، فجدَّد ذكرى مآثر السلف في الانقطاع التامِّ إلى العلم والتأليف، والعكوف عليه ليلاً ونهاراً، وبركة الأوقات وإتمام عملٍ كبير في وقت قصير، ﴿وما كان عطاءُ ربك محظوراً﴾[٢].

وتشاغل المؤلف عن هذا التأليف الصغير في قامته، الكبير في قيمته زمناً طويلاً، وصدر من قلمه في هذه الفترة مجلدات كبار في شرح الحديث، كـ «أوجز المسالك في شرح موطأ الإمام مالك» في ستة أجزاء، وصدر «الكوكب الدري»، وثلاثة أجزاء من «لامع الدراري»، هذا غير الكتب الكثيرة المقبولة في فضائل الأعمال، وأخبار الصحابة، وشرح الشمائل النبوية، وفي مقاصد دينية اجتماعية في «أردو» لغة مسلمي الهند العامة، وبقي الكتاب مطموراً بين مسوداته ومؤلفاته القديمة حتى الآن.

ولما أراد الله نشرَ هذا الخير ونفعَ المسلمين والمشتغلين بالحديث والسنّة وطلبة العلم به، وكان قد منعه ضعف البصر الذي اعتراه من سنين، ثم العملية الجراحية في العين سنة (١٣٩٠هـ)، عن تأليف كتبٍ جديدة تستلزم مراجعة كثيرة ومباشرة الكتابة والتصحيح، تذكَّر هذا الكتاب القديم الذي تناساه، وشُغِلَ عن إبرازه وإكماله وإعداده للطبع، فاستخرجه من بين

---

(١) ولد لعشر خلون من رمضان سنة ١٣١٥هـ.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٠

الكتب والمسوّدات، وتناوله بتفصيل المجمل، وشرح المبهم، وإيضاح المشكل، ونقل العبارات التي أحيل إليها، والكشف عن الإشارات التي جاءت فيه، وزيادة الدراسات التي تجدّدت عنده، والاستعانة ببعض المعلومات الجديدة التي حصلت له بحكم أسفاره العديدة، وإقاماته الطويلة بالحرمين الشريفين، والاطلاع على مصادر جديدة، لا يبخل فيه بمعلوم ولا يتحاشىٰ فيه عن ذكر مصدر، أو مساعد، وإن كان من طبقة تلاميذه ومن الصغار، فهو لا يرى فيه غضاضة لنفسه ولا عيباً فادحاً لكتابه، وقد ذكر وشكر كل من أعانه في هذا العمل بقليلٍ أو كثيرٍ شأن علماء السلف المخلصين والعلماء الربانيين.

ثم بدا له أن يكمل هذا الجزء ببحث في عمراته ﷺ وعددها وتحديدها وتفاصيلها، وما اشتملت عليه من أحكام فقهية وبحوث تاريخية وفوائد علمية وتحقيقات حديثية، فكان نهجه في هذا البحث نهجه في جزء حجة الوداع، استيعابٌ شامل واستقصاء كامل، وتحرٍّ للصواب، وبحثٌ عن الحقيقة العلمية وتقرير للحق، وأمانةٌ في النقل، وقد أيِّد هذا العمل المبارك ببعض المبشِّرات والرؤى الصالحة والإشارات الغيبية التي تدل على إخلاص المؤلف وابتغائه لوجه الله، وشغفه بالسنّة والحديث النبوي، وعلى أنَّ هذا العمل قد حظي بالقبول.

ويمتاز هذا الكتاب ـ كما يلاحظه القارىء المطلع ـ:

أولاً: باستيعابه الشامل لكل ما يتصل بهذه الرحلة المباركة، والركن العظيم، من قريب أو بعيد، من بيان المناسك، ونقل المذاهب، واختلافات الأئمة، وآراء الشرَّاح، ومباحث المحدِّثين والفقهاء، وتحديد المنازل وتعيين أسمائها ومواضعها في ضوء العلم الحديث، والتغيرات التي طرأت عليها، واقتباس أحسن ما كتب في هذا الموضوع في القديم والحديث، واستعراض

النقول المفيدة عن كتب المتقدمين، حتى يحار القارىء ويملكه العجب من هذا الاستقصاء، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه موسوعة صغيرة فيما يتصل بحجة النبي ﷺ التي قد تسمى «حجة الوداع» وقد تسمى «حجة البلاغ».

ويمتاز ثانياً: بالاطلاع الواسع الدقيق على مذاهب الأئمة، وآراء فقهائها وعلمائها واختلافاتهم، وصحة النقل ودقته وأمانته، وكان ذلك شعار المؤلف في جميع مؤلفاته، لا سيما في «أوجز المسالك»، فقد سمعت بعض[1] كبار علماء المالكية في الحجاز يعجبون من سعة اطلاع المؤلف على المذهب المالكي وفروعه ودقته في نقلها.

ويمتاز ثالثاً: بمعرفته لفضل المتقدمين والأدب معهم، وإيتاء كل ذي حقٍ حقه، والتصريح بأسمائهم، وبالمصادر التي ينقل عنها، والرد عليهم، وتبيين بعض أوهامهم في أدبٍ جم وتواضعٍ ظاهر، وأسلوبٍ علمي نزيه، وذلك شعار العلماء المتقين في كل عصرٍ وطبقة.

* * *

---

(١) هو العلامة علوي بن عباس المالكي رحمه الله.

حياة الصحابة(1)

للعلّامة الشيخ الداعي إلى الله محمد يوسف الكاندهلوي

إنَّ السيرةَ النبوية وسيرَ الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلةَ الإيمان وتشعلُ بها مجامر القلوب التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهبِّ الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها وأصبحت جثةً هامدةً تحملها الحياة على أكتافها.

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقتها قلوبهم، وما كان قولهم إذا دعوا إلى الله ورسوله إلا أن قالوا: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾(2) ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وسيطر على نفوسهم وعقولهم، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب، والحب لله والرسول، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، وإيثار الآخرة على الدنيا وإيثار

---

(1) طبع الكتاب أولاً في مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد سنة ١٣٧٩هـ في حياة المؤلف، وصدرت الطبعة الثانية من مكتبة دار القلم دمشق سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م، بإشراف وعناية الأستاذين: الشيخ نايف العباس، والأستاذ محمد علي دولة.

(2) سورة آل عمران: الآية ١٩٣.

الآجل على العاجل، والغيب على الشهود، والهداية على الجباية، والحرص على دعوة الناس، وإخراج خلق الله من عبادةِ العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَوْر الأديان إلى عَدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها، والشوق إلى لقاء الله والحنين إلى الجنة، وعلوِّ الهمَّة وبعد النظر في نشر رفد الإسلام وخيراته في العالم، وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها وأنجادها، ونسوا في ذلك لذاتهم وهجروا راحاتهم، وغادروا أوطانهم، وبذلوا مهجهم وحُرَّ أموالهم حتى ألقىٰ الدين بِجِرانه، وأقبلت القلوب إلى الله، وهبت ريح الإيمان قويةً عاصفة، طيبةً مباركة، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى، ونفقت سوق الجنة وانتشرت الهداية في العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ضمَّت وقائعهم كتب التاريخ، وحفظت أخبارهم دواوين الإسلام، وكانت دائماً مادة التجديد والبعث الجديد في حياة المسلمين، ولذلك اشتدت عنايةُ دعاة الإسلام والمصلحين بهذه الحكايات، واستعانوا بها في إيقاظ همم المسلمين، وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدينية.

ولكن أتىٰ على المسلمين حينٌ من الدهر زهدوا فيه في هذا التاريخ وتناسوه، وانصرف كتَّابهم ومؤلفوهم ووعّاظهم ودعاتهم عنه إلى أخبار الزهَّاد والمشايخ والأولياء المتأخرين، وطفحت الكتبُ والمجاميع بحكاياتهم وكراماتهم، وأولع الناس بها ولعاً شديداً، وشغلت مجالسَ الوعظ وحلقات الدروس وصفحات الكتب.

وكان من أول من انتبه ــ على ما نعرف ــ في هذا العصر إلى فضل الصحابة وأحوالهم في الدعوة الإسلامية والتربية الدينية، وإلى قيمة هذه الثروة ــ المطمورة في الأوراق ــ الإصلاحية والتربوية وتأثيرها في القلوب،

وكان من أول من أقبل عليها وعنيَ بها وانتصب لهـا المصلـح الكبير والـداعية المشهور الشيـخ (محمد إليـاس الكانـدهلوي، رحمه الله) (م ١٣٦٣هـ) فقـد عكف عليها مطالعةً ومدارسةً وحكايةً وتذكيراً، رأيت له شغفـاً عظيمـاً بالسيـرة النبـويـة وأخبـار الصحـابـة ــ رضي الله عنهم ــ، يتـذاكـرهـا مـع تـلاميـذه وأصحـابه، وتُقـرأ عليه كـل ليلة فيسمعها في رغبـة ونهامـة وإجـلال، ويحب إحياءَهَا ونشـرَها ومـذاكرتهـا، وكان ابن أخيـه المحدّث الكبيـر الشيـخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمـام مالـك»[1]، ألَّف كتـاباً متـوسطاً في (أردو) في أخبـار الصحابـة رضي الله عنهم سماه «حكـايـة الصحابة»، وسُرَّ به الشيـخ سروراً عظيماً وألزم المشتغلين بالدعوة والرحـلات مـطالعةَ هـذا الكتاب ومـدارسته وكـان ــ ولا يـزال ــ من أهم الكتب المقـررة للدعـاة والمتطوعين، ومن الكتب التي نـالت قبولاً عـظيماً ورواجـاً كبيـراً في الأوساط الدينية.

وورث الشيـخ محمد يوسف والدَه العظيم الشيـخ محمد إلياس، ورثـه في حمل أعباء الدعوة وأمانتها، وورثـه في ذوقه واتجـاهه في الشغف بـالسيرة وأحوال الصحابة، وكان هو الذي يقرأ له هذه الحكايات والدروس من السيـرة وتراجم الصحابة في حياته وأكبَّ بعد وفاته ــ مـع الاشتغال الشديد بالدعوة ــ على مـطالعة كتب السيـرة والتاريـخ وطبقـات الصحـابـة، ولا نعـرف ــ فيمن نعـرف ــ أوسـع نظراً في أخبـارهم ودقـائق أحـوالهم وأكثـر استحضـاراً لهـا، وأحسن استشهـاداً بها، وأجمـل اقتباسـاً منها، وأكثـر إيراداً لهـا في الحـديث والمحـاضرات منـه، وتكاد تكـون هذه الحكـايات التـاريخية والقصص الحق مصدر قوة كلامه وتأثيره، وسرَّ سحره ووقعـه في القلوب، وحمل الجمـاعات الكبيـرة على التضحية والإيثـار، والاستهانـة بـالمتـاعب والمصـاعب، وتكبّـد المشاق في سبيل الله.

---

(١) طبـع الكتاب في الهند في ستة أجزاء.

لقد بلغت الدعوة في عهده إلى الأقطار العربية، وإلى أمريكا وأوروبا، واليابان وجزر المحيط الهندي، ومسَّت الحاجة إلى كتاب كبير يطالعه المشتغلون بالدعوة والخارجون في الرحلات يدرسونه ويغذون به قلوبَهم وعقولَهم، ويلهبون به عواطفهم الدينية، ويكون حافزاً لهم على تقليدهم، وبذل نفسهم ونفيسهم في سبيل الدعوة، والتجول في العالم والهجرة والنصرة، وفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، إذا قرأوا هذه الأخبار تضاءلت نفوسهم أمامها كما تتضاءل السواقي أمام البحار، وطوال الرجال أمام الجبال الشمّ، فاتهموا يقينهم، واستصغروا أعمالهم، واحتقروا حياتهم، وارتفعت هممهم، وطمحت نفوسهم، وتحركت عزائمهم.

وأرادَ الله أن يكون للشيخ (محمد يوسف) فضلُ التأليف في هذا الموضوع الجليل مع فضل الدعوة إليه، مع أنَّ حياته المشغولة المتنقلة المزدحمة بالرحلات والضيوف والوفود والدروس أبعد شيء من حياة التأليف والكتابة، ولكنه استطاع بتوفيق الله تعالى وعونه، وبعلوِّ همته وقوة عزيمته أن يشتغل بالتأليف، ويجمع بين الدعوة والكتابة ـ وما أصعب الجمع بينهما ـ، وقد استطاع بحول الله وقوته أن يشتغل بشرح «شرح معاني الآثار» للإمام الطحاوي، فألَّف كتاب «أماني الأخبار» في مجلدات كبار، واستطاع بحول الله وقوته أن يؤلِّف كتاب «حياة الصحابة» في ثلاثة مجلدات ضخام، يجمع فيه ما انتثر وتفرق في كتب السير والتاريخ والطبقات، ويبدأ بأخبار الرسول الأعظم ﷺ، ويثنّي بقصص الصحابة رضي الله عنهم، ويعنى بجوانب تخصُّ الدعوة والتربية، وتهمُّ الدعاة والمربين بصفة خاصة، فيكون تذكرةَ الدعاة وزادَ العاملين، ومدرسةَ الإيمان واليقين لعامة المسلمين.

وقد جمع هذا الكتاب من أخبار الصحابة رضوان الله عليهم وسيرهم وقصصهم وحكاياتهم ما يندر وجوده في كتاب واحد، لأنه اقتبس من كتبٍ كثيرة، ككتب الحديث والمسانيد، وكتب التاريخ، وكتب الطبقات، لذلك

جاء هذا الكتاب يصوِّر ذلك العصر، ويمثـل حياة الصحـابة رضي الله عنهم، وخصائصهم وأخلاقهم وخواطرهم، وقـد أسبغت هذه الـدقة وهـذا الاستقصاء والإكثار من الروايات والقصص على الكتاب تأثيراً لا يكـون للكتب التي بنيت على الإجمـال والاختصار ومغـزىٰ القصـة، ويعيش القـارىء لأجله في محيط الإيمان والدعوة، والبطولة والفضيلة، والإخلاص والزهد.

وإذا صـحَّ أن الكتاب صورةٌ نفسيـة للمؤلف وقطعـةٌ من قلبه، وأنـه يؤثِّر بقدر ما يكتبه المؤلف عن عقيدة واقتناع، وتأثر وانطبـاع، وبقدر مـا يعيش في مادته ومعناه، إذا صـحَّ هذا فأنا أؤكـد أنَّ الكتاب مؤثِّـر وناجـح، لأنَّ المؤلف قد كتبه عن عقيدة وحماسة، ولذةٍ وعـاطفةٍ، وقـد خالط حبُّ الصحـابة لحمَـه ودمَه، واستولى على مشاعره وتفكيره، وقد عاش في أخبارهم وأحـاديثهم زمناً طـويلاً، ولا يـزال يعيش فيها، ويستقي من منـابعها، فَسَحَ الله في مـدته[1]، وبارك في حياته.

لم يكن هـذا الكتـاب في حـاجـةٍ إلى تصـديـر مثلي لجـلالـة مؤلفـه وإخلاصه، فإنه ــ على ما أعتقد وأعرف ــ موهبـة إلٰهية، وحسنـة من حسنات الزمان في قوة الإيمان، وقـوة الدعـوة والانقطاع إليهـا، والتفاني في سبيلهـا، لا يوجد أمثاله إلاّ بعد فترات طويلة، وهو يقود حركةً دينية من أقوىٰ الحركـات وأوسعها وأعظمها تأثيراً في النفوس، ولكنه أراد أن يكرمني بذلك، وأردت أن يكون لي نصيب في هذا العمل الجليل، فكتبت هـذه الكلمة متقـرباً بهـا إلى الله، تقبَّل الله هذا الكتاب ونفـع به عباده.

* * *

(١) تـوفَّى الله سبحانـه وتعالى المؤلف إلى رحمتـه في لاهور في التـاسـع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ الموافق ٢ نيسان (إبريل) سنة ١٩٦٥م.

الإسلام الممتحن[1]

للأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي»، بالهند

قد بقيت فترةً من الزمن أتهيَّب تقديم هذه المجموعة من مقالات ابن أخي محمد الحسني، التي أسماها «الإسلام الممتحن»، وما كان تقديم الكتب والمؤلّفات لمشاهير الكتاب أو المغمورين منهم، بدعاً من الأمر بالنسبة إليَّ، حتى خفت أن يطغىٰ التقديم على التأليف، وأُتّهم بالتوسع والسخاء في تقديم الكتب وتصديرها، وما ذلك إلّا لأن الصلة بيني وبين صاحب هذا الكتاب صلة الأب بالابن، والأستاذ بالتلميذ، وكنت أشعر ـ وأنا أحدِّث نفسي بكتابة هذا التقديم ـ بأني أقدِّم لكتاب من كتبي، وأتورط بذلك أحياناً في الاعتراف لنفسي بالإجادة والتوفيق، والتهنئة والتقريظ، وذلك مما لم تستحسنه الشرائع وعلم الأخلاق والآداب السليمة، وتحاشيت عنه بقدر الإمكان.

ثم حاسبت نفسي علىٰ هذا الشعور محاسبةً أمينة محايدة وحللته تحليلاً نفسياً، فوجدت أن نصيبَ العاطفة فيه أكبر من نصيب العقل، وأن الخوفَ من قالةِ الناس وحديثهم، قد غذى هذا الشعور وأفاض عليه لوناً خلقياً، ورأيت أنني إذا استسلمت لهذا الشعور، فقد فرطت في تأدية أمانة، والقيام بشهادة، والشهادةُ للأقربين ليست أقل وجوباً من الشهادة على الأقربين، فإنَّ

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من المختار الإسلامي «للطباعة والنشر والتوزيع» القاهرة في سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

الله تعالى حين يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُونوا قوَّامين بالقِسْط، شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[1]، فإنه يقول كذلك: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إنَّ الله نِعِمَّا يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[2].

ثم إنَّ قصة البيئة التي نشأ فيها الكاتب، والعوامل التي كوَّنت هذه العقلية التي صدرت عنها هذه الفكرة، والدوافع التي دفعته إلى كتابة هذه المقالات، والتركيب النفسي والمزيج الثقافي والحضاري الذي ورثه عن آبائه، وتلقاه من مجتمعه، والأحداث الجسيمة الأليمة التي وقعت في الوطن الإسلامي الكبير، فعاصرها وعاشها واكتوىٰ بنارها، لا يحسنُ حكايتَها إلّا من شهد فصولها وخاض معركتها وساير ركبها، وقد كان في بعض الأحيان شاهد عيان والسابق إلىٰ الميدان.

إنَّ صاحب هذه المجموعة نشأ في بيئة آمنت بأن الإسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة، وأنه هو الحق الذي ليس بعده إلّا الضلال، والسعادة التي ليس وراءها إلّا الشقاوة، وأنه للإنسانية كسفينة نوح لا ينجو إلّا من ركبها وأوىٰ إليها، وأنَّ نهاية كل من استغنىٰ عنها وإن اعتصم بجبل، نهاية ذلك الولد الشارد المارد الذي قال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ وكان جواب نوح: ﴿لا عاصمَ اليوم من أمر الله﴾ وكانت عاقبته أن حال بينهما الموج ﴿فكان من المُغْرَقين﴾[3].

وآمنَتْ بأنَّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي ﷺ خاتم الرسل، وإمام الكل، ومنير السبل، لكل عصر ولكل جيل،

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٨

(٣) سورة هود: الآيتان ٤٢، ٤٣.

وأنَّ الله قد ربط مصير العرب بمصير الإسلام، وعقد ناصيتهم به، فلا عِزَّ لهم ولا سعادة، ولا نهوض لهم ولا قيادة، إلاّ بالانضواء إلى رايته والانصهار في بوتقة تعاليمه، والتفاني في سبيله، وأنَّ أعدى عدو لهم من ينادي بالجاهلية، ويهتف بالقومية والعنصرية أو الوطنية والاشتراكية، أو فلسفةٍ من الفلسفات الملحدة، فيحاول أن يحول بينهم وبين الإسلام.

وآمنَتْ بأنَّ الإسلام وحدةٌ لا تتجزأ، ومنهج للحياة كامل شامل، وأنه عقيدة وأخلاق، وسياسة وعلم، وعقل وعاطفة، وحضارة وثقافة، وله موازينه الخاصة، وقيمه المعينة، ومقاديره المحدودة، ومقاييسه المعروفة، ولا يحتاج إلى تلفيق أو تطعيم، أو مساومة أو تنازل.

إنه قد عاش في ظلال تاريخ الدعوة الإسلامية وقصة بطولاتها ومعجزاتها وصنائعها وعجائبها، تتلىٰ في بيته وأسرته الملاحم الإسلامية التي نظمها بعض أفراد أسرته المتقدمين في الشعر الأردي القوي المثير، مقتبسة من «فتوح الشام» للواقدي والأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية، وأخبار الصحابة، وفضل الحضارة الإسلامية، ودور العرب في بناء العالم الجديد وإنقاذ الإنسانية من أعدائها، فامتزج كلُّه بلحمه ودمه، وتكوَّنت به عقليته ونفسيته، وأحبَّ الرسولَ ﷺ وأصحابَه والعرب حباً لا يمكن تجريده منه في مرحلة من مراحل الثقافة، وفي فترة من فترات الحياة، وفي بيئة من البيئات، وأصبح هذا الحب وهذه العاطفة تلهبُ شعورَه، وتدفِّق قريحته، وتجري قلمه، وأصبحت له مصدرَ الإلهام، ومنبعَ الإيمان والحنان.

إنه وُلِدَ في أسرةٍ كان شعارها منذ زمن طويل، الجمع بين العقيدة السلفية النقية، وبين الربانية الصحيحة الصافية، وبين الزهادة والعبادة، وبين بذل الجهد لإعلاء كلمة الله ورفع راية الجهاد حيناً بعد حين، والسعي الحثيث في الجمع بين إشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة، وبين

التفنن في العلوم والذوق الأصيل للأدب والشعر، وأورثه كل ذلك: من تراث وتاريخ ودم وعرق، تقديره لإكسير الحب وقوة العاطفة، وسلم بذلك من الجفاف الروحي، والاستخفاف بالعاطفة والحاجة إلى تزكية النفس والشحنة الإيمانية الروحية، وسلم من الاستخفاف الذي أصبح شعار الكتّاب والدعاة في عصره، وخصوصاً الذين نشأوا بعيدين عن هذه البيئة الجامعة والتربية المزدوجة.

إنه نشأ وترعرع في عصر تغنّى بشعر إقبال، وكانت له فيه دولةٌ وصولة، وهو شعرُ الحبِّ والطموح، وشعر الإيمان والحنان، وشعر الثقة بصلاحية الإسلام، والإيمان بخلوده، فأساغه عقله المتفتّح وذوقه الناشىء، وجعله جزءاً من أجزاء ثقافته وأساساً من أسس تفكيره.

إنه نشأ في حجر والد مؤمنٍ جمع بين سلامة العقيدة وقوة الإيمان والقلب المتفتح والعقل النيِّر الواسع، والعلم الحديث الأحدث وحب الواقعية والجد، لا يرى تناقضاً بين العلم والدين والقديم والحديث، وقد اقتبس من الثقافتين: القديمة والحديثة والغربية والشرقية، أفضل عناصرهما وأجملها، فمزج بينهما مزجاً جميلاً، فأصبح برزخاً بين بحرين لا يبغيان، شديد الحب لله ولرسوله، ولعشيرته وقومه، وللغته وبلاده، شديد البغض، شديد البراءة من كل ما يخالف الدين الحنيف من: عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات، عميق الفهم للإسلام، ووثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية، شديد الغيرة على الإسلام، عظيم الحب لمركزه ومقدساته، متقشفاً في الحياة الفردية، متوسعاً في فهم القضايا العلمية والإسلامية، شديداً في الحدود والنصوص، مرناً في المباحات، والاستفادة بالحكمة والتجارب.

ذلكم أخي وأستاذي ومربي عقلي وثقافتي، ذلكم والد هذا الكاتب العزيز الدكتور عبد العلي ابن العلامة عبد الحي الحسني.

نشأ هذا الشاب تحت ظلال هذه التربية، وفي حجر هذه البيئة، ثم لما عقل وثقف وعاصر الأحداث، فتح عينيه على مجتمع إسلامي حائر بين الإسلام والجاهلية، والدين والعلمانية، قادة الفكر فيه مذبذبون، وأولياء الأمور فيه مضطربون، وأكثرهم منافقون يتخذون الدين حيلةً ووسيلةً للوصول إلى أغراضهم، والهتاف بالإسلام سُلَّماً للوصول إلى كراسي الحكم، وقنطرةً للعبور إلى شاطىء السيادة والقيادة، والركوب على أعناق الشعوب المسلمة الساذجة التي لا تفهم إلّا لغة القرآن والحب والحنان، ولا تتحرك ولا تتحمس إلّا بحكايات الصحابة وأبطال الإسلام وفضائل الجهاد والشهادة.

إنه أحبَّ اللغةَ العربيةَ من صباه، وحبُّ الصبا شديد، وأحبَّ كل ما يمتُّ إليها بصلة، وكان يتمثَّل العرب في قصص الرعيل الأول للإسلام وطليعة الدعاة والمجاهدين، الذين سمع حكايات بطولاتهم وفدائهم في قصائد الملحمة الإسلامية، فآمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم، لا يعدلون بمحمد ﷺ إنساناً وقائداً وإماماً، ولا يعدلون بالإسلام ديناً ومنهجاً، وبالقومية الإسلامية قوميةً، فلما صار يعي ويشدو، ويقرأ ويكتب، فتح عينيه على كتابات العرب لو كتبت تحتها أسماء الكُتَّاب الأوروبيين والمؤلفين المستشرقين والدعاة المنحرفين لم يكن بعيداً، وذلك لأنه كانت بين هذه الكتابات وبين شهرة هؤلاء الكتاب ودعوتهم فجوةً ومنافاة، ورأى أنَّ كثيراً من هؤلاء الكُتَّاب العرب ينظرون إلى الإسلام كدين أدىٰ دوره، وبطارية قد نفدت شحنتها، فليس من العقل والكياسة التشبّث به والدعوة إليه، ومواجهة الواقع والعصر الراقي بحلوله وأحكامه، وخيرهم من ينظر إلى الإسلام كدين من الأديان الكثيرة، ومنهج للحياة من مناهجها المتنوعة، وخيرُ أحواله أن يسمح له بالبقاء في دائرة ضيقة محدودة، وفي حياة فردية سليمة.

كان كل ذلك مفاجأة أليمة لم يكن يتوقعها، بل لم يكن يتصورها في بيئته التي صوَّرت له الإسلام كدين حي خالد، خليق به أن يقود ويسود،

والعرب كرائد أول وقائد أفضل لهذه الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وكانت صدمة عنيفة لعقله وقلبه.

ثم جاءت الفترة الحالكة التي هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء في الخمسينات الأولىٰ، وقع أكثر أبناء العرب وشبابهم، وكثير من كهولهم وعلمائهم تحت تأثير قيادةٍ ترىٰ التخلّص من أثر الإسلام في النفوس والعقول، والحياة الاجتماعية والسياسية أهمُّ وأقوى من محاربة الصهيونية واستعادة المقدسات الإسلامية، وترى إزالة هذه الأنقاض أو الركام ــ على حد تعبيرها ــ شرطاً لبناء المجتمع الجديد، وإزالة آثار العدوان الأجنبي، وتحلُّ القومية العربية والاشتراكية العلمية محل العقيدة الإسلامية والدعوة الإسلامية، وتجعل لها كل ما للدين من إيمان وحماس وعصبية وحمية، وتعتمد في ذلك على الهتافات والدعايات والدعاوىٰ الفارغة، أكثر من الاعتماد على السلاح والقوة الحربية والروح المعنوية والإيمان الراسخ، وكانت فتنة عمياء، أعمت وأصمت وسحرت العقول والنفوس، وقلبت الحقائق وأنكرت البديهيات، وكانت موجة عارمة في الشرق العربي، اكتسحت الصحافةَ والأدب ودُورَ العلم ومراكز النشر، وما صمد في وجهها إلّا أفرادٌ قلائل يعدون على رؤوس الأصابع، وكانت مجابهتها ونقدها العلمي مثل: (كلمة حق عند سلطان جائر)، فقد تجاوب معها الشباب المتحمس الطموح، والصحافة القوية التي سميت في الغرب بـ(صاحبة الجلالة).

في كل هذه الظروف والملابسات الدقيقة المثيرة، وفي هذه البيئة الحسَّاسة المكهربة، أمسك الكاتب الناشىء صاحب هذه المجموعة ــ الذي كان لا يزال في شَرْخ الشباب ــ قلمه ليخط مقالات افتتاحية لمجلة «البعث الإسلامي» التي كان يرأس تحريرها على حداثة سنه، ليعبر عن شعوره الجريح الفيّاض، وقلبه المكلوم المتألم، ويدافع عن الفكرة الإسلامية التي آمن بها واحتضنها وأحبها، ويذكر العرب بصفةٍ خاصةٍ برسالتهم وبتاريخهم

وبمركزهم في العالم، وميزاتهم بين الأمم، وبـالدور الـذي يستطيـع الإسـلام أن يمثله في هذه المعركة الحامية، والساعة الدقيقة الحاسمـة، والدورُ الـذي يجب أن يمثله العـرب، على المسـرح العـالمي، الـذي أصبح مـركـزاً للمسرحيات الهازلة، والتمثيليـات السخيفة، وكـانت الأمم والبلاد كـرةً دائرة، ودمىً متحركة فيها، لا تملك إرادةً، ويذكر المسلمين برسالة الإسـلام الأصيلة الخـالدة، وفضلهـا وقيمتها، والعنـاصر التي تـركبت منها، وحـاجة الإنسـانيـة إليها، وينقل إليهم همساتها ودقات قلبها، حين تـراهم قد تخلوا عن مـركزهم في القيادة، وجروا وراء القيادات الزائفة، وتطفلوا على مائدتها، وأنَّ الواجب عليهم أن يـدعوا إلى الإسـلام الكامـل الذي يعـطي كلَّ ذي حق حقـه، وينير العقول، ويشعل مجـامر القلوب، ويهـذِّب الأخلاق، وينـظم الحياة، ويضبط الأمم، ويقـود المدنيـة، ويشعل المـواهب، وينشئ الرجـال، ويربـي القـادةَ والعبـاقرة، لا هـو جاف خشيب، ولا هـو رقيق مائـع، ولا هـو رهبانيـة وهجـر للدنيا، ولا هو مادية ونهامة للحياة، إنما هـو الدين الـذي جاء بـه محمد ﷺ، ونطق به القـرآن، وتمثل في حيـاة الصحابـة، والقرون المشهـود لها بـالخير، والتابعين لهم بإحسان، من الجامعين بين العقـل والقلب، والعقيدة والعمـل، والجهاد والربانية.

وكان متأثراً في كل ذلـك بطبيعـة الحال بـالبيئة التي نشـأ فيها، ودعـوة المجدد الكبير والمجاهد العظيم السيد الإمـام أحمد بن عـرفان الشهيـد الذي كـان من سلفه وعـظماء أسـرته في المـاضي القـريب[1]، وبفكـرة «الإخـوان المسلمون» ورائدهم الإمام الشهيد حسن البنا الذي تعرَّف به وأحبه عن طريق عمه كاتب هذه السطور، الذي كان له صلات وثيقـة بأصحـاب هذه الـدعوة، وزملاء الفقيد الشهيد وتلاميذه النجباء، فتجلَّى تأثير كـل هذه العـوامل القـوية

(١) ليـراجـع للتفصيـل كتـاب «إذا هبت ريح الإيمـان» لكـاتب هـذه السـطور طبـع دار الرسالة بيروت.

والدراسات العصرية، ومطالعة الكتابات الإسلامية التي أنتجتها هاتان الحركتان القويتان في المقالات التي كتبها بين آونةٍ وأخرى، وتتكون منها هذه المجموعة.

وأحدثت هذه الجوانب المتناقضة، جانب الواقع المرير والمشاهد القاسية، صراعاً في نفسه، حَوَّل قلمه إلى شلَّالٍ يتدفّق وينحدر بقوة، فصدرت هذه المقالات في أسلوب قوي ملتهب، هو نتيجة كل صراع نفسي رافقته قدرة ربانية، وقلم سيّال رشيق وثروة لغوية، وهذا الأسلوب له قيمته في إيقاظ الشعور، وفي تحريك النفوس والعقول، ومحاربة (مركَّب النقص)، وإعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة، والاعتزاز بالقيم والمفاهيم، خصوصاً إذا كان مدعماً بالدلائل والوثائق، ومسلَّحاً بالشواهد والتجارب، وهي طليعةُ كل إصلاح وانقلاب، ورائدُ كل نهضة وتقدّم، وهو الأسلوبُ الذي استعانَ به الخطباء والكتَّاب في العصر الإسلامي الأول، واستعان به السيد جمال الدين الأفغاني، وصاحبه الشيخ محمد عبده في مقالات «العروة الوثقىٰ» التي أشعلت العالم الإسلامي حماساً وحميةً، وحملت الحكومات الغربية الاستعمارية على منع دخولها، في الأقطار التي كانت تحكمها، ولعبت دوراً لا يستهان بقيمته في إيقاظ الشعور الإسلامي وإيجاد الوعي السياسي.

مع هذه السِّمة البارزة لهذه المقالات فإنها تدعو إلى التأمل العميق، وتغذّي الفكرة، وتفتح آفاقاً جديدة للفكر الإسلامي، وتزوِّد العاملين في مجال الدعوة والفكرة الإسلامية ببعض معلوماتٍ جديدة، ووثائق وحقائق عن الحضارة الغربية والفلسفات المادية، ومدىٰ إفلاس الغرب وحيرته وسآمته وخوائه الروحي، وما يعانيه من أزمات وعقد ومشكلات، فإنَّ الكاتب يعيش في بلد قد اكتوى بنار الغرب، وخاض المعركة الفكرية الحضارية السياسية التي قامت وحميت في شبه القارة الهندية، ثم خرج منها الشعب المسلم محتفظاً بجزء كبير من شخصيته، معتزاً بحضارته وقيَمه، خبيراً بمواضع

الضعف في الغرب ومساويه، وقصة فشله وإخفاقه، في حل القضايا المعاصرة، فأكسبه كل ذلك ثقة بدعوته، وقوة في كتاباته، وقيمة لما يقول ويدعو إليه.

في ضوء قصة البيئة والتربية والأحداث والتجارب، والميول والعواطف والأهداف والمُثُل، وصدق النية وحسن القصد، ينبغي أن تُقرأ هـذه المقالات التي كُتبت في أوقاتٍ شتىٰ تحت عناوين مختلفة تجمع بينها وحدة هي وحدة (منهج الفكر الإسلامي السليم) والدعوة إلىٰ الحق وإلىٰ الصراط المستقيم.

* * *

ما هي النصرانية؟[1]

لفضيلة الأستاذ محمد تقي العثماني
القاضي الشرعي في محكمة باكستان العليا

من الألغاز التاريخية التي لم يكن من السهل والميسور حلها وفكها، ومن الظواهر التي لا يسهل تفسيرها والاهتداء إلى سرها، أنَّ الديانة المسيحية رغم كونها هي المنافِسة الكبرى للدين الإسلامي من يومه الأول، في المجال الدعوي والميدان السياسي، والوصاية على المجتمع البشري، وفي قيادة الركب الإنساني، لم توضع ــ في مجال الدراسات المقارنة للأديان والعقائد وفي كتب التوحيد، وعلم الكلام وتاريخ الملل والنحل ــ على محك البحث العلمي والنقد التحليلي، ولم تخضع لمبادىء النقد الأمين المحايد إذا لم نقل ــ التزاماً لأدب الأسلوب العلمي ــ للتشريح الطبي والجراحي.

وكان من مناهج المؤلفين في استعراض الديانة والعقائد المسيحية، والبحث فيها والحكم عليها، والتي درجت عليها الأجيال ومضت عليها القرون، وضع الديانة المسيحية على صعيد الديانات السماوية ــ وبالأصح علىٰ مستوى الديانة السماوية الوحيدة التي هي الإسلام، إذ ليست هنالك ديانة سماوية محفوظة على وجه الأرض غيره ــ ووضع الأناجيل الأربعة على مستوىٰ الكتاب العزيز الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيْه ولا من خلْفه، تنزيلٌ من حكيم حميد﴾[2]، ثم المحاكمة بينهما كما هو الشأن في كائنات

(١) صدر الكتاب من باكستان مكتبة دار العلوم في كراتشي سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٢.

وشخصيات ــ بالمعنى العام ــ من جنسٍ واحد، مع اختلاف قد يكون صغيراً وقد يكون كبيراً.

مع أنَّ الأناجيل الأربعة لم تؤلَّف إلّا بعد سيدنا المسيح، ولم يدرك أحد مؤلفيها نبيَّ الله عيسى ابن مريم، ويكتنف تدوينها ومؤلفيها الشيءُ الكثير من الغموض والالتباس والاضطراب، وكانت بكتب السيرة والأخبار والآثار أشبه منها بالكتب المنزّلة من الله المبنية على الوحي والإلهام[1]. والمواد المنيرة لحياة سيدنا المسيح وتعاليمه لا تتجاوز خمسين يوماً من حياة المسيح[2]، وكان أحسن حالها أن توضع على مستوى كتب السير من الدرجة الثانية أو الثالثة، إذا لم نقل قصص المولد الكثيرة المنتشرة بين المسلمين، فضلاً عن الصحاح وكتب الحديث الموثوق بها.

وبذلك الموقف الذي لم يصدر إلّا عن سلامة قلوب المسلمين واحترامهم للممثلين والقادة للديانات السماوية، نالت هذه الديانة ــ التي كانت من أضعف الديانات العالمية علمياً وعقلياً، وأكثرها تعرضاً للتزييف في مخبر التاريخ ومحكمته ــ ونالت الأناجيل التي كانت مليئة بالاختلافات والتناقضات ما لم تكن تستحقه من الثقة والتقدير وعلو المكان ونباهة الشأن، وتخلصت بذلك من كثير من التساؤلات والجرح والنقد.

وكان أشدَّ من ذلك أنَّ كثيراً من المؤلفين في الملل والنحل آثروا خطة الدفاع عن الإسلام علىٰ خطة الهجوم على هذه الديانة التي كان من أقوىٰ براهينها التي كانت تعتمد عليها في إثبات صدقها، وكونها دين الله المختار

---

(١) راجع للتفصيل والأمثلة والشواهد فصل «الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ» في كتاب صاحب التقديم «النبي الخاتم» أو «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»: ص ٩٨ إلى ٢٠٤.

(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية، مقال شارلس أندرسن سكات (١٣/١٧١).

وتعاليم نبيٍّ مؤيَّد من الله، الحكومات الواسعة التي قد لا تغرب عنها الشمس، والقوة المادية التي لا تضارعها قوة، وضخامة عدد أتباعها، وكثرة الأعمال الخيرية، والمستشفيات والمؤسَّسات العلمية، والتقدم «التكنالوجي» والقدرة على تنظيم الحياة، مع أن شيئاً من ذلك لا شأن له بثبوت ديانة أو عقيدة ولا صلة له بحقية وبطلان.

ولا شك أنه يكون من التجنِّي ومن القسوة في الحكم، إطلاق هذا الحكم على جميع المؤلفين الإسلاميين، والمتكلمين الأولين والمتوسطين، فما (من عامٍّ إلّا وقد خُصَّ منه البعض) كما يقول التعبير الأصولي، ويمكن الاكتفاء باسم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ)، صاحب كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»[١] فقد آثر خطة الهجوم على الدفاع، وتناولَ العقائدَ المسيحية، والأناجيل الأربعة، بالنقد الجريء والحكم البريء، وأصاب المحز، وفي لفظ صاحب هذا التقديم: «غيَّر ذلك وجه البحث والجو الذي تقوم فيه المناظرة، وأفقدَ الخصومَ الموقف المشرف الذي تمتعوا به واستغلوه زمناً طويلاً»[٢].

والذي يستحق أن يذكر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية ويعترف بفضله وسبقه، هو الإمام العلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي (١٣٠٨هـ = ١٨٨١م) صاحب الكتب العظيمة المقبولة، في العالم الإسلامي، المجلجلة في العالم المسيحي، أهمها كتاب «إظهار الحق»، و«إزالة الأوهام»، و«إزالة الشكوك»، فقد تجنَّب في نقده للمسيحية وكتب العهد القديم والجديد، البحوثَ الدقيقة التي يتَّسع فيها مجال الجدال

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب «صاحب المقدمة» الجزء الثاني من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الحافظ ابن تيمية، فصل «الرد على المسيحية».

(٢) تقديم كتاب «إظهار الحق»: ص ١٤.

ويكثر فيها القيل والقال، بل اتَّخذ ـ بتأييد من الله وبعبقريته الكلامية ـ طريقة رياضية واقعية لا تقبل نقاشاً ولا تسمح بتشكيك أو تأويل، فاعتمد على التناقضات الواضحة والبديهيات الجليَّة، وأثبت أن التوراةَ والإنجيلَ مليئةٌ بالاختلافات والتناقضات، وقد وقع فيها أخطاء لا تقبل تأويلاً، وتعرَّض فيه لمغالطات النصارىٰ وتمويههم في أسلوبٍ سائغ مقنع[١].

ولما ظهرت ترجمة هذا الكتاب العظيم في الأردية باسم «بائبل سي قرآن تك»، «من العهد القديم إلى القرآن»، في كراتشي، قام الأستاذ الفاضل صديقنا الأستاذ محمد تقي العثماني نائب مدير دار العلوم في كراتشي، والمستشار الديني والقاضي الشرعي في محكمة باكستان العليا، وقد تلقى العلوم الدينية في عمق وإتقان، وتخرَّج على والده العظيم العلامة الكبير مفتي الديار الباكستانية الأكبر، سماحة الشيخ المفتي محمد شفيع العثماني الديوبندي رحمه الله، مؤسِّس دار العلوم في كراتشي، ثم دَرَسَ اللغة الإنكليزية وتخرَّج فيها وفي الحقوق، وكان بذلك قادراً على الاستفادة من المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية وتاريخها بطريق مباشر، فحلَّى جيد هذا الكتاب بمقدمة في نقد المسيحية وتاريخها، وتطور عقيدتها ومبادئها، وتحولها مع الزمن في وقت مبكر، من ديانة سماوية سمحة مؤسسة على عقيدة التوحيد الخالص، إلى ديانة محرفة مطعَّمةٍ بالوثنية اليونانية، والجاهلية الرومانية، وتعمقات فلسفية حلولية اتحادية.

وقد ذكر في تفصيل العوامل التاريخية والعقائدية التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الديانة المظلومة، التي قلَّما يوجد لها نظير في وقوعها فريسة سهلة، ولقمة سائغة لأهل الأهواء والأغراض، وأزاح الستار ـ في قدرةٍ فائقة

---

(١) سبق التفصيل لموقفه البطولي الحاسم من القس «فندر» الذي تحدَّىٰ الإسلام والمسلمين في عصره في تقديم الكتاب بقلم كاتب هذه السطور.

وخبـرةٍ واسعة وأمـانةٍ علميـة ـ عن المؤامرات المحبـوكة الأطـراف، والمحن القاسية التي تعرَّضت لها هذه الديـانة التي كـان انتصارهـا في ميدان السيـاسة والسيطرة العالمية، مقابل إخفاقهـا وانهزامهـا في مجال الـديانـات والعقائـد، فكـان كل من ذلـك بلـغ القمة، وذكـر الفرق التي رفضت أن تؤمن بـألـوهيـة المسيـح، والرجال الـذين رفضوا عقيـدة الحلول والتجسد، ومـا آلوا إليـه من خيبـة وإخفـاق، واستعـرض الفـرق المختلفـة واختـلافـاتهـا، وتنـاول عقيـدة (الصليب المقدس) والعشاء الرباني، وولادة سيدنا المسيـح، وتـطور العقيدة المسيحيـة وأسبابـه، وذكـر مـا كـان لقسـطنـطين الكبيـر من دور في تحـويـل المسيحيـة عن طبيعتها الأولى، وواصـل السيـر إلى (غـريغـوريـوس)، وذكـر تاريخَ المسيحية في مختلف العهود والمناطق، ثم أشار إلى محاولات ضائعة في سبيل الإصلاح وحركات التجديد والإحياء، وتناول إنجيل برنابا بالتحقيق، وحدَّد مكانته في الأناجيل في ضوء التاريـخ والبحث العلمي.

وقـد تـوصَّـل بعـد هـذا البحث الـدقيق العميق في تـاريـخ المسيحيـة وتطورات عقائدها، إلىٰ أنَّ الدين الذي جاء به المسيـح ـ عليـه وعلى نبينـا الصـلاة والسلام ـ قـد اندرس بعـده بمـدة قليلة، وحلَّت محله ديـانـة كـانت تعاليمها على عكس أقوال سيدنا عيسى عليه السلام وتعاليمـه، وأنَّ المسيحية المعاصرة ليس مؤسسها هو سيدنا عيسى عليه السلام، وإنما هو (بـولس) التي تـوجد لـه ١٤ رسالـة في «الكتاب المقـدس» ويستشهـد بقـول عـالم مسيحي (W. Wrede): (إنَّ بولس قد غيَّر المسيحية بدرجة أنه أمسىٰ مؤسسها الثاني، إنه في الواقـع مؤسس المسيحية الكنسية التي تختلف عن المسيحية التي جاء بها يسوع المسيـح تمـام الاختلاف، ولا يمكن الجمـع بينهمـا في العمل في وقت واحد).

ومن شواهد توارد الخواطر، ووحدة النتائـج العلمية والتقـائها إذا كـانت طرقها ووسائلها صحيحة، أنَّ كاتب هذه السطور قـد قال في إحـدى كتابـاته،

وهو يتكلم عن تسمية القرآن النصارى بـ (الضالين) ما معناه:

(لا يفهم سرُّ هذه الكلمة وحكمة هذه التسمية ـ المختلفة عن اليهود الذين سماهم القرآن بـ ﴿المغضوب عليهم﴾ ـ إلاّ من كان له اطلاع دقيق على تاريخ نشوء المسيحية وتطورها في أول عهدها، فقد انحرفت عن الجادة التي تركها عليها المسيح في أول رحلتها، وسارت على درب مختلف عن الدرب الأول كل الاختلاف وتكفي لذلك شهادة واحدة، وهي شهادة العالم المسيحي (Ernest de Bunseh) فيقول: «إنَّ العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله، وإنَّ مردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين، ليس إلىٰ المسيح، بل إلى دهاء بولس (Paul) ذلك المارق اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essene) والتمثيل»)[1].

ولما اطَّلع كاتب هذه السطور على هذه المقدمة العلمية المستفيضة التي تقوم مقام كتاب، كتب إلى صاحبها الأستاذ (محمد تقي العثماني)، يبدي إعجابه بها، ويقترح عليه الإسراع في نقلها إلى اللغتين الإنجليزية والعربية، لقيمتها العلمية والدعوية، ولأنها منيرة للعقول والأذهان، كاشفة لحقيقة الديانة المسيحية، قد تكون وسيلة ـ إذا حالف التوفيق الإلّهي وزال غطاء العصبية ـ للتفكير الجاد العميق، والاهتداء إلى الدين القويم والصراط المستقيم.

وقد شرح الله صدر كاتبها أخيراً لتحقيق هذا الغرض وهيأ له أسبابه، فطلب من أخينا العزيز الأستاذ (نور عالم الأميني الندوي)، أن ينقلها إلى العربية، وهو مترجم قدير وعالم ضليع في اللغتين، فقام بهذه المهمة في دقة وأمانة، وقدرة ولباقة، ويسعد كاتب هذه السطور ـ ولعله صاحب الفكرة

---

(١) Islamor Thue Christianitg P. 128.

الأولىٰ في نشـرها ونقلهـا إلى اللغتين العربيـة والإنجليزيـة ـ أن يقـدِّم لهـذه المقدمة التي تنشر ككتاب مستقل، وتقدَّم إلى قُـرَّاء العربيـة، كتحفةٍ علميـة، وثمـرة يانعـة شهيـةٍ لشجـرة البحث العلمي الخـالص، والـدراسـات الـدينيـة المقارنة، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

باقة الأزهار[1]

للأستاذ محمد ناظم الندوي

إنَّ الكتابة عن صديق حميم وزميل قديم ـ قضىٰ معه الكاتب شطراً من العمر من أهنأ أوقات الحياة، وأطيبها وأصفاها ـ أو إبداء انطباعات عن أدبه وشعره، محنة كبيرة للكاتب، فإنه تتمثّل له الصور، وتنثال عليه الذكريات، وتتجدَّد له الأحزان، والأفراح، يحار بينها الكاتب ويقف مشدوهاً مغلوباً على أمره، كيف يتغلّب عليها، وكيف يشق الطريق من بينها، وكيف يمسك عنان القلم فلا يرخيه، ولا يرسل النفس على سجيتها، وينشد بيت الشاعر الحماسي:

وأذكر أيامَ الحِمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا

كنا ثلاثة أصدقاء، زملاء في الثلاثينات الأولىٰ من هذا القرن الميلادي في ندوة العلماء «بلكهنئو»، معروفين بهيامهم باللغة العربية وآدابها، يشار اليهم بالبَنان وقد ينظر إليهم شزراً لمغالاتهم في حبها وتفانيهم في الانتصار لها والدعوة إليها والتشاغل بها، دراسةً وكتابةً، ونطقاً وتدريساً، وهم الأستاذ الكبير الشيخ (مسعود عالم الندوي)[2]، رائد الصحافة العربية وزعيمها في شبه القارة الهندية، والكاتب الأديب المؤرخ الصحافي الإسلامي، وكان أكبر

---

(١) صدر الكتاب في كراتشي.

(٢) وهو المشهور بالأستاذ مسعود الندوي رئيس تحرير مجلة «الضياء» العربية.

الثلاثة سناً وأوسعهم اطلاعاً وأبرزهم حماساً، وقد بلغت حمايته للقضايا الإسلامية، والآداب العربية إلى درجة الحميَّة.

وأوسطهم صاحبُ هذه المجموعة الشعرية الأستاذ محمد ناظم الندوي، وكان يمتاز برسوخه في قواعد اللغة العربية، وإتقانه للصرف والنحو وعلوم البلاغة، وتضلعه من اللغة العربية، ومفرداتها وتعبيراتها، وبحفظه للشعر الجاهلي والإسلامي.

وكان ثالث ثلاثةٍ في الجماعة، وأزجاهم بضاعة كاتب هذه السطور، وكلهم من الطليعة الأدبية، أو الكتيبة العربية التي أكملت دراستها الأدبية، وهذبت ورقت ذوقها العربي في (مدرسة) العلاّمة الدكتور (محمد تقي الدين الهلالي) المراكشي، الذي رأس قسم اللغة العربية وآدابها في دار العلوم لندوة العلماء سنة ١٩٣١هـ (١٩٣٤م)، فكان الأستاذ مسعود عالم الندوي ـ الذي يعرفه قُرَّاء العربية، بـ (مسعود الندوي) ـ قد تخرَّج بدار العلوم قبل أن يغدو الأستاذ الهلالي إليها، إلا أنه انتهز فرصة وجوده في هذه الدار، فاغترف من بحر علمه، ونهل وعَلَّ من معينه الصافي، أما الأستاذ محمد ناظم وكاتب هذه السطور، فقد كانا زميلين مترافقين في الدراسة، ثم في التدريس، فالكتابة في مجلة «الضياء»، فالمساهمة في النوادي الأدبية الطلابية ففي السكنىٰ، والخروج في الرحلات والجولات الدعوية والاستطلاعية، وكان كما قال الشاعر:

وكنا كغصْنَي بانة قد تأنقا ... على دوحةٍ حتى استطالا وأينعا

حتى تشتَّت هذا الشمل وانفرط هذا العِقْد في سنة ١٩٤٧م، وانتقل الأستاذ محمد ناظم إلى باكستان.

ظل صاحب هذه المجموعة مشتغلاً بمهنةِ التدريس، والإشراف على شؤون التعليم متصلاً بالأدب العربي، وكان مديراً للجامعة العباسية في

(بهاولبور الباكستان)، تخلَّلت ذلك فترة قضاها أستاذاً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إلىٰ أن أحيل إلى المعاش واستقرَّ في كراتشي، بارك الله في حياته ومتَّعهُ بالصحة والعافية والتوفيق لما يحب ويرضى.

وقد كان الأستاذ محمد ناظم الندوي يقول الشعر أحياناً، ولم يكن في زمن من الأزمان من المكثرين، إنما كان شاعر الندوة الأستاذ اللغوي الضليع المرحوم (أبو الزبرقان الشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي)، صاحب ديوان «الزهرات»، التي قدّم له الأستاذ عالم الندوي بمقدمة بليغة، وكان له لكل مناسبة وعند قدوم كل ضيف محتفىً به قصيدة رنانة.

وقد اطلعت على سبيل المصادفة على قِطَع شعرية للأستاذ محمد ناظم، وأخذت منه قصيدة قالها في القلم، وكان من خبرها أن أستاذنا العلّامة (السيد سليمان الندوي)، رحمه الله، أهدى إليه قلماً، ففاض قلبه بالشكر والامتنان على هدية قلم يهديها أكبر كاتب إسلامي في شبه القارة الهندية، ومن أكبر الكتّاب والمؤلفين في عصره، فكانت خير هدية من خير مُهْدٍ، وجاشت قريحته بشعرٍ بليغ يصدر من أديب يعرف قيمة القلم، ويحسن استخدامه في النثر والنظم، واقتبست هذه القصيدة لكتابي «القراءة الراشدة»، الذي كنت أيامها مشغولاً في تأليفه، ولعل كثيراً من أصدقائه لم يعرفوا أنه شاعر إلا بهذه القصيدة، وهي عندي من أحسن ما قيل في القلم خصوصاً الأبيات الأخيرة، منها:

تفري الأمور بحدِّه ... ولمجده يعنو الزمن
يرقى اللديغ بنفثه ... فيهب يمشي من وسن
يسقي الجديب بنبعه ... فإذا به روض أغن
سيفٌ صقيل في الوغىٰ ... موتٌ ذريع بالرسن

وحصلت على مجموعة شعره قريباً، فتجوَّلت في أصناف من الشعر

لم أكن قد اطلعت عليها قبل هذا، ولاحظت أنَّ ملكته الشعرية قد نضجت وترقَّت مع الزمن، قرأت له قصيدة في وصف (تاج محل)، تلك الدرة اليتيمة في الفن المعماري، وقد ظهرت فيه قدرته على الوصف، وقرأت له قصيدة في مدح المجاهدين الفلسطينيين، فأعجبت بقدرته على وصف الحرب، واختيار الكلمات المناسبة لها، وقد تجلَّت فيها جزالة القديم، وتضلّع من الأدب العربي، وتأثُّر بالشعر العربي والوصفي في العهد العباسي.

وقرأت قصيدة في وصف الحج وأيام مِنى، فأُعجبت بقدرته على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الدينية والوجدانية، ومطاوعة اللفظ العربي لها، يقول في هذه القصيدة:

إذا ما ظلام الليل يأتي بطيفها ... يدغدغ قلبي ناعم اللمسات
هي الحزن والسلوان والداء والشفا ... وتوحي إلى الشعر كالزهرات
هي الروح والريحان والهمُّ والأسى ... ومنها يفيض الشعر كالقبسات

وقد ظهرت قدرته على القوافي في قصيدته التائية في وصف روضة، يقول في آخرها:

لعلَّ نجوم الفلك لم ترضَ أن ترى ... مثيلاً لها بالأرض في لمعات
فأوحت إلى أخت لها في سمائها ... لترسل عليها الضوء باللفحات
فكانت كما شاءت وزال بهاؤها ... وجفَّ بها ما كان من قطرات

وظهرت الواقعية في وصف رجل القرن العشرين ما له وما عليه في قصيدة طويلة فيها خمسة وثلاثون بيتاً، والاستعراض التاريخي في قصيدة عن أخلاق اليهود وفيها أربعون بيتاً، وفي وصف الحضارة الغربية وإنكار الوجودية.

وظهرت حميته الدينية في رثاءِ الملك فيصل بن عبد العزيز الشهيد رحمه الله، رائد التضامن الإسلامي، والملك العاقل البعيد النظر، المحتضن

للقضـايا الإسـلامية في العـالم الإسلامي، وفي التغنّي بـالجهاد الفلسـطيني، وبطولة المجاهدين المغامرين، وقد نبـع كل هـذا الشعر عن عـاطفة إسـلامية قوية وحمية دينية.

أمـا بعـد، فـإني لم أقـل شيئـاً عن صـديقي الحبيب وزميلي الأريب، الأستـاذ محمـد نـاظم النـدوي، فـالـوقت ضيق، والفكـر مشغـول، والقلبُ جـريـح، والأحداث التي وقعت قـريباً في الشـرق العربـي، وفي شبـه القـارة الهنـديـة تشغـل القلب، وتصـرف القلم، ومعـذرةً إلى الأستـاذ محمـد نـاظم الندوي، وإلى شعره وأدبه، وإلى القلب الذي أحبَّه واعترف بفضله.

* * *

العلّامة السيد صديق حسن القنوجي[1]

للدكتور السيّد محمد اجتباء الحسيني الندوي

يسعدني أن أقدِّم لكتاب أُلِّف عن حياة الأمير السيد (صديق حسن خان) وآثاره، وشعوري بهذه السعادة والاغتباط يرجع إلى عدة أسباب سأتناول شرح بعضها في هذا التقديم القصير.

لقد ولدت في بيت: كان موضعه الأثير الحبيب، بل هوايته التأليف في سِيَر الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء وأهل الفضل، وخاصةً الذين أنجبتهم أرض الهند، ونبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإسلام في هذه البلاد إلى هذا القرن، ونشأتُ في بيئةٍ كان الحديث الدائر المتكرر في أوساطها ومتعة المتحدثين فيها، الإشادة بالمُثل والقيم الإنسانية والعلمية، والتنويه بسماتِ العلماء الكبار، ومجالات اختصاصهم وتبريزهم، والشعائر الغالبة عليهم، والتغنّي بنبوغ أصحاب النبوغ، وعبقريةِ أصحاب العبقريات في مختلف العصور والأمصار في إكبار وإعظام، بل في شيءٍ من الهيام، فثارت في نفسي ملكة الإعجاب بمواضع العظمة والنبالة، ومكارم الأخلاق وعلوّ الهمة، وسموّ النفس لدى أفراد البشر بصرف النظر عن جنسيتهم، ووطنيتهم، وعصرهم التاريخي، وكان ذلك في سنٍّ مبكرة لا تبعث فيها هذه الملكة في غالب الأحيان، والملكات البشرية المودعة في طبائع الأطفال قد يثيرها باعث خاص ـ من بيئة وتربية وحوادث مخصوصة ـ فتنقدح وتتفتق قبل أوانها

---

(١) لا يزال الكتاب مخطوطاً ماثلاً للطبع.

الطبيعي المعتاد، وقد كانت هذه قصة كاتب هذه السطور، ولا يدَّعي في ذلك تفرداً أو بدعاً من الأمر.

وقد نشأتُ بصفةٍ خاصة على حب التفنّن في الفضائل، والجمع بين الأشتات، بل الأضداد من الفضائل الإنسانية، وأنواع العلوم والمعارف، والآداب والثقافات، وعلوّ الهمة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غايةٍ مثلى، وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين ويعدونها من حثالة العلوم، وبراية الآداب[1]، ويستخدم العلماء الممتازون هذه العلوم والآداب في سبيل إثبات الدين، والدعوة إلى الله، ويخرجون لأهل عصرهم: ﴿من بين فَرْث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[2].

ونشأتُ كذلك على حب من يوفقه الله ويقويه على الجمع بين الرئاستين العلمية والعملية، والحسنيين الدنيا والآخرة، والنقيضين (في عرف الناس) من إمارةٍ أو وزارة في جانب، والاشتغال بالتأليف والتدريس أو التربية والإرشاد والإصلاح، وإزالةِ الفساد في جانب آخر، ولذلك نشأتُ على معرفة العلّامة الأمير السيد صديق حسن خان معرفةً أكثر وأعمق من المعرفة التي تنشأ عن الكتب، وتعتمد على السماع والرواية، وعرفت مواضع النبوغ والعظمة في هذه الشخصية الكبيرة التي كانت من مفاخر عصره ومن مفاخر الهند، وكان بحقٍّ في لفظ صاحب «نزهة الخواطر» الذي يتحرَّى الدقة والأمانة في وصف الرجال وتقييمهم، ولا يكيل المدح جزافاً:

(علامة الزمان، وترجمان الحديث والقرآن، محيي العلوم العربية، وبدر الأقطار الهندية، السيد صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد علي

---

(١) البراية ما يسقط عند نحت القلم، وهو المرذول الذي لا ينفع.

(٢) سورة النحل: الآية ٦٦.

الحسيني البخـاري القنـوجي، صـاحب المصنفـات الشهيـرة والمؤلفـات الكثيرة)[1].

ويـقـول:

(وكان غايةً في صفاء الذهن وسرعة الخاطر، وعذوبـة التقريـر، وحسن التحرير، وشرف الطبـع، وكرم الأخلاق، وبهاء المنظر، وكمال المخبر، ولـه من الحياء والتواضـع، ما لا يساويه فيه أحد، ولا يصدق بذلك إلا من تـاخَمه وجالَسه، فإنه كان لا يعدُّ نفسه إلا كأحد الناس)[2].

وكذلك كان إعجابـي وإكباري بنابغة القرن التاسع الهجري، وأحد أبناء الهند الأفذاذ (خواجه عماد الدين محمود الكيـلاني)، وزير الـدولة البهمنيـة الكبيرة (٨١٣ ـ ٨٨٦هـ)، تلميـذ الإمام شهـاب الدين أحمـد بن حجر العسقـلاني، ومؤلف كتاب «مناظر الإنشاء»، ومؤسس أكبر جامعة في بلدة بيدر، يقـول عنه مؤرخ الهند ومترجم نوابغها العلاّمة عبد الحيّ الحسني:

(كان عالماً كبيراً بارعاً في المعقول والمنقول، لا سيما الفنون الرياضية وصنـاعة الـطب والإنشاء وقـرض الشعر، وكـان باذلاً سخياً شجاعـاً، حسنَ العقيدة، حسنَ الفعال، يجزل على أهل العلم صـلات جزيلة، ويـرسلها إلى خـراسان ومـا وراء النهر، والعـراق، وكان لا يـأكل ممـا يحصل لـه من أقطاع الأرض شيئـاً بل يصـرفها على مستحقيهـا، وكـان يحفظ رأس مـالـه، وينمّيـه بالتجارة فيأكل ما يحصل له منها).

وله آثار باقية في أرض (الـدكن)، منها المـدرسة العـظيمة بـأحمد آبـاد بيـدر، وتلك العمارة في غـاية الحسن والحصـانة لا يـوجد لهـا نظيـر في بلاد

---

(١) نزهة الخواطر: ١٨٧/٨.

(٢) أيضاً: ص ١٥٢

الدكن، بناها في سنة ست وسبعين وثمان مائة، وتأريخه «ربنا تقبل منا».

ويـقـول:

(تدرَّج إلى الإمارة)، واستوزره علاء الـدين شاه البهمني، وجعله جملة الملك، ثم لقَّبه محمد شاه البهمني بخواجه جهان)[١].

وكذلك كان إعجابي بالأمير قائد الجيوش المغوليـة الأكبر عبـد الرحيم خانخانان، الذي يقول عنه العلاّمة السيد عبد الحي الحسني:

(لم ينهض من الهنـد مثله، ولا من غيرهـا من الأقـاليم السبعـة[٢]، من يكون جامعاً لأشتات الفضائل)[٣].

ويتقدَّم فيقول:

(وكانَ له من النقادة التامة، والشهامة الكاملة، وعلوٍّ الهمَّة والكرَم مـا لا يمكن وصفـه، مـع المعـرفـة لـلأدب ومـطالعـة كتبـه، والإشـرافِ على كتب التاريـخ، ومحبةِ أهل الفضائل، وكراهةِ أرباب الـرذائل، والنـزاهة والصيـانة، والميل إلى معالي الأمور، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يسـاويه في مجموع كمالاته، وكان مـع ذلك لا يعفيْ نفسه عن مطالعة الكتب، فـإذا كان على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده، وإذا كـان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خدَّامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل)[٤].

وكذلك الأمير الكبير نَوَّاب مرتضىٰ بن أحمد البخاري (١٠٢٥هـ) الذي يقول عنه العلاَّمة الحَسَني:

---

(١) «نزهة الخواطر»: ٣/١٧١ ــ ١٧٣، وترجم له السخـاوي في الضوء الـلامـع وذكره طاش كبرى زاده في «مفتاح السعادة».

(٢) لعله يريد في القرن الحادي عشر وما يتصل به.

(٣) «نزهة الخواطر»: ٥/٢٢١.

(٤) «نزهة الخواطر»: ٥/٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير، والسخاء والكرم، والمحبة لأهل الفضائل، والمَيْل إلى معالي الأمور.. «لقبه جهانكير بن أكبر شاه» بصاحب السيف والقلم)[1].

وكان من هؤلاء الأفذاذ النوابغ الذين جمعوا بين أشتات الفضائل، وأنواعِ المحامد والشمائل، العلاَّمة الأمير السيد صديق حسن خان، أمير ولاية بهوفال، وكان اسمه من الأسماء الأولى التي طرقت أذني في طفولتي، وذلك بسبب الوشائج والصلات الوثيقة التي كانت بيني وبين أسرة الأمير، وهي وشائج العقيدة السنية الخالصة، وارتباط والده العلاّمة السيد أولاد حسن القنوجي الروحي والديني بكبير أُسرتنا وشرفها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد، الذي بايعه الأول على الدعوة إلى الله، والعمل بالشريعة والسنّة والجهاد في سبيل الله، حتى كان موضع ثقته وسفيره الخاص إلى بعض الملوك والكبراء، ووشيجة القرابة كذلك.

وقد عاش الأمير السيد صديق حسن فترةً من الزمن في إمارة (تونك)، التي كانت من مواطن أُسرتنا بعد شهادة الإمام السيد أحمد، زيادة على ذلك كان نجله الأكبر العلاّمة السيد نور الحسن من أعزِّ أصدقاء والدي، ومن توثَّقت بينهما المحبة والوداد، والانسجام بين الأذواق والأخلاق، جاء في كتابه «نزهة الخواطر»:

(وكان له حبٌّ زائد لجامع هذا الكتاب، على أنه أكبر منه سناً وأغزر منه علماً، يُكثر التردّد عليه، ويبالغ في تعظيمه، ويحرص على مجالسته، ويبث إليه بذات نفسه)[2].

---

(١) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر»: ٥/٤١٣.

(٢) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر»: ٥/٥٠٦.

ولا أزال أذكر مرافقتي لوالدي في زياراته له، وقد كان يبيت بعض الليالي في قصره وأنا معه، وقد توفي في حياة والدي (سنة ١٣٣٦هـ)، فكان كثير التحسُّر عليه دائم الذكر له.

وقدَّر الله، بعد وفاة الأمير السيد نور الحسن، أن أقضي فترة لا تقلّ عن ثلاث سنين في منزله بلكهنؤ مع أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني، مدير ندوة العلماء سابقاً، كأحد أبناء الأسرة، وذلك بين العاشرة والثانية عشرة من سني، أسمع الكثيرَ من أخبار العلّامة الأمير، وأتقلَّب بين أبناء هذه الأسرة النجيبة داخل المنزل وخارجه، فوعيت الكثير، وعشت الزمن الماضي حساً وشعوراً وخيالاً، ثم لما تقدَّمت في السن والثقافة، وبدأت أشدو بالعربية، وأفهم وأكتب فيها، بدأت أقرأ بعض مؤلفاته التي كانت في مكتبته الثمينة، التي أودعها وَرَثَة الأمير في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، وكنت أسمع كثيراً من أخباره ومناقبه، وبعض المآخذ عليه ممن أدرك عصره أو جلس إلى بعض معاصريه وعارفيه من العلماء والمؤلفين، وكان شيخي في الحديث العلّامة حيدر حسن ابن الشيخ أحمد حسن خان التونكي الأفغاني (م١٣٦١هـ)، شيخ الحديث ورئيس الأساتذة في دار العلوم ندوة العلماء، تلميذ العلّامة المحدِّث الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني، أستاذ السيد صديق حسن، وربما أدرك الأمير وزاره وعرفه عن كثب، وقد وُلد مولانا حيدر حسن خان حوالي سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف.

إنَّ جمعه بين الرئاستين العلمية والعملية لا يتأتى إلا لأفراد الناس في فترات قليلة، وكثرت مؤلفاته التي بلغ عددها إلى اثنين وعشرين ومائتين، وإذا ضُمَّت إليها الرسائل الصغيرة بلغت إلى ثلاث مائة، وقد قام في مجال التأليف والإنتاج العلمي بما لو قامت به مجامع كبيرة في الشرق أو الغرب، لاستحقت الإعجاب والتقدير، وذلك كلُّه رغم المآخذ التي لا يخلو عنها كثير من كبار المؤلفين من تلخيص أو تجريد، أو نقل من لسانٍ إلى لسانٍ آخر،

أو استعانةٍ بالزملاء والفضلاء، أو اقتباسٍ من مؤلفات سابقة، ثم تشجيعه للحركة العلمية التأليفية، ونشر آثار السلف والعلماء المحققين الناصرين للسنة، كالعلّامة محمد بن الشوكاني، والعلّامة السيد محمد بن إبراهيم الوزير، والأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني، وحكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم، المعروف بوليِّ الله الدهلوي.. وغيرهم.

ومن مآثره التي لا تُنسىٰ ولا يغمط حقها، أنه أمَر بطبع «تفسير ابن كثير» (مع فتح البيان)، و«فتح الباري» للعلّامة ابن حجر، وقد اشترى نسخة من «الحديدة» وكانت بخط (ابن علان)، وطبعهُ بمطبعة بولاق في مصر، وكلَّف طبعه خمسين ألف روبية[1]، وأهداه إلى أهل العلم، والمشتغلين بالحديث في الهند وخارجها، وقد انتسخ «سنن الدرامي» عند قفوله من الحج، والبحرُ هائجٌ والسفينةُ مضطربة.

ومن مآثره وحسناته أنه كان السبب في انتقال العلّامة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني الانتقال الأخير الدائم، وإقامته في بهوفال، وهو الذي انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف، وانتشرت إجازته في الهند في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وتخرَّج عليه أئمة تدريس الحديث، وكبار أساتذته في شبه القارة الهندية، وبوجود العلّامة الأمير على منصة الرئاسة والإمارة، وطلوع السهيل اليماني في جواره وحماه، أصبحت بهوفال محطَّ رِحال العلماء، ومنتجعَ روَّاد الحديث، وكانت لعلم الحديث نهضة وانتفاضة لا نظير لها حتى في البلاد العربية، وفي مراكز هذا العلم القديمة، ونشطت حركة التأليف والتدريس والشرح في طول الهند وعرضها، وكان للسنّة وحمَلَتها، والدعاة إليها جولة وصَوْلة، وكان لأهل البدع ضعف

(١) ويبلغ هذا القدر من المال إلى مليون روبية في هذا العصر.

واختفاء في ربوع هـذه الإمارة الإسـلامية التي ملك زمـام الأمور فيهـا مدة من الزمن، وكانت له فيها الكلمة المسموعة، والأعلام المرفوعة.

هذا، وقد لقي الأمير من كثير من علماء العرب ومؤرخيهم شبه انصراف عنه، وعدم إنصاف، والسببُ في ذلك يـرجـع إلى عدم وجـود كتاب أُلِّف في حياته وآثاره وتقييمه تقييمـاً علمياً تـاريخياً، وإزاحـة الستار عن منـاقبه ومـآثره العلمية والإصلاحية، ومكانتـه في تاريـخ العلم والتـأليف والإصلاح والـدعوة في الهند، ولم أجد أحداً من علماء العـرب يعرف علوَّ منـزلته ويشيـد بفضله، ويشتغل بمؤلفاته ويثني عليها، أكثـر من العلاّمـة (محمد بن مـانـع) رحمه الله، مدير المعارف الأسبق في المملكة العربية السعودية، ووزير المعارف في دولة قـطر سابقـاً، فما كنت أحضـر لـه مجلسـاً في الخمسينـات الأولىٰ الميـلاديـة إلا ويتطرَّق الحديث بمناسبةٍ أو غير مناسبـة إلى ذكر العـلاّمة الأميـر والحاجـة إلى إحياء كتبه ونشرها.

وقد كان من تيسير الله تعالى وحكمته أن قَيَّض للكتابة في موضـوع حياتـه وآثاره الأخ العزيز (محمد اجتباء الندوي)، الذي اختار هذا الموضوع لرسـالة الدكتوراه التي قدَّمها لجامعة علي كراه الإسلامية، وهو حفيـد المصلـح الكبير الـداعي إلى الله الشيـخ جعفـر علي الحسيني النقـوي (م١٢٨٨هـ)، أحـد خلفاء السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) وزميـل والـد العلاّمـة الأميـر السيد أولاد حسن في الـدعوة والجهـاد، والارتباط بـإمام هـذه الدعـوة ــ السيد الإمام الشهيد ــ ورفيقه وعضده الأيمن العلاّمـة محمد إسمـاعيل بـن عبد الغني ابن ولي الله الدهلوي.

وقد التقىٰ في تأليفه لهذا الكتـاب عوامـل من البحث والتحقيق، والجد والعناء، والحب والعاطفة، وقد أعـان المؤلف على إتمام هـذا العمل وإيفـائه حقـه معرفته للغة الفارسية التي فيها عددٌ كبير من مؤلفات الأمير، وكان كـاتباً قديراً رشيقاً فيها، كما كان من الكتَّاب المعدودين في العربيـة في الهند الذين

لا يجاوز عددهم رؤوس الأنامل[1].

وكذلك معرفة اللغة الأردية التي يحذقها كأبنائها، وفيها عددٌ من مؤلفات الأمير أيضاً وأعانته على التأليف القدرة على اللغة الفصيحة والكتابة العربية السلسة الرشيقة، والروح النديّة الهادئة المتزنة البعيدة عنه الغلوّ والتطرف، والعصبية والتعسف، وما أحسن إذا اجتمعت هذه العوامل القوية ـ التي قد تبدو متناقضة ـ في كتابة كاتب، وتأليف مؤلف.

وإضافةً إلى كل ذلك أعان المؤلف تمكنه من الإفادة من مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، ومكتبة العلّامة الأمير التي أودعها نجلاه الأمير السيد نور الحسن والسيد علي حسن، مكتبة ندوة العلماء، ولاتصاله الوثيق بندوة العلماء والقائمين عليها، وكذلك صلته بالرجال الذين يعتبرون مراجع في هذا الموضوع، لذلك كله جاء كتابه حاوياً لوصف البيئة والمجتمع الذي ولد وعاش ونبغَ فيه الأمير، والملابسات والأجواء التي اكتنفت حياته، والعوامل التي لعبت دورها في تكوينه العقلي والنفسي والعلمي، ووصف معاصريه وأصدقائه، والمشاكل التي واجهها، واتجاهاته وذوقه، ثم استعراض كتبه ومؤلفاته، والدراسة المقارنة لها ومناقشتها، وتحديدُ مكانته العلمية والتأليفية، ومكانةُ آثاره العلمية والدينية إلى غير ذلك من البحوث النافعة المنيرة.

وأشعر وأنا أقرأ هذا الكتاب بغبطة وسرور، وكنت من ضمن المختبرين لهذه الرسالة، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلىٰ الله على نبيِّه وصفيِّه محمدٍ وآله وصحبه.

* * *

---

(١) ذكر لي العلامة محمد بهجة الأثري علامة العراق، أنَّ في مقدمة الكتاب المعدودين الذين لا مغمز في عربيتهم الذين نبغوا في الهند، العلامة السيد صديق حسن، ووالدكم العلامة السيد عبد الحي الحسني.

فهرس

الموضوع	الصفحة

كُتب عِشْت فيها :

كُتُب قدَّمت لها :

الموضوع	الصفحة

